







بنجامين فرانكلين

صورة عالم، كاتب، فيلسوف، إنسان

بقتلم
عباس محمود العقاد

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن يوسف محمد وأخواتها
٩ شارع عدلى بشا القاهرة

١٩٥٥

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للمؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

bas Mahmoud AL AKKAD'S «Biography of Benjamin Franklin»
All rights reserved
Franklin Publications, Inc.

محتويات الكتاب

صفحة

٧	• • •	« هذا الكتاب وهذا الرجل » بقلم حسن جلال العروسي
٩	• • • • •	تمهيد : بقلم عباس محمود العقاد

: الجزء الأول — عن فرانكلين

١٩	• • • • •	معالم الطريق
٣٧	• • • • •	العالم
٥٤	• • • • •	الكاتب
٦٨	• • • • •	السياسي
٨٨	• • • • •	الفيلسوف
١٠٢	• • • • •	الانسان

: الجزء الثاني — عن فرانكلين

١١٣	• • • • •	تمهيد
١١٦	• • • • •	تقويم ريتشارد المسكين
١٣٣	• • • • •	رسائل
١٩٩	• • • • •	خرافات وحكايات ذات مغزى
٢٠٩	• • • • •	علميات
٢١٩	• • • • •	اجتماعيات
٢٣٠	• • • • •	خاتمة

هذا الكتاب وهذا الرجل

بقلم حسن جلال العروى

المستشار العام لمؤسسة فرانكلين

يصدر هذا الكتاب يوم ١٧ من يناير سنة ١٩٥٦ قصدا وعمدا ،
لا مصادفة ولا اعتباطا ، ففى مثل هذا اليوم من مائتين وخمسين عاما
(١٧ من يناير سنة ١٧٠٦) ولد بنجامين فرنكلين العبرى الأمريكى
القد ، العالم ، الكاتب ، السياسى ، الدبلوماسى : الفيلسوف ، الانسان
الذى لا يقال فيه خير مما قاله كاتبنا الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد
مؤلف هذه الدراسة الرائعة .

اليوم يحتفل العالم كله باحياء ذكرى فرنكلين وتكريمه بنشر تعاليمه
وفلسفته الانسانية فى ميثاق تعاهد فيه مواطنو خمسين دولة مختلفة على
تخليد ذكرى الرجل الكبير بالعمل على نشر المبادئ السامية التى
استهدفها فى حياته . فدعوا الى العمل — فى نطاق دولى لايعرف الحدود
والتخوم — على انماء الثقة المتبادلة بين الأفراد ، واحترام الكرامة
الانسانية ، ومحو العنصرية ، وتدعيم التفاهم المشترك ، وتبادل احترام
العقائد المختلفة ، والتمسك بالحرية فى مختلف صورها ، والدعوة الى
اتاحة الفرص المتكافئة للجميع ... الخ . ما أعلنته هذه الجماعة من مبادئ
وقيم خلقية هى صميم المثل العليا التى تستلهم من سيرة بنجامين فرنكلين .

وهذا التكريم لذكرى فرنكلين سبقته مظاهر عديدة من مظاهر
التمجيد والتخليد فسميت باسمه عشرات المؤسسات والهيئات العلمية
والأدبية ، ولعل القارئ يدرك أن هذه المؤسسة بالذات انما سميت
باسمه ولم يكن ذلك لمجرد تخليد ذكره فحسب بل لأن القائمين بها

رأوا — وبحق — أن في نسبتها اليه ايضاحا للأهداف التي تسعى الى تحقيقها في خدمة السلام والأخوة الانسانية عن طريق الثقافة وتقريب مستويات المعرفة الصحيحة والادراك السليم .

ومن أحدث مظاهر التكريم لهذا الانسان العظيم ما قرره جامعة (ييل) أخيرا من نشر جميع ما كتبه فرنكلين في حياته العامة والخاصة، في مجلدات ضخمة ستنتشر تباعا . وقد حذت جامعة (ييل) في هذا الشأن حذو جامعة برنستون في نشر « أوراق » توماس جيفرسون الرئيس الأمريكى الفيلسوف .

ان في قراءة سير العظماء متعة وثقافة والهاما ، وأحسب أن شبابنا في مراحل تكوينه لا يستطيع أن يستغل أوقات فراغه بشكل أفضل من الاقبال على قراءة الجيد من سير العظماء ، واستلهاهم عظات حياتهم في استكشاف طريقه في الحياة . والسيرة التي تقدمها اليوم حرية بالتأمل والدراسة . وحسبك من قصة حياة أن يكون صاحبها بنجامين فرنكلين، وأن يكون كاتبها الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ذلك المفكر العملاق الذى تجاوزت عبقريته مع عبقرية من سبقوه ، فكانت هذه الدراسات الفنية العميقة — التى عرفت بالعبقریات — والتى أضافت ثروة أدبية كبيرة الى المكتبة العربية .

تمحيص

بمقام

عبدالله بن محمد العفشار

انسان وافر النصيب من ثناء الناس ، ومن ثناء الذين لا يثنون على
أحد الا بمقدار ، وقلما يثنون بمقدار .

حياء فولتير فسماه « فرنكلين المجيد الحكيم » (١) .

وحياه دافيد هيوم فقال : « انه الفيلسوف الأول والأديب الأول
الذي جذب أنظار أوربة الى البلاد الأمريكية » (٢) .

وحياة المصلح الناقد صمويل روميلي فقال بعد زيارته : « بين
المشاهير الذين اتفق لي أن رأيته في حياتي ، يلوح لي أن فرنكلين
— بسيماء وحديثه — أجدرهم بالتنويه ، فطلعت الأبوية وبساطته في
هيئته وكلامه ، وجدة ملاحظاته ... تركت في نفسي رأيا فيه أنه من صفوة
الرجال الذين وجدوا في كل زمان » (٣) .

وقال بلزاك : « انه اخترع عمود الصواعق ، واخترع القفشة ،
واخترع الجمهورية » .

وخطبه رئيس قومه واشنطن فقال : « اذا كان التبجيل اكراما
للخير ، واذا كان الاعجاب اكراما للنبوغ ، واذا كان التقدير للوطنية
والحب للانسانية ، خليفة أن تلهم عقل الانسان الرضا والغبطة ،
فلا مشاحة يتوافر لك السلوان بالحياة التي لاتذهب سدى » (٤) .

(١) Poor Richard

(٢) بنيامين فرنكلين تأليف برنارد كوهن

(٣) مشاهير رجال العلم في أمريكا تأليف كروثر

Famous American Men of Science by Crowther

(٤) الأمريكي الأول تأليف برلنجيم Burlingame

وقال رئيس قومه فرنكلين روزفلت وهو يحيى ذكره بعد مائة وخمسين سنة : « ان بنيامين فرنكلين الذى تدين له الجامعة — جامعة بيل — بالكثير ، قد أدرك أيضا أن المبادئ الأساسية فى العلم والأخلاق وآداب الاجتماع على خلودها تتجدد بالتطبيق والتنفيذ على حسب المعيشة من جيل الى جيل ، واننى على يقين أنه لو كان معنا اليوم لقرر أن الواجب الأكبر على الفيلسوف والمعلم أن يحققا المثل العليا للحق والخير والعدل بقسطاس الحاضر لا بقسطاس الزمن الغابر .. » (١) .

هؤلاء يحملون غصن التحية .

وأناس آخرون يثنون عليه وهم لا يحملون غير الميزان ، وقد يحسنون حمله باليمين وباليسار .

قال ليونل الفين Lionel Elvin فى كتابه رجال أمريكا :

« كان للحياة فى نفسه حب وعلاقات شتى ، وكان يحسن المتعة باللغو ، ويجتذب اليه القلوب ويملكها بتلك المودة التى تنجم من القناعة العميقة والصفاء القدير . وحق أنه كان الى العطف أقرب منه الى الشعور اللاعج ، والى الفطنة أقرب منه الى القريحة الشعرية ، والى الأخلاق العملية أقرب منه الى السريّة الصوفية ، والى الإصلاح أقرب منه الى الثورة والاقبال ، والى أن يعد فى زمرة أبناء الدنيا أقرب من أن يعد فى زمرة الأنبياء . ولو أنه قذف به الى جزيرة خالية لكان مسلكه فيها كمسلك روبنسون كروزو ولم يكن مسلكه ثمة كمسلك اسكندر سلكيرك من تصنيف كوبر ، وان اختلاف الرأى فى عرض هذا الخلق على معيار النقد ليتوقف على مزاج الناقد وتقديره ، وانما أساس النقد كله أن فرنكلين قد أفرط فى التوحيد بين الفضيلة والنجاح المحترم ، أو كما كتب على هامش ترجمته : ما من شئ كالفضيلة يكفل للمرء حظه ... ولكن مما يوضع له فى الكفة الأخرى أنه — اذا لم يكن قد عبر

(١) كتاب برنارد كوهن

عن أرفع الآفاق وأبعد الأعماق في الطبيعة الانسانية — قد جعل بفضل علمه وحبه لخير بلاده الأمريكية ، كما جعل الدنيا كلها ، مكانا أصح للعيش فيه ، وقد صعد بمجهوده في سلم وطنه الجديد ، وقذف بكل ما عنده في معركة الديمقراطية التي تقابل المجتمع الخاضع لسلطان الاستبداد ، وآمن بأن الناس جميعا ينبغي أن يكونوا — في كل مكان — راضين سمحين أحرارا مثقفين ، وإن العمل لمثل هذه الغاية وحسن الابانة عنها ليس بالمطلب الصغير ولا بالأمر الهين .. »

ومن الذين يثنون عليه من لا يحملون غصن التحيّة ولا يحملون ميزان الحساب ، ولكنهم يحتكمون الى هوى العاشق وشوق المقتون ، ويقولون بلسان قائلهم لورنس نبي الجسد في القرن العشرين :

« اننى لأعجب به » .

« أعجب بشجاعته الدءوب قبل كل شيء ، ثم أعجب بحصافته ، ثم ببصره النافذ في غمائم البروق والرعود والكهريا ، ثم بفكاهته الدارجة : كلها خصال الرجل العظيم الذى لم يكن قط أكبر من مواطن عظيم » .

ثم يقول ، أو تقول شيعته كلها بلسانه : « انه ... طابع ، فيلسوف ، عالم ، مؤلف ، وطنى ، زوج صالح ، مواطن ، فما باله لا يكون نموذجا يقاس عليه ؟

« أترأه رائدا ؟ يا للرواد !

« لقد كان بنيامين رائدا من أكبر الرواد في الولايات المتحدة ، ولكننا لانستطيع أن نسلك معه . فما هو جانب الخطأ فيه ؟ وما هو جانب الخطأ فينا ؟

« اننى لأذكر في صباى كيف كان أبى يشتري الكتاب الذى يسمى التقويم وتظهر على غلافه صور الشمس والقمر والنجوم ، وتتخلله النبوءات عن الحروب والمجاعات ، ومعها في الزوايا نواذر وأصاحيك تمازجها العبر والعظات ، وقد كنت أضحك ضحكى الصغيرة الغريبة

من تلك المرأة التي تعودت أن تعد الكتاكيت قبل انفراج البيض عنها وما الى هذه الفكاهات ، وعلمت من ثم أن الأمانة أفضل سياسة بشيء من تلك الغرارة . وكان مؤلف هذه الشذور ريتشارد المسكين ، وكان ريتشارد المسكين بنيامين فرنكلين ، كاتباً ما كتب في فلادلفيا قبل أكثر من مائة عام . وربما كنت حتى اليوم لا أسيغ تلك العبر والعظات ، ولا أزال ضائقاً بها كأنها الشوك في لحم الصبي الصغير . ولأنتى لا أزال أومن بأن الأمانة أفضل سياسة أرانى أبغض السياسة بحذافيرها . وانه لسواء عندي أن تعد الكتاكيت قبل مولدها وأن تعدها منهوما بمنظرها بعد خروجها من البيضة . ولقد لبثت السنوات الطوال وعانيت الوخزات التي لاعداد لها كى أخلص من ذلك السلك الشائك الذى أقام به ريتشارد المسكين أسوار الأخلاق .

وقبل ذلك يقول لورنس عن فرنكلين والروح الانسانية : « ان الروح الانسانى غاب ألفاف ، وفرنكلين يقطع منه حيزاً يحرثه ويدير عليه حائط البستان » (١) .

وهذا هو الشرط الناقص فى معيار لورنس نبى الجسد فى القرن العشرين ، أو نبى النزوات الحسية على التعبير الصحيح .

فلا يوافق ذوقه نظام متكشف لضوء النهار ، ولا بد من الألفاف المتشابكة على غير نسق معلوم ، ولا بد من الزوايا المظلمة واللفحات المضطربة هنا وهناك ، ولا بد من صدع الحائط حول البستان ليزول البستان اسماً وسمه ، ولا يبقى غير الغابة ذات الألفاف ، وذات السباع ، وجبذا لو اتسعت للأفاعى مع السباع !

ولا يطلب من كل عظيم أن يكون وفقاً لشروط لورنس فيما يستحق به المحبة والعاطفة المشتعلة . حسب العظيم أن يكون وفقاً لاجابه وتعظيمه بسبب أو سببين ، وقد كان فرنكلين وفقاً لشروط اعجابه بأسباب

(١) دراسات فى الآداب السلفية الأمريكية تأليف لورنس D.H. Lawrence

كثيرة : شجاعة وحصافة وبصر نافذ خلل الغمام ، وفكاهة دارجة ووطنية
جديرة بالاعظام والاكرام .

ولا نكتهم عن أنفسنا أننا نرضى عن معيار لورنس في تقدير العظمة
بعض الرضا ولا نحس في صميم الوجدان أننا نتكره كل الانكار .

أتكون عظمة بغير نار مقدسة ؟

كلا . لا غنى عن هذه النار المقدسة في عظمة عظيم ، وليس من حق
النظام ولا النور أن يسلبها تلك النار التي لا يقر لها قرار .

الا أن العبقرية كلها نار مقدسة ، والعبقرية كلها لا يقر لها قرار مع
اضطرام تلك النار .

وفرنكلين على وفاق هذا الشرط بغير شذوذ ولا استثناء ، فلا دخان
ولا شرر ولا قعقة من الوقود المتأجج بين الضرام .

ولكن النار هناك في الموقد المصون .

لا صاعقة تنقض على الحطام بين البروق والرعود ، ولكن العمود
هناك يتلقى الصاعقة في أمان .

والثفرقة بين النارين حتم في مقام الكلام على عبقرية فرنكلين .
أليس هو صاحب الموقد الذي نحس ناره ولا نحس دخانه وشرره ؟
أليس هو صاحب العمود الذي يستنزل الصاعقة ويروضها بعد الجراح
رياضة الفارس الخير ؟

ان العبقرية التي يعجب بها لورنس كالنار التي تلتهب في المدخنة ثم
تطير الحرارة منها بين الجدران وبين الهواء والهباء .

ولم تذهب هذه النار بين يدي فرنكلين ، لأنه صاحب الموقد الذي
اخترعه ليحفظ النار ويثبثها على السواء بين الجدران ، وليرسل منها الى
الفضاء ما تستغنى عنه الأبدان .

والصاعقة لم تذهب كذلك بين يديه ، ولكنه ساسها وقادها وأسلس زمامها ، فهي صاعقة في طريقها بين السماء والأرض ، ولكنها من قبيل العبقريّة التي خلقت لفرنكلين !

ويوشك أن يكون التشبيه هنا واقعة محتومة لا مجاز فيها ، ويوشك أن يكون الموقد وعمود الصاعقة من اختراع هذا العبقري لأنهما أشبه النيران بعبقريته الطيبة الرفيعة : عبقرية تعجب النفوس والعقول ، ولكنها لا تروع ولا تهول .

لهذه العبقريّة محلها بين العبقريات في كل زمن ، ولعلها أولى بالمحل الأول في هذا الزمن خاصة . لأنه زمن لا تعوزه عبقریات اللهب والدخان ، وقد تعوزه المثات من عبقریات النور والهداية والأمان .

ومن رسائل هذه العبقريّة في هذا الزمن أنه زمن ضاعت فيه الشخصية الانسانية بين التخصص والكثرة العددية ، وكلاهما « فناء » لمزايا الانسان أشبه بفناء « النرفانا » في عقائد المنهزمين المنكرين للحياة .

ان « التخصص » قد جار على « الشخصية الانسانية » فلم يترك في كل امرئ الا جزءا من انسان مستغرقا في جزء من المعرفة وجزء من العناية بالعالم الواسع الذي يعيش فيه ، وليس أضر ولا أوخم من هذه التجزئة في الزمن الذي ولدت فيه الفكرة العالمية وأصبحت علاقة العالم الانساني بعضه ببعض حقيقة متمكنة تتطلب الانسان كله للمساهمة فيها ، ولا تقنع منه بجزء ناقص محبوس في أصداف المحار .

وان هذه العبقريّة التي تعددت جوانبها وتشعبت شواغلها ، مع الاتزان والاعتدال وحسن الاحاطة والاجمال ، لهى الترياق الذي يشفى من هذه الآفة ، والقدرة التي تستنهض الهمة لمحاكاتها ، ثم لا تئسها من بلوغ الغاية في المحاكاة ، لأنها — بطبيعتها — تعجب النفوس والعقول ولكنها لا تروع ولا تهول .

وقد جارت الكثرة العددية على معالم الشخصية الانسانية فوق هذا

الجور الذى ابتليت به من داء التخصص والانحصار ، وقد تجدى هذه العبقريّة جدواها التى لا تشبها جدى العبقريات الأخرى فى انصاف « الشخصية » الممتازة من طوفان الكثرة العددية . لأنها من هذه الكثرة خرجت ، ولهذه الكثرة عملت ، وعلى هذه الكثرة عولت فى كل مرحلة من مراحل النجاح وعلى كل درجة من درجات السمو والارتفاع ، فلم يمنعها ارتفاعها من غمار الكثرة العددية أن تكون من زمانها الى هذا الزمان مثلاً نادراً « للشخصية » الفذة التى لا تضيع فى غمار .

والصفحات التالية صور متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقريّة ، لم نحفل فيها بسجل الأرقام ولا بإحصاء الأيام ، ولم نكتبها لنبدأ فيها بسنة الولادة ونختتمها بسنة الوفاة ونمضى فيها مع التقويم شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، ولكننا كتبناها كما نكتب تراجمنا عامة لنعرض فيها لمحة بعد لمحة تتم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر اليها ، وقد يتابعها القارئ فلا يفوته مع ذلك سجل الأرقام ولا إحصاء الأيام ، وانما يلم بها حيث يعبرها فى طريقه ، ويستغنى عنها بعد ذلك اذا شاء ، أو يبقيا على حد سواء .

وسنبداً « الصورة » بترجمة مجملّة ترسم مراحل الطريق ، أو ترسم حدود النظر الى الاطار الذى يحيط بملامحها وقسماتها ، ثم تتبعها بصورة لكل جانب من جوانب هذه الشخصية على أعمها وأوسعها ، مع صعوبة التعميم والاحاطة بهذه الشخصية الفذة التى لم تدع شأننا من شئون عصرها الا اشتغلت به فى وقت من الأوقات ، ثم ندع لها أن تتكلم بلسانها وتعبر لنا عن كل جانب من جوانبها ، ولعل الكلام الذى نسمعه منها أدل عليها من كل كلام يقال فيها .

ولنبداً بالترجمة : ترجمة العالم الكاتب السياسى الفيلسوف الانسان.

الجزء الأول
عن فرانكلين

معالم الطريق

كتب فرنكلين سيرته التي سماها المفكرات وسميت فيما بعد بالترجمة الذاتية ، وبدأها وهو ينوي أن يخص بها أبناء أسرته للاستفادة بها في شئونهم العائلية ، ثم اطلع عليها بعض أصدقائه فأعجبوا بها وأشاروا عليه باتمامها وتعميم نشرها ، ولكنها لم تنشر في حياته ولم يحصل عليها الناشرون كاملة الا بعد مساومات ومفاوضات طويلة ، مع الذين جمعوا أجزاءها في فرنسا حيث ظهر الجزء الأول منها للمرة الأولى مترجما الى اللغة الفرنسية .

وقد كتبت هذه الترجمة على أربعة أجزاء في أوقات متعددة وأماكن متفرقة .

كتب الجزء الأول منها في انجلترا وهو في الخامسة والستين من عمره، واشتمل بعد تاريخ أسلافه على تاريخ حياته من مولده في سنة ١٧٠٦ الى زواجه سنة ١٧٣٠ .

وكتب الجزء الثاني في باسى بفرنسا بعد ذلك بثلاث عشرة سنة (أى سنة ١٧٨٤) .

وكتب الجزء الثالث بعد أربع سنوات (١٧٨٨) على أثر عودته الى فلادلفيا وبلغ به حوادث سنة ١٧٥٧ حين كان في الحادية والخمسين .

والمظنون أنه أضاف اليها الجزء الرابع ما بين أواخر سنة ١٧٨٩ وأوائل سنة ١٧٩٠ قبل وفاته بفترة وجيزة .

ولا توجد بين الترجمات الذاتية ترجمة لها نصيب هذه الترجمة من الاقبال والقراءة العامة ، لأنها حديث شائق عن رجل مشهور محبوب يروى قصة حياته ، ويحسن روايتها على النسق الذي يهم كل قارئ

وقارئة كأنها قصة للتسلية ، وكأنها في الوقت نفسه قصة القارئ في حياته الانسانية التى تتشابه بين جميع الناس على اختلاف الحوادث والأوقات .

وهذه الترجمة تصور صاحبها أصدق تصوير غيما ذكره من أخباره وأعماله وفيما يستخلصه القارئ من بين السطور على غير قصد من المؤلف ، لأن أسلوبه فيها يفسر الناحية المهمة في شخصية فرنكلين وفي عوامل نجاحه وسهولة مسلكه بين الناس في كل مكان عمل فيه ، من وطنه الى انجلترا الى فرنسا ، ومن بيئة الصناع الفقراء الى بيئة الملوك والأمراء والنبلاء ، ومن طوائف الأमीين وأشبه الأमीين الى طوائف العلماء والحكماء وقادة الآراء .

ان الرجل لم يكسب هذا المسلك السهل بالملق والموافقة ، لأنه كان يبدى رأيه على أتمه اذا خالف سامعيه ، وكان لا يثنى على أحد بغير أسلوب العالم الذى يعنى كل ما يقوله وان تلتظ في التعبير ، ولكنه كسب هذا المسلك السهل بتسليمه للضعف الانسانى حيث لا تجدى المكابرة ، فكان يعرف عيوبه ولا يداريها ، وكان حكمته التى كتبها في تقويمه « نظف أصابعك قبل أن تنظر الى بقعى .. » شعارا له يتبعه ولا يلزم أحدا أن يتبعه مثله . فاذا كتب عن عيوبه خيل الى القارئ أنه برىء من تلك العيوب ، واذا شرح أعماله وتكلم عن أسباب نجاحه لم يكتف القارئ أنه فخور بها كما يصنع الكثيرون من أدعياء التواضع وانكار الذات ، ولكنه يتكلم عنها ويدع القارئ يفهم أنه قادر على مثلها اذا أراد ، وأن الأسباب التى استعان بها مبسطة بين يديه لأنها في ميسوره ومقدوره .

ومن مفتتح الترجمة الى ختامها يجرى المؤلف على هذا الأسلوب الصريح بغير تكلف ولا مداواة ، فيقول في مفتتح الترجمة انه كتبها ليرضى شهوة التحدث عن النفس التى تملك الشيوخ في أخريات أيامهم دون أن يضجر أحدا من سامعيه ، لأنهم أحرار في السماع أو الاعراض ،

وانه لا يكتف عن القارىء أنه فخور بنجاحه ولا يبدأ الكلام قائلا على سبيل الاعتذار « بلا فخر ولا ادعاء » ثم يتلوه كلام كله فخر وادعاء .. وبمثل هذا الأسلوب يجرد الفخر من شوكتة المؤذية ويجرد التواضع من طلائه الكاذب ، ويقف « بانسانيته » الضعيفة القوية بين أيدي اخوته من الناس .

ويستخلص القارىء من الترجمة صفة أخرى كان لها ولا ريب أثرها العظيم في ألفة فرنكلين للناس وألفة الناس اياه ، فان القارىء ليفهم من الصفحات الأولى أنه يعيش مع « مخلوق اجتماعي » من فرعه الى اصبع قدمه . وقد قيل قديما وحديثا ان الحاسة العائلية أساس الحاسة الاجتماعية وقرارها الذي ترجع اليه في الأعماق ، وهذه الحاسة العائلية أو هذه الحاسة الاجتماعية هي التي تنضح بها كل صفحة من صفحات الترجمة من بدايتها الى نهايتها ، فانه على علمه بفقر آباءه وأجداده ، وعلى عزيمة الهجرة الأبدية التي اعتزمها مؤثرا دار الهجرة على مواطن الآباء والأجداد ، وعلى كثرة الشواغل التي تشغل السفير الأمريكي عند حكومة الدولة البريطانية في ابان الخلاف والشقاق ، لم يمنعه هذا كله أن يبحث عن تواريخ أسلافه البسطاء وأن يتجرى منها كل ما أمكنه العثور عليه وأن يثبتته كما انتهى اليه بغير صقل ولا تزويق وبغير حشو ولا ادعاء .

ويستطيع القارىء من قراءة السطور وما بينها أن يفهم أن « بنيامين » قد ورث من كل سلف مذكور حمل اسم فرنكلين بنية قوية ومزاجا كأقرب ما يكون المزاج الانساني الى الاعتدال ، فسلك سبيله بين الناس بغير عقدة خفية وبغير خبيثة مطوية ، واستعان بتلك البنية على احتمال ما يعيا به الكثيرون من خلائق الناس التي تطاق أو لا تطاق ، ولا وجه لاستغراب النجاح من رجل عليهم بالضعف الانساني مقتدر على المعذرة مطبوع على الحاسة الاجتماعية ، سليم الأعصاب ، غير مضطرب المزاج . ونحن لا نريد في هذا الفصل — بداهة — أن نقل الترجمة كلها أو

نلخصها ، ولا نريد كما ذكرنا في التمهيد أن نستقصى هذه الترجمة في سائر فصول الكتاب ، لأننا آثرنا أن نتكلم على جوانب الصورة التي ترسم لنا ملامح فرنكلين ، وندع الكلام عن وقائع الحوادث وأرقام السنين ، فيعينا فرنكلين العالم كيف كان عالما ، وفرنكلين الكاتب كيف كان كاتباً ، وفرنكلين السياسى وفرنكلين الفيلسوف كيف كان في مناهجه السياسية وفي آرائه الفلسفية ، وكيف كان فرنكلين الانسان بعد ذلك انسانا حقا في جميع تلك الجوانب أو جميع تلك الملامح من الصورة الشاملة ، ولا يعينا ماعدا ذلك من التاريخيات التي لا تصحبها «نفسية» من هذه النفسيات .

نحن لانريد أن ننقل الترجمة أو نلخصها ، ولكننا لا نستطيع مع هذا أن نغفلها وندع النقل منها في كتاب عن «شخصية» الكاتب الذى ألفها... فما ننقله هنا من الترجمة فانما هو الجزء الذى يكفى للإبانة عن أسلوبه والجزء الذى تنفرد الترجمة به فلا يشاركها فيه مصدر آخر من مصادر السيرة التاريخية ، وذلك هو الجزء الذى يتكلم فيه فرنكلين عن سلفه الى مولده وطفولته واختياره لصناعته على آسال من سوابق أولئك الأسلاف ، ثم تتبع هذا الجزء بالاشارة الى خطوات هذه الحياة الحافلة بين أرقام السنين ، لأنها سجل يراجع عند الضرورة كلما دعت الحاجة اليه في متابعة فصول الكتاب ، ولا يفوتنا أن نعد من أسباب هذا الاكتفاء أن مفكرات فرنكلين ليست من قبيل التراجم التي تختصر وتلخص فيغنى عنها الاختصار والتلخيص ، لأنها بنية حية وليست أشتاتا من الحوادث يمسكها السمط ويأتى من يشاء فيقطع السمط حيث يشاء ، ولكنها تؤخذ جانبا جانبا كما تؤخذ الصور من جوانبها المتعددة ، وهذا هو جانبها الذى اخترناه لنقله بغير تصرف فيه ، للسبب الذى قدمناه .

قال فرنكلين في النسخة الأولى من مفكراته :

« هنا سأرضى تلك النزعة المألوفة في الشيوخ : نزعة التحدث عن

أنفسهم وأعمالهم الماضية ، دون أن أزعج بها غيرى ممن يحسبون - رعاية للسن - أنهم مطالبون بالاصغاء الىّ ، اذ كان فى وسعهم أن يقرأوا أو يدعوا القراءة متى شاءوا . وسأعترف أخيرا بأننى سأرضى غرورى لأننى ان أنكرته لم يصدقنى أحد . والحق أننى ما سمعت ولا قرأت قولة لقائل فى التمهيد لكلامه انه لا يريد أن يدعى أو يغتر ... الا رأيت بعد ذلك ضربا من الادعاء أو الغرور يأتى على الأثر . وان كثيرا من الناس ليغضون الغرور فى الآخرين مهما يكن من وفرة نصيبهم منه ، ولكننى تعودت أن أقسح له مكانا كلما التقيت به ، لعلمى أنه يفيد أحيانا من يغترون ومن يتصلون بهم فى جوارهم ، وليس من العبث اذن أن يشكر الانسان ربه على ما يسديه اليه من الغرور بين سائر النعم التى يستمتع بها فى حياته .

« والآن أقول بعد حمد الله متظامنا بين يديه اننى مدين بما نعمت به من السعادة لحكمته الرحيمة التى هدتنى الى الوسائل التى توسلت بها وبلغت ما بلغت من النجاح بفضلها ، وان يقينى بهذا يدعونى الى الأمل ، وان كنت لا أعلم الغيب ، أن تلك الحكمة الرحيمة سوف تتولانى لاستبقاء تلك السعادة أو للصبر على ما يصينى من خيبة الرجاء كما يصيب الآخرين . اذ لا يعلم مصيرى غير الله التقدير على أن يجعل فى كل شىء بركة حتى العذاب .

« ان المذكرات التى أسلمها الى أحد أعمامى المعنين مثلى باستطلاع الأخبار والنوادر عن أسلافي قد زودتنى ببعض المعلومات الخاصة عن أولئك الأسلاف ، وقد علمت من هذه المذكرات أن العائلة سكنت القرية بعينها - قرية آكتون فى نورثامبتون شاير - ثلثمائة سنة ولا يعلم كم من السنين أقامت فيها قبل ذلك ، ولعلها بدأت منذ اتخذت اسم فرنكلين ، الذى كان علما على طائفة من الناس ، لقبا لها يوم ذهب الناس جميعا يقرنون أسماءهم بالألقاب فى سائر أنحاء المملكة .

« وكانوا يعيشون على نحو ثلاثين فدانا مستعينين مع غلتها بصناعة

الحدادة التي احترفتها الأسرة الى أيامه ، وكان أكبر الأبناء يتدرب من نشأته على هذه الصناعة : عادة جرى عليها الآباء من القدام ونهج هو وأبى على مثالهم فيها .

« ولما ذهبت لمراجعة السجلات المحفوظة في قرية أكتون وجدت فيها تسجيلات لمولدهم وزواجهم ووفاتهم منذ سنة ١٥٥٥ ولم أجد لهم تسجيلات محفوظة قبل تلك السنة ، وعلمت من تلك التسجيلات أنني كنت أصغر الأبناء لأصغر الأبناء خمسة أجيال متعاقبة ، وكان جدي توماس الذي ولد سنة ١٥٩٨ معمرًا عاش في أكتون حتى أقعده السن عن مباشرة الصناعة فذهب الى بانبرى من اقليم « أكسفورد شاير » ليعيش مع ابنه جون الذي كان يحترف الصباغة وعلى يديه تعلم أبى هذه الصناعة ، وقد توفي جدي ودفن بها ورأينا شاهد قبره سنة ١٧٥٨ .

« وسكن ابنه الأكبر — توماس — في منزل أكتون ثم تركه ومعه الأرض لابنته الوحيدة التي باعت الميراث — هي وزوجها المسمى فيشر من ولنجبورو — لمستر استيد مالك الأرض الآن .

« وقد كان لجدي أربعة أبناء شبوا وكبروا وهم توماس وجون وبنيامين وجوشيا ، وسأخبرك بما علمته عنهم بعيدا من مراجعي وأوراقى معتمدا على ما وعته الذاكرة . فان لم تكن تلك الأوراق قد ضاعت فانك واجد فيها مزيدا من التفاصيل .

« نشأ توماس حدادا بصحبة أبيه ، ولكنه كان ذكيا فشجعه السيد بالمر عميد البلد كما شجع اخوته على التعلم والاستزادة من المعرفة ، فتدرب على كتابة العقود ونه شأنه في أمور البلد وأصبح وعليه المعول في توجيه المسائل العامة بنورثامبتون وقريته التي روت لنا أخبارا كثيرة عنه ، وذاع صيته في اكتون فتولاه لورد هليفاكس يومئذ برعايته . ثم مات في السادس من شهر يناير سنة ١٧٠٢ حسب التقويم القديم قبل مولدى بأربع سنوات ، وتدل سيرته التي تلقيناها من شيوخ أكتون كما أذكرها

على أمر عجب لشدة الشبه بينها وبين سيرتى ، ولو أنه مات فى نفس اليوم الذى ولدت فيه لخطر لك أنتى تقمصت روحه !

« ونشأ جون صباغا يشتغل على ما أظن بصبغ الصوف ، ونشأ بنيامين صباغا للحريز متلمذا فى الصناعة بلندن . وكان رجلا ألعيا أذكره جيدا لأنه جاءنا اذ كنت طفلا ليزور والدى فى بوستون ، وسكن معنا بالمنزل بضع سنوات ، وقد عمر طويلا ، وحفيده صمويل فرنكلين يعيش فى بوستون اليوم ، وقد ترك بمده مجلدين من نظمه يشتملان على مقطوعات منظومة لمناسباتها موجهة الى أصدقائه وأقاربه ، ومنها واحدة وجهها الى^(١) .

« واخترع طريقة للاختزال علمنى اياها ولكننى لم أستعملها قط ونسيتها الآن . وقد سميت على اسم هذا العم للعطف المتبادل بينه وبين أبى ، وكان تقيا جدا شديد المواظبة على حضور العظات من أبلغ الوعاظ يسمعها ويدونها بطريقة الاختزال ويحتفظ عنده بمجموعات كبيرة منها . وكان كذلك مشغولا بالسياسة كثيرا ولعل اشتغاله بها كان أكثر مما يلائم مركزه . وقد عثرت له فى لندن على مجموعة للكراسات التى صدرت فى موضوعات المسائل العامة من سنة ١٦٤١ الى سنة ١٧١٧ ضاع منها بعضها كما يتبين من ترقيمها وبقي منها ثمانية مجلدات من القطع الكبير وأربعة وعشرون مجلدا بين متوسط وصغير ، وكان رجل من باعة الكتب القديمة أعرفه واشترى منه بعض الكتب قد عثر بها فأحضرها الى^(٢) ، ويظهر أن عمى تركها عند سفره الى أمريكا اذ كان قد جاوز الخمسين من عمره ، ودون على هوامشها كثيرا من تعليقاته وملاحظات .

« لقد كانت عائلتنا الخاملة هذه بين السابقين الى قبول مذهب

(١) لم تنشر الأبيات فى نسخة المفكرات الأولى ، وعلم من أوراق أخرى أنها نصيحة باجتناب الحياة العسكرية لأن الحرب صناعة خطيرة .

الاصلاح ولبت على المذهب البروتستانتى خلال حكم الملكة مارى وتعرضت للمتاب أحيانا من جراء غيرتها فى مقاومة البابوية ، وكان لديهم نسخة انجليزية من الكتاب المقدس يحتالون على اخفائها بوضعها فى داخل كرسى ينطوى وينبسط ويضعه جدى الأكبر على ركبته كلما أراد أن يقرأ على الأسرة شيئا من آياته ، وكان أحد الأطفال يقف عند الباب لينبهم الى قدوم الرقيب الموظف بالمحاكم الروحية كلما بصر به قادما من بعيد ، فينطوى الكرسى فى هذه الحالة ، ويختفى الكتاب المقدس فيه كما كان . وقد أنبأنى بهذه القصة عمى بنيامين وعلمت أن الأسرة كلها دانت بمذهب الكنيسة الانجليزية الى أيام شارل الثانى التى حدث فيها فصل بعض التساوسة لانحرافهم عن مذهب الكنيسة الملكية ، فاستقلوا بنحلتهم فى (نورثامبتون شاير) وانضوى اليهم بنيامين وجوشيا وظلت بقية الأسرة على مذهب الكنيسة الرسولية .

وتزوج أبى — جوشيا — صغيرا فاتقل بزوجه وأطفاله الثلاثة الى نيو انجلاند بأمريكا حوالى سنة ١٦٨٢ لصدور القانون بتحريم قيام النحل المخالفة للكنيسة فى البلاد الانجليزية ، وأقنع طائفة من صحبه بالهجرة الى هذه البلاد لما كان يلقاه من العنت فى وطنه ، فافتنع هو وصحبه بضرورة الهجرة أملا فى التحرر من الحجر على عقائدهم ، وولد له من زوجته الأولى أربعة أطفال آخرين ثم عشرة أطفال من زوجة أخرى فتم عددهم سبعة عشر ، وأذكر منهم ثلاثة عشر يجلسون على مائدته عاشوا حتى أصبحوا رجالا ونساء وتزوجوا جميعا . وكنت أنا أصغر الأبناء وأصغر الأطفال جميعا ماعدا طفلتين أصغر منى ، وولدت فى بوستون بنيوانجلاند .

« وزوجته الثانية — أمى — هى آيبا فولجر بنت بطرس فولجر أحد السابقين من المهاجرين الى نيوانجلاند ، وأشار اليه كوتون ماثر اشارة مشرفة فى تاريخه لكنيسة ذلك الاقليم فقال عنه — اذا لم تخنى الذاكرة — : انه رجل انجليزى صالح مثقف .

« وسمعت أنه كتب مقطوعات متفرقة كثيرة في مناسباتها لم تطبع منها غير واحدة اطلعت عليها منذ سنوات ، وقد نظمها في سنة ١٦٧٥ على النسق الذى كان متداولاً مألوفاً يومذاك ووجهها الى القائمين بالحكم فى ذلك الحين حاثاً فيها على حرية الضمير منافحاً عن عقيدة العماديين وجماعة الصحايين وغيرها من النحل التى كانت عرضة للحجر والاضطهاد ، وعزا فيها مصائب الحرب الهندية والمصائب الأخرى التى ابتليت بها البلاد الى تلك السيئة البغيضة التى يصب الله غضبه على مرتكبيها ، داعياً الى إلغاء القوانين التى سنت للتضييق على ضمائر الناس ، وقد لاح لى أن المقطوعة كلها كتبت بأسلوب الصراحة اللائقة والرجولة الكريمة فى الذود عن الحرية ، وانى لأذكر سطورها أنستة الأخيرة حيث يقول : اننى لأمقت المذمة من كل قلبى ، وأناديكم من مدينة شربورن التى أقيم فيها موقعا باسمى ، غير مسمى الى أحد منكم ، أنا بطرس فولجر .. »

« وتتلذذ اخوتى الكبار جميعاً فى صناعات مختلفة ، وأدخلت أنا مدرسة الأبرومية فى الثامنة من عمرى وأراد والدى أن يندرنى للكنيسة لأننى عاشر أبنائه ، وقد كان استعدادى المبكر لتعلم القراءة — ولا بد أنه كان مبكراً جداً لأننى لا أذكر زمناً كنت فيه أجهلها — موافقاً لنبوءة أصدقائه الذين اعتقدوا أننى خليف بمستقبل حسن فى الأستاذية ، فشجعه اعتقادهم على اتمام مقصده . وقد أقره عمى بنيامين على رأيه واقترح أن يهب لى كل ما عنده من مجاميع العظات الدينية ، ولكنى بقيت فى المدرسة مدة لا تزيد على السنة نقلت خلالها من وسط الفصل الى مقدمته ثم نقلت من هذا الفصل الى الفصل الذى يليه كى أتنظم فى الفصل الثالث عند نهاية السنة .

« على أن والدى وجد أثناء ذلك أن التعليم الجامعى كبير النفقة لانهض بأعبائه مع تكاليف عائلته الكبيرة ووفرة مطالب المعيشة التى تلائم المتعلمين ، وسرد هذه الأسباب على مسمع منى لأصدقائه تسويغاً

لنقلني من مدرسة الأجرومية الى مدرسة أتعلم فيها الكتابة والحساب
يديرها رجل مشهور يسمى جورج برنويل ناجح في صناعته لوداعته
وطيب معشره ، ومنه تعلمت الكتابة المقبولة في وقت وجيز ولكني أخفقت
في تعلم الحساب ولم أتقدم فيه ، ولما بلغت العاشرة خرجت من المدرسة
لمساعدة والدي في صناعته وهي صناعة الشمع والصابون التي لم يكن
قد تدرب عليها منذ صباه بل اتخذها بعد وصوله الى نيوانجلاند لأن رزقه
من الصباغة لم يقيم بنفقة العائلة الكبيرة لقلة الحاجة اليها في نيوانجلاند ،
فعملت في قطع القتائل للشمع وصب السائل في القوالب وملاحظة الدكان
وايصال الرسائل والطلبات .

« وفرت من هذه الصناعة وشعرت بميل شديد الى العمل في البحار،
ولكن والدي أبى على هذا العمل ، وظللت — تقربى من الماء — متعلقة
بالبحر فتعلمت السباحة وتسيير الزوارق وأصبح من المؤلف كلما
اجتمعت في زورق أو قارب مع زملائي من الصبية أن يعهدوا الي في
تسييره وبخاصة في الحالات المتعسرة ، وتكررت قيادتي لهم في غير تلك
الحالات فكنت أقودهم الى بعض المناوشات التي أذكر هنا مثلا منها
لما فيه من الدلالة على الدوافع العامة وان لم يكن مثلا لحسن تديرها
وتصريفها .

كان في جوارنا مستنقع ملح يحيط ببركة المصنع تعودنا أن نقف عند
حافته ساعة المد لنصطاد السمك الصغير ، وطال ترددنا على تلك الجافة
حتى توحدت وجعلت تسيخ بأقدامنا . فعنّ لي أن نبتني عليها رصيفا
نستخدم في بنائه كوما من الحجارة معدا لاقامة منزل جديد بجانب
المستنقع وصالحا كل الصلاح لبناء الرصيف الذي نريده ، وعلى هذا
جمعت بعض الرفاق — بعد انصراف العمال في المساء — وأخذنا في
نقل الحجارة كأتنا سرب من النمل يتعاون اثنان منا أو ثلاثة أحيانا على
نقل الحجر الواحد حتى نقلنا الحجارة كلها وأتممنا بناء الرصيف ، وجاء
العمال صباح اليوم التالي فدهشوا لاختفاء الحجارة وعلموا أنها نقلت

الى الرصيف الذى بنيناه ، وبحشوا عن الجناة فعرفونا وشكونا الى آبائنا ، ولم ينفعنى عند أبى اعتذارى له بأنه عمل نافع ، لأنه قال لى انه ما من عمل يخل بالأمانة يوصف بالمنفعة .

« وأحسبك تواقا الآن الى الامام بشىء من صفاته وأخلاقه . فاعلم أنه كان ضليع البنية معتدل القامة لا بالطويل ولا بالقصير ولكنه مدمج الجسم قوى الأركان ، ذكيا يرسم رسما حسنا ويجيد العزف على آلات الموسيقى بعض الاجادة ، وله صوت مقبول يتغنى به حين يوقع المزامير على القيثارة كما تعود فى المساء بعد الفراغ من أعمال النهار فيطربنا جدا أن نصغى اليه ، وكانت له براعة فى تناول الأدوات والآلات يستخدم منها ما ليس من صناعته فيحسن استخدامه . غير أن المزية الواضحة التى كان يمتاز بها سلامة الفهم والرأى فى تناول المسائل الخاصة والعامة ، وان تكن شواغله العائلية لم تدع له قط وقتا للعمل فى هذه المسائل العامة واستغرقت أوقاته جميعا فى القيام بتعلمها والتفرغ لكسب الرزق مع قلة المورد والعائدة . الا أتنى أذكر جيدا أن أناسا من الوجهاء البارزين كانوا يزورونه فينة بعد فينة لاستشارته فى شئون البلد أو شئون الكنيسة التى ينتمى اليها ويتقبلون منه الرأى والنصيحة بالتجلة والاحترام ، كما أذكر أن أناسا من أصحاب المشكلات الخاصة كانوا يسألونه النصيحة ويحتكمون اليه فيما يشجر بينهم من خلاف ، وكان من عاداته أن يدعو الى مائدته صديقا أو جارا من ذوى الفطنة يتحدث اليه ويحاول على الدوام أن يختار للحديث موضوعا يفتق أذهان الأطفال ويلفتنا بهذه الرسالة لما ينبغى من الخير والعدل والحكمة فى تدبير شئون الحياة » .

هذه النبذة من مفكرات فرنكلين معينة لنا — على وجازتها — فى تصوير الجانب الموروث من تكوينه واستعداده وعامة أخلاقه ، وتتلخص فى قوة البنية واستقامة الطبع وسداد الفطنة والاعتراف بالواقع مع الشجاعة وابعاء الضيم والتأهب للمخاطرة ايثارا لها على الخضوع للمذلة، وقد تكون هذه النبذة الوجيزة معينة لنا فى تصوير الاستعداد الاجتماعى

الذى ينتقل بالوراثة مع كيان البنية ولكنه لا يظهر فى المجتمعات كافة على درجة واحدة ، بل يتوقف ظهوره على مؤاتاة الحوادث والبيئات ، ومن هذه الموروثات الفطرية الاجتماعية حسن الاستعداد للسلوك مع الناس من الأنداد والرؤساء وحسن الاستعداد للفهم والمعرفة وحسن الاستعداد للحكم على عوارض الحياة ما كان منها عاما مشتركا وما كان منها خاصا محصورا فى شئون المرء وذويه ، وقد تكون الدراية بالصناعات من المعادن « المصنوعة » كما يؤخذ من اسمها ولكنها لا تكسب فى جميع البيئات على السواء ولا تكسب فى البيئة الواحدة على درجة واحدة ، وقد يطول البحث فى وراثة المزاج الذى يعين صاحبه على مطالب الحياة الاجتماعية هل هو موروث كله أو هو مكسوب كله من البيئة الاجتماعية. غير أننا نخال أن البحث قليل فى صلاح المرء للسلوك مع الناس وحسن التصرف فى علاقاته الاجتماعية كلما اعتدل مزاجه وسلم تكوينه واستقامت فطرته . فلا شك هنا فى معاونة الأخلاق الموروثة للأخلاق الاجتماعية ولا فى التفرقة بين الصالحين للحياة وغير الصالحين لها كائنة ما كانت شروط المجتمعات على الأحياء .

بهذه الوراثة — وراثة الصلاح للحياة — ولد فرنكلين وعاش الى ختام حياته فى سنه العالیه ، وقد كان هذا المزاج الموروث فيه أشبه بالبنية الصالحة لاهتضام كل طعام واستخراج كل ما فيه من غذاء ، فما كان عسيرا على غيره أن يهضمه ويستفيد منه لم يكن عسيرا عليه أن يجعله غذاء صالحا على ما يعيبه من غثاثة أو مرارة ، ولم يكن يعيبه أن يهيم ذلك الغذاء لغيره بعدوى الحكمة المطبوعة والسجية السمحة ، وقد يصنع ذلك مع الزملاء المنافسين كما يصنعه مع الرؤساء والمرؤوسين ، ونادرت مع جفرسون — وهو من أعظم زملائه فى قيادة الثورة الأمريكية — مثل لهذا الخلق المطبوع على الترويض والتهوين : ترويض الطبائع العصية وتهوين المشكلات الصعاب .

فقد عز على جفرسون أن يعارضه آباء الاستقلال فى كل كلمة كتبها

فى الاعلان الذى اذيع به استقلال الأمة الأمريكية ، وجلس كتيبا حانيا رأسه بين يديه لايدرى ماذا يصنع بتلك الملاحظات المتناقضة وكيف يكتب ما يرضاه هذا الفريق وذاك الفريق وهم يجددون الملاحظة مع كل تعبير ، ولا ملامة عليهم فى التدقيق الشديد لأنه اعلان تاريخى توزن فيه كل كلمة بموازن الحقوق والأرواح .

فخرج فرنكلين من تلك الجلسة الغائمة بفكاهة من فكاهاته السمحة هونت على جفرسون ما كان يلقاه ونشطت به الى تجديد العناء فى الحذف والابدال والاصغاء .

قال فرنكلين : انها قصة جون تومبسون تعاد من جديد .

وسأل جفرسون : من جون تومبسون هذا ؟

فعاد فرنكلين يقول : جون تومبسون هذا صديق قديم كان يتلمذ على معلم مشهور بصناعة القبعات ثم خطر له أن ينفرد بالعمل ويفتح له دكانا يكتب له اعلانا جامعا يجتذب اليه طلاب القبعات . فكتب الاعلان وقال فيه : « ان جون تومبسون قبعاتى يصنع القبعات ويبيعها نقدا ... وراح يعرض الاعلان على أصدقائه ليسألهم رأيهم فيه ، فقال له أولهم : انه لا حاجة به الى كلمة « قبعاتى » ما دام فى الاعلان أنه يصنع القبعات ويبيعها ، وقال له الصديق الثانى ان الناس لا يهمهم انه صانع القبعة ما داموا يجدونها أمامهم معروضة للبيع ، وقال له الثالث انه من السخف أن يقول (يبيعها نقدا) ما دام معروفا عنه أنه لم يكن من أصحاب المصارف التى تقرض على الحساب ، وقال له الرابع انه ما من أحد ينتظر منه أن يتبرع له بالقبعة احسانا أو هدية ، فما حاجته أن يقول انه يبيع القبعات ؟ وبقي الاعلان هكذا بعد كل هذه التنقيحات : (جون تومبسون. قبعات) ... فقال له الصديق الخامس انه لا حاجة الى كلمة قبعات ما دامت صورة القبعة مرسومة فى الاعلان ... وائتمت النصائح والتعديلات ببقاء اسم جون تومبسون والى جانبه صورة قبعة ... وهكذا تنتهى بلاغة البلغاء كلما عرضوها على الناس للتنقيح وابداء الآراء

وهذه القصة — وحدها — كلمات فارغة لا يقرأها أحد ويظن أنها تساوى أن ينفق فيها وقت استماعها ، ولكنها في ذاكرة فرنكلين وضعت في موضعها فصلحت لتفريج أزمة ودفع سامة وتجديد نشاط في نفس عظيمة ، ولم يستطع فرنكلين أن يصنع بها هذه المعجزة لأنه يعرف حكاية تروى ، وانما استطاع المعجزة لأنه اتخذ من تلك الحكاية أداة للطبيعة السمحة المفطورة على تذليل الصعاب وتقدير المعاذير وقبول الدنيا على علاقتها ، وأخذ الناس جملة بما طبعوا عليه من الهنات .

ونحن لا يفوتنا في معرض الكلام على الأخلاق الفطرية ، أو الأخلاق الموروثة ، أن نقرر تلك الحقيقة المشهودة التي يتوقف عليها انصاف « الشخصية الانسانية » وتقويم كل ترجمة من تراجم العطاء بقيمة صاحبها ، ونعني بتلك الحقيقة المشهودة أن الخلق الموروث لا يلغى المزايا الفردية ولا ينقص من فضل الفرد في الانتفاع بما ورث مع اختلاف الزمن وتبدل المواطن والمناسبات التي ينتفع فيها بتلك المزايا . فاذا استطاع الفرد في الجيل الحاضر أن يستخدم مزاياه الموروثة التي كانت نافعة لأبائه قبل جيل أو جيلين فلا بد من فضل له في حسن الاستخدام وحسن الاحتفاظ بما آل اليه من تراث الأقدمين ، واذا كان الحطام الموروث قابلا للضياع أو كان الغالب عليه أنه يضيع ولا يبقى فالأخلاق الموروثة تضيع كما يضيع الحطام اذا آلت الى المفرط فيها والعاجز عن صيانتها ، وقد توضع الفطنة في غير موضعها فتضر ولا تنفع ، وتجور الشهوات على الجثمان القوى فتتهكه ، وقد يكون الشعور بالقوة من بواعث الشطط والتمادي في الغواية وقد كان مساك الاعتدال في خلائق الآباء والأجداد .

وفرنكلين لم يضيع ما ورث ولم يحتفظ به كما ورثه ، بل نماه وثبته وقواه ، وعاش الى ختام أيامه بثروته النفسية وعليها أضعاف مضاعفة من ثمرات السنين .

رآه شاب من شارلستون يسمى فيليب ماكنزى وهو فى السبعين
فكتب الى صديق له يقول : « انه يقارب خمس أقدام وتسعة قراريط ،
وبدنه أضخم مما يناسب طوله ، وعينه رماديتان تهاذتان كالصلب الحديد.
وله رأس كبير وجبين عال وعلى خده الأيسر خال . لا يلبس الشعر
المستعار وشعره الطبيعى مرسل يتدلى على كتفيه ، ومن الغريب أنه لم
يخطه الشيب الا قليلا مع أنه فى السبعين ... وقد تحدث الى أعظم العظماء
فى العالم ولكنه كان يصغى الى تعليقاتى الغريرة كأنها تستحق الاصغاء
حقا ، وقد أبدت ملاحظتى هذه بعد انصرافه لصديقى ايد روتلج
فضحك وقال لى : « اياك أن تخطئ فهمه . ان الدكتور فرنكلين كان
مهما حقاً وأنت لاتعرف ، فانه ليهتم بكل شئ وكل انسان .. ويعنيه
من تكون أنت وماذا عملت فى حياتك » (١) .

واهتمام فرنكلين هذا الاهتمام بكل شئ وبكل انسان هو موطن
العجب والاعجاب بتلك القدرة التى صمدت لمهام الحياة طوال ذلك العمر
المديد ولم تبخل على مهمة منها بحققها من العناية ولا على أحد بحقه من
المبالاة ، وبقي الرجل بعد هذه التكاليف جميعا وكأنه فى وهم من يراه
لا يهتم بشئ ولا يكثر لخطب ولا يرى على حال من القلق والاضطراب.

وليس أكثر من الحوادث والأنباء التى اعترضت هذه الحياة فى
مراحل طريقها ، بل طرقها العديدة . وليس من اللازم للتعريف به أن
نحصىها ونرتبها على حسب تواريخها ، فكل ما يهمنا فى ترجمة العظيم
من حوادثه وأنبائه أن تصور لنا جانبا من جوانب شخصيته وسرا من
أسرار عظمته واقتداره ، وستتحرى ذلك فيما سنكتبه عن فرنكلين العالم
وفرنكلين الكاتب وفرنكلين السياسى وفرنكلين الفيلسوف ، ونكتفى
بالسلسلة التالية من أرقام السنين ومعالم الطريق لمراجعة المواقيت كلما

(١) هذه النادرة ونادرة القبعات من كتاب بن فرنكلين من فلادلفيا
القديمة تأليف مرجريت كوسين .

Ben Franklin of Old Philadelphia by M. Cousins

دعت الحاجة اليها في مناسباتها ، وهذه هي كما تقتبسها من تقويم سيرته
في كتاب رجال أمريكا تأليف ليونل الفين ، وهو تقويم واف في بابها لمن
يتتبع مراحل الطريق من هذه السيرة :

سنة

- ١٧٠٦ ولد في السابع عشر من يناير في بوسطن .
- ١٧١٤ قضى سنة في مدرسة الأجرومية .
- ١٧١٤-١٧١٦ في مدرسة تجارية .
- ١٧١٦ مساعدا لأبيه في عمله .
- ١٧١٨ تلميذا لأخيه من أبيه ، جيمس ، في صناعة الطباعة .
- ١٧٢١ ينشئ جيمس فرنكلين صحيفة «ذي انجلاند كورانت» .
رابع صحيفة في المستعمرات .
- ١٧٢٢ بنيامين فرنكلين يحرر الصحيفة أثناء حبس أخيه
لانتقاداته السياسية .
- ١٧٢٣ أخوه لا يحسن معاملته فيهجر بوسطن الى فلادلفيا
ويعمل في الطباعة .
- ١٧٢٤ يغرى بالسفر الى لندن لشراء اللوازم ويتخلى عنه
صاحب عمله الحاكم كيث ولا يبعث اليه برسائل
التوصية التي وعده بها ، ويعمل في الطباعة .
- ١٧٢٥ ينشر كتابه الأول نقدا لبعض الآراء الدينية .
- ١٧٢٦ يعود الى فلادلفيا ليعمل في دكان ، ولكنه يعود الى
الطباعة .
- ١٧٣٠ ينفرد بجيازة مطبعة ، ويتزوج .
- ١٧٣٠-١٧٤٨ طباع ناجح مطرد النجاح . يصدر تقويم ريتشارد
المسكين وصحيفة بنسلفانيا جازيت ، ويتولى شئوننا

سنة

- مهمة في حياة فلادلفيا العامة ولا سيما مشروعات اصلاح
المدينة وخدماتها الاجتماعية . يشتغل بمباحثه
ومخترعاته العلمية ويؤسس في سنة ١٧٤٣ جماعة
الفلسفة الأمريكية وتناط به أمانة سرها .
- ١٧٤٨ يعتزل العمل محتفظا بمورد سنوى منه يكفل له
معيشته .
- ١٧٤٩-١٧٥٢ تجاربه الكهربائية الأولى ، واثباته للكهربية في الصواعق،
واخترعه لعمود الصاعقة ، وشهرته العلمية الواسعة .
- ١٧٥١ نائب عن فلادلفيا في هيئتها النيابية .
- ١٧٥٣ نائب مدير لمصلحة البريد في المستعمرات .
- ١٧٥٤ ينوب عن بنسلفانيا في مؤتمر ألباني للمستعمرات
ويقترح تكوين الاتحاد .
- ١٧٥٥ منظم تموين البعثة التي قادها الجنرال برادوك في قتال
الفرنسيين والهنود الحمر .
- ١٧٥٧ سافر الى لندن للنيابة عن الشعب في خلافه مع ملاك
الاقطاع في بنسلفانيا .
- ١٧٦٢ عاد الى أمريكا .
- ١٧٦٤ سافر الى انجلترا مرة أخرى .
- ١٧٦٦ نوقش علنا بمجلس النواب في مطالب الأمريكيين
بصدد القانون المعروف بقانون الدمغة .
- ١٧٦٧-١٧٧٥ تزداد شكوكه في سياسة وزراء جورج الثالث ويزداد
اقتناعه بضرورة اعلان المستعمرات لاستقلالها ، ويثابر
مع ذلك على بحوثه العلمية وتتصل صداقته العلمية
والسياسية والفلسفية بالعالم « بريستلى » ، ويتصل
العطف بينه وبين بيرك خطيب الأحرار .

سنة	
١٧٧٥	يعود الى وطنه ، ويختار عضوا للمؤتمر القومي الثاني وعضوا في لجنته المنوط بها تحرير اعلان الاستقلال ، ويباشر اعداد العدد العملية للمقاومة .
١٧٧٦	أرسل مع اثنين للنيابة عن بلده في فرنسا .
١٧٧٧	نجاح عظيم ، وشهرة سياسية وفلسفية ودبلوماسية في فرنسا .
١٧٧٨	عقد المعاهدة بين فرنسا والولايات المتحدة ، وفرنكلين هو المندوب الأمريكي الوحيد في فرنسا .
١٧٨٣	أحد المندوبين في مفاوضات الصلح مع بريطانيا العظمى ، ويتم توقيع معاهدة الصلح بباريس .
١٧٨٥	يعود الى وطنه ، ويتقلد رئاسة بنسلفانيا .
١٧٨٧	مندوب في لجنة الدستور .
١٧٨٨	يعتزل الحياة العامة .
١٧٩٠	توفي في السابع عشر من شهر أبريل .

العالم

إذا وجب أن نكتفى بصفة واحدة لفرنكلين تغنى عن جميع صفاته وتنطوى فيها جميع الملكات والمواهب التى أعاته على جميع أعماله وآرائه فتلك هى صفة العالم .

يقول كروثر فى كتابه عن مشاهير رجال العلم فى أمريكا : « انه لولا شهرته العلمية لم يكن خليقا أن يصبح عبقرى أمريكا السياسى فى باريس^(١) .. وهو قول صحيح من وجوه كثيرة ، ولكننا لا نغنى هذه الشهرة التى استفادها من بحوثه العلمية حين تقول ان صفة العالم تغنى عن صفاته الأخرى اذا وجب أن نكتفى منها بصفة واحدة ، وانما نغنى أن ملكته العلمية كانت ملحوظة فى جميع أعماله على اختلافها ، فكان عالما فى سياسته ، وكان عالما فى صناعاته اليدوية والفكرية ، وكان عالما فى وظائفه الادارية ، وكان عالما فى معيشته اليومية ، وربما استطاع فى أطوار كثيرة من حياته أن ينسى أنه سياسى ، أو ينسى أنه موظف ، أو ينسى أنه كاتب ، أو ينسى غير ذلك من تكاليفه وجهوده ، الا صفته العلمية فانها لم تقارقه قط فى مهمة من المهام الكبرى أو الصغرى التى تصدى لها طول حياته ، ولم يكن يشرع فى مهمة منها الا كانت ملكته العلمية أسرع ملكاته الى الظهور فيها والاقتران بها الى أن يفرغ منها .

والملكات العلمية كثيرة حين ننظر اليها متفرقة فى العلماء المنقطعين لدراسات العلم وتجاربه ، واذا قلنا عنها انها « ملكة علمية » بصيغة المفرد فهى فى هذه الحالة عنوان لصفات كثيرة قد تجتمع للعالم الواحد وقد تتفرق بين كثير من العلماء ، ولكنها فى جملتها لم تتوافر للكثيرين كما توافرت لفرنكلين من بواكير صباه الى ختام حياته .

Famous American Men of Science by Crowther.

(١)

فمن الملكات العلمية جمع الحوادث المتفرقة المتشابهة ، في ظاهرة واحدة . وقد كان فرنكلين عالما في طفولته حين رأى أباه يصلى صلاة البركة على طعام كل وجبة فسأله : لماذا لا تصلى يا أبى على الذبيحة مرة واحدة تغنيك عن تكرار الصلاة قبل كل وجبة ؟ » .

ومن الملكات العلمية ملاحظة الأحوال الطبيعية التى تعرض لنا مصادفة ثم تكرار التجربة عليها للتثبت من حصولها بالاتفاق أو على التواتر والاطراد . وقد كان فرنكلين عالما في صباه حين راقب نفسه وهو يسبح في الماء وفي يده طيارة الورق ، فرأى أن العوم أيسر له وأسر له في هذه الحالة من العوم بغير طيارة ، وعاد التجربة على أوضاع مختلفة حتى تثبت من تيسير الطيارة لجهود السابح في الماء على أوضاع متعددة . وقد كان فرنكلين عالما في اختيار الخطة التى تيسر له اتقان الكتابة ، وكان عالما كذلك في اختيار الخطة التى يتوخاها لمراقبة أخلاقه وتهذيب نفسه والعلم بنصيبه من كل خلق من هذه الأخلاق ومقدار حاجته الى المرانة عليه في معيشته اليومية ، فقد كانت التجربة والملاحظة والاحاطة بالعوامل المختلفة والبحث في جملة الفروض الممكنة بعض وسائله في هذه المحاولات وما جرى مجراها ، وكان قياسه للنجاح الفكرى والنجاح النفسانى مرصودا عنده على الورق يقرره ويستدل منه على مبلغه من التقدم فيه ومبلغ الصعوبة أو السهولة في هذا التقدم على توالى الأيام . أعجبه أسلوب الكاتب الانجليزى « اديسون » في مجلة السبكتاتور فأراد أن يمتحن نفسه في القدرة على محاكاته وأن يدرب قلمه على الكتابة بهذا الأسلوب وهو في أوائل عهده بالكتابة ، فاختر مقالاً من مقالات الكتاب ودون معانيها وأغراضها العامة على ورقة ، ثم ترك القراءة في الكتاب لينسى عباراته وألفاظه ، وعاد الى الورقة بعد أيام فأعاد كتابة المعانى التى دونها فيها معنى بعد معنى بعبارات من عنده لا يذكر ما يقابلها من عبارات الكتاب ، ورجع الى الكتاب بعد ذلك ليقابل بين الأسلوبين في التعبير عن المعنى الواحد ، فوضح له الفرق بينهما ووقف على الأخطاء التى تحتاج الى العناية باصلاحها واجتنابها ، وعرف من عيوبه أنه قليل

المحصل من مفردات اللغة وأنه يبحث عن الكلمة التي يؤدي بها المعنى فلا يجدها حاضرة في ذهنه ، فعمد الى المقالات ينظمها شعرا لأنه يعلم أن الشعر يحتاج الى المترادفات من الكلمات التي تتفق في معناها وتختلف في أوزانها وعدد حروفها ومقاطعها ، وأنه يحتاج الى القوافي والفواصل في سطره المتوالية ، وأنه على ذلك سهل الحفظ والاعادة لأن الكلمة التي نبحث عنها مع العلم بوزنها وقافيتها لا تتعبنا في البحث كما تتعبنا الكلمة المرسله بغير وزن ولا قافية ، وكان يجرب مع هذه الطريقة طريقة أخرى في امتحان القدرة على الترتيب والتعبير ، فكان يدون المعاني مختلطة مبعثرة ، ثم يعود اليها بعد أيام ينسى فيها ألفاظها وعباراتها فيبدأ بجمعها وترتيبها ثم يعاود كتابتها بألفاظ وعبارات من عنده ، ويسجل الفروق بين أسلوبه وأسلوب اديسون كما يسجل درجات التقدم في تجربة بعد تجربة ، فلا يترك هذا التسجيل للظن والتخمين بل يراه أمامه محصورا بالأمثلة والشواهد والأرقام ، ولا يبالغ في الثقة بنفسه ولا في قلة الثقة بها على الحالين ، بل يعرف عيوبه وحسناته ويقول لنا في ترجمته لنفسه انه كان يعتبط أحيانا كلما رأى له عبارة تفوق عبارة الكاتب في جمالها ودقتها .

وأراد في سن الرجولة أن يروض نفسه على محاسن الأخلاق وأن يهتدى الى حظه منها ومبلغ افتقاره الى زيادتها أو تمكينها أو تهذيبها ، فأحصى الأخلاق المثلى وعرفها على النحو الآتي :

- ١ — الاعتدال : لا تأكل حتى الشبع ولا تشرب حتى النشوة .
- ٢ — الصمت : لا تنطق الا بما ينفع الناس أو ينفعك ، وتجنب الفضول والثرثرة .
- ٣ — النظام : اجعل لكل شيء موضعه ، واجعل لكل جزء من أعمالك وقته وموعده .
- ٤ — العزيمة : اعزم على أن تعمل ما يلزم ، واعمل ما تعزم على عمله بغير ولاء ولا تقصير .

٥ - القصد : لا تنفق شيئاً في غير مصلحة لك أو لغيرك ،
ولا تبدد شيئاً أو تنفقه عبثاً .

٦ - النشاط : لا تضيع وقتاً ، واشغل وقتك بما يفيد ، وانقطع
عن كل عمل لا ضرورة له ولا داعية إليه .

٧ - الاخلاص : لا تلجأ الى خداع ضار ، وفكر ببراءة وانصاف ،
وتكلم وفقاً لما تفكر فيه .

٨ - العدل : لاتسئ الى أحد بما يضره ، ولا تهمل منفعة
واجبة عليك .

٩ - التقدير : تجنب الافراط والتفريط ، ولا تستسلم لرد
الاساءة بما توحيه اليك بواعثها .

١٠ - النظافة : لا تغفل عن النظافة في شخصك ولا في ملبسك
ولا في مسكنك .

١١ - السكينة : لاتقلق للصغائر ، ولا للحوادث التي لاتمتنع
ولا حيلة لك فيها .

١٢ - العفة : لا تطاوع شهوات الجسد في غير داع من دواعي
الصحة أو الذرية ، ولا تبلغ بها مبلغ البلادة
والضعف أو الاضرار بسلامتك وسمعتك أو
سلامة غيرك وسمعته .

وأنبأه بعض أصدقائه أنه يوصف أحياناً بالكبرياء فأضاف الى هذه
الأخلاق خلق التواضع ولم يعرفه كما عرفها بل اكتفى بأن كتب أمامه :
« سر على منهاج المسيح وسقراط » .

ولما فرغ من احصاء هذه الأخلاق بعد عرض الأخلاق الانسانية جميعاً
على ذهنه ، ورأى أن هذه الأخلاق التي اختارها هي مسالك المروءة
وأجدرها منه بالارتياض عليها واستدراك نقصها — جعل لها درجات

يومية في كل أسبوع ، وأخذ نفسه بتقدير هذه الدرجات ومحاسبة ضميره عليها ، لبدأ الأسبوع التالي على عزيمة وبصيرة بحظه من النجاح والافاق .

وهكذا كان يصطبج مقياسه العلمى فى معيشته اليومية وفى ملاحظاته العارضة ولا ينتهى الى حكم فيها الا على قدر معلوم وحساب مرقوم ، ومن تجاربه العارضة فى ذلك أنه رأى فى طريقه واعظا يلقي على الناس خطبة من خطبه الدينية ، وأحب أن يعرف مقدار الاقبال عليه ومبلغ أثره فى سامعيه ، فتراجع الى أقصى مكان فى الحلقة وعد خطواته وراقب انصراف الناس عن الخطيب وبقاءهم حوله ، وقدر لكل رقعة محدودة من الأرض عدد الواقفين عليها ، وعلم بذلك مكانة الخطيب .

أما كشوفه العلمية فقد كانت مقاييسه فيها تجمع هذه المقاييس وتزيد عليها خصلتين نادرتين فى زمانه ، ولا تزالان نادرتين فى هذا الزمان ، ولعلمهما من الخصال التى لا تكثر فى زمان من الأزمنة .

هاتان الخصلتان هما : توحيد القوانين الطبيعية فى أرجاء الكون ، وتفتح ذهن لكل فرض واحتمال .

فقد كان له عقل يفكر فى حوادث السماوات والأرضين على نسق واحد ولا يقيم بين الحوادث فرقا تختلف فيه قوانين الطبيعة بين مكان ومكان . فلم يجد فى تفكيره فرقا بين انتقال الكهرباء من سحابة الى سحابة ، وبين انتقالها من جسم الى جسم فى الأجهزة المصنوعة على النمط البدائى الذى شاع بين العلماء فى القرن الثامن عشر ، ولم يجد فرقا بين حركة الهواء فى الحجرة من أثر التسخين الصناعى وبين حركة الهواء فى عواصف البحار والمحيطات .

وكان يلتفت الى المشاهدات ولا يرفض منها شيئا بغير بينة وقبل التجربة والمراجعة ، وسنقرأ له فى المختارات من كلامه أنه كان يعيب المحدثين لاستخفافهم بمشاهدات الأقدمين ، ويعيب العلماء لاستخفافهم

بمشاهدات العامة والجهلاء ، فكل مشاهدة لها عنده حق من الاستماع والعناية الى أن يتحقق من صحتها أو بطلانها ، وربما انتهى الى حكم فيها ثم علق هذا الحكم على التجارب التالية التى يتيها لأصحابها أن يكشفوا من عواملها وأسرارها ما ينكشف للباحثين فى الوقت الحاضر .

ونذكر لهذه الخصائص العقلية أسباب شتى لتعليلها والرجوع بها الى ظروفها وملاساتها .

فمن هذه الأسباب أنه كان يعيش فى عصر « نيوتن » علامة الفلك والرياضة فى عصره ، وأنه اطلع على قوانين نيوتن التى يعلل بها حركات الأجسام العلوية والسفلية ، وألوان النور المنبعث من الشمس ومن المصابيح الصناعية .

ومن هذه الأسباب أنه سليل آباء وأجداد من الصناع الذين تعودوا التجربة العملية فى تركيب المعادن والأجسام ، وقد سلمت طوائف الصناع بعض السلامة من التقاليد الخرافية التى يتوارثها المتكاون على الغيب وعلى عوارض الخصب والجذب والوفر والشح فى محصولات الأرض ومزروعاتها ، فتحرر ذهنه من الخرافات الموروثة التى تعلل الحوادث بغير عللها المتكشفة لعقل الانسان ، وتسنى له أن يصل الى العلة المعقولة من طريق لا تعوقه فيه السوابق والغوامض والمحجبات .

وأسعده على هذه الخصلة أنه كان من سلالة الثائرين على السلطان الدينى فى القرون الوسطى ، وأنه لم يكن هو ولا آباؤه من المتقيدين برياسة كهنوتية فى مذهب أو غير مذهب ، فلم يشعر بالحجر الذى كان يشعر به الجامدون على العقائد الموروثة من بقايا القرون الوسطى .

ويحصى كروثر ، صاحب كتاب مشاهير رجال العلم المتقدم ذكره أسبابا موضعية أو محلية هيأت له النجاح فى بحوثه العلمية ، ولم يكن على رأيه لينجح فيها لولا تلك الأسباب .

فعنده أن هجرة فرنكلين من بوستون الى فلادلفيا كان لها أكبر

الأثر في الوجهة التي اتجه اليها وفي المباحث العلمية التي توافر عليها ،
لأن بوستون كانت على أيام فرنكلين معقلا للمحافظين والمتشددين في
العقائد والأفكار التي ترتبط بالديون وعادات الاجتماع .

وعنده أن فلادلفيا كان يتوافر فيها الجفاف الذي يعين على التجارب
الكهربية ، وكانت تتوافر فيها الى جانب ذلك مواد الخامات التي تجرى
عليها تلك التجارب وتصنع منها أصناف الورق كالخرق والنفايات ، ولولا
هذه المواد الميسرة لأحجم فرنكلين عن تجاربه الكهربية وعن التعويل
على الصحافة والطباعة ونشر المطبوعات .

وقد تقبل هذه التعليقات جميعا وتبقى بعدها بقية لا يفسرها الا
افراد فرنكلين بالعبقرية التي ميزته بين الألوف من المشاركين له في جميع
هذه الظروف وجميع هذه الأسباب .

فماذا كان فرنكلين يعلم من قوانين نيوتن وسائر القوانين الطبيعية الى
جانب علم الفطاحل من أعضاء مجمع العلوم في بريطانيا العظمى .

لقد كانوا في مجموعهم على الأقل يحيطون بما لم يحط به من معارف
عصره ، ولكنه أدرك أن الكهرباء في البروق والصواعق هي الكهرباء في
الصمغ والزجاج ، وأغربوا هم ضاحكين حين أفضى اليهم بهذا الرأي فلم
يتحولوا اليه الا بعد سنتين .

وربما صح أن افتقاره الى العلم كان من مزاياه ولم يكن من عيوبه في
تلك الآراء التي كان يسبق اليها العلماء المتخصصين ، لأنه ، كما قال برنارد
جاف في كتابه عن علماء أمريكا^(١) ، لم يكن مثقفا ولكنه لم يكن مشكولا
أو مربوطا (Untrammell) فلم تقف عقبات الآراء المحفوظة في طريقه ،
ولم تعوقه القواعد التقليدية في دراسة الآراء ... ولكن فقدان الشكال
على كل حال لا يوجد لنا الجواد . فلا بد من جواد سباق وراء ذلك اللجام
المخلوع أو المفقود .

ويجوز أن « فلادلفيا » ساعدت على التجارب الكهربائية ، ولا يمتنع أن يكون الجو الرطب مساعدا عليها في معرض آخر من معارض البحث والدراسة . ولقد حصل فرنكلين من بوستون على جهاز اعاره اياه صديقه الدكتور سبنس Spence الذى لا نعلم عنه شيئا غير هذه الاشارة اليه لهذه المناسبة في ترجمة فرنكلين ... وكم بين المتنقلين من بوستون الى فلادلفيا من مسافر ومقيم ؟ وكم بينهم من فرنكلين ؟ !

ان الملكة العلمية الطبيعية في هذا العقل العبقري هي التفسير الذى لاغنى عنه لجميع أعماله وبعوثه، وغير هذا التفسير تفسيرات كثيرة من قبيل ما تقدم لا يستغنى واحد منها عن هذا المرجع الأول والأخير لجميع تلك التفسيرات .

وهذه الملكة الطبيعية هي التى أوحى اليه بغير تعليم وبغير تلقين أن يضع البحث العلمى فى موضعه الواجب ، فكل ما يقع تحت الحس فهو موضوع بحث ودراسة من الوجهة العلمية . وربما عاش معه فى عصره — أو عاش قبل عصره — أناس من الباحثين جعلوا هذه البحوث ترفا مختارا ترتقى اليه بعض الموضوعات وتقصر دونه موضوعات أخرى ، ولكنه هو لم يكن ليفرق بين ما هو صالح للحس وما هو صالح للبحث والدراسة ، فتراوحت مباحثه بين السحب والأمواج ، وبين درجات الحرارة وألوان الأقمشة ، وبين اصلاح النظارات واصلاح نظام الاضاءة فى المدن ، وبين التبريد بالتبخير وتهذيب الحروف الأبجدية ، ولم بتفتح أمامه موضوع بحث فأعرض عنه لأنه لا يدخل فى صدد البحوث العلمية كما يصنع الباحثون الذين لم يرزقوا مثل هذه الهبة الفطرية .

وقد كان للخيال شأنه — كما كان للواقع شأنه — فى البحث الذى اشتهر به وأكسبه اعجاب العارفين وغير العارفين ، وهو بحثه فى الكهرباء، واستخدامه فى الوقاية من الصواعق ، أو من غضب الآلهة كما كانوا يسمونه فى الأزمنة الغابرة .

فقد كان المعجبون به يقولون عنه انه انتزع الصولجان من عاهل الدولة البريطانية وانتزع الصولجان من رب الصواقي والبروق جوبيتر إله الآلهة عند الأقدمين ، ولم يخلع الخيال على عمل فرنكلين هذا مكانة أكبر من مكانته الحقيقية التي لا مجاز فيها ، فان الوقاية من الصواقي حقيقة أعظم من خيال المتخيلين عن عروش الأساطير ، وحقيقته العظمى فوق ذلك أنه صحح العقول والعقائد فأدركت حوادث الأرض والسماء كما ينبغي أن تدرك ، وأدركت صفات الاله المعبود كما ينبغي له من التنزيه والتعظيم .

ولقد تناول فرنكلين بحوث الكهرباء وهي — على أحسن ما تكون — لعبة للتسلية ، فان هذه البحوث بدأت في حجر الكهرباء الذي تنسب اليه قبل الميلاد بستة قرون ، وعرف طاليس (٦٠٠ ق . م .) أن الكهرباء المحركة تجذب الزغب والنشارة الخفيفة فلم يفهم منها الا أنها « ذات روح » أو ذات حياة ، ثم جاء ثيوفراستس Theophrastus فاكتمى بتسجيل مشاهداته ولم يهتد الى تفسير معقول لهذه الظاهرة . ووقفت التجارب الكهربائية عند هذا الحد الى القرن السادس عشر ، ثم تقدمت خطوة أخرى على يد العالم الانجليزي وليام جلبرت طبيب الملكة اليصابات حين استطاع أن يثبت أن هذه الظاهرة تتكرر في بعض المواد وأن أجساما غير الكهرباء تجذب الزغب والنشارة بعد حكها وتسخينها كالشمع والكبريت والماس وبعض المعادن النفيسة ، وأن الرطوبة تفقدها هذه القوة اذا صبت عليها السوائل ، الا الزيت فانه لا يضعف تلك الجاذبية فيها . وأن لأحوال الجو تأثيرا في الجاذبية يختلف باختلاف الرطوبة والجفاف ، وتقدم جويرك Guericke مخترع المضخة الهوائية قليلا بالبحث الكهربى فلاحظ أن الأجسام المكهربة تتدافع أحيانا وأن الشرر يتطاير من بعضها ويصحبه صوت مسموع بمقداره من القوة ، ثم ورد خاطر التشبيه بالبرق والرعد على ذهن العالم الانجليزي وال wall ولكنه لم يفسره وترقب أن ينبغ في العالم ذهن عبقرى يفلح في تفسيره ، ووقفت الدراسات العلمية

والاختراعات الصناعية بهذا البحث عند هذا الحد فلم تستخدم في شيء. أنفع من تركيب بعض الأجهزة التي تعرض هذه الظواهر ولا تقرن بها « نظرية » عامة أو فرضا من الفروض التي تؤسس عليها العلوم .

وفي هذه المرحلة تسلم فرنكلين مباحث الكهرباء فلم يزل بها حتى وضع لها تلك الفروض على قواعدها المقررة الى هذا اليوم ، فوحد بين ظواهر الكهرباء في الأرض والسماء ، وعرف الكهربائية الزائدة والكهربية الناقصة ، أو الكهربائية المشبعة والكهربية المتعطشة وهما المعروفتان اليوم باسم الموجبة والسالبة ، وراقب خاصة التوصيل والاقتراس فصنع الطائرة المشهورة لاستخراج الكهرباء من السحاب ، ولم تكن هذه التجارب مأمونة العاقبة في تلك المرحلة . لأن خصائص المادة الموصلة للكهرباء لم تكن معروفة بتفصيلاتها ولم تزل متفرقة مبعثرة لاتربط بينها رابطة تجمع المتشابهات منها على قاعدة واحدة ، وفي احدى هذه التجارب أوشك أن يهلك لابتلال الخيط الذي ربط به الطائرة أثناء نزول المطر ، ولولا أنه لم يتشبع بالماء في جميع أجزائه لهلك رعدة كما هلك الأستاذ ريشمان Richmann السويدي في تجربة مثل هذه التجربة كان يجريها في بطرسبرج ، فكان استمرار فرنكلين على تجاربه — مع هذه العوارض المبهمة — مخاطرة أخطر مما يقال عنه « انه لعب بالنار » .

ونحن في عصر التحليل وتوزيع الأعمال تتساءل : هل كان فرنكلين عالما أو مخترعا ؟ هل كان يدرس العلم بعقل الباحث الذي ينقب عن الحقيقة ويضع النظريات ويوفق بين الحوادث المبعثرة ليجمعها الى قانون واحد ، أو كان يدرس العلم دراسة الصانع الحاذق الذي يخترع الآلات أو يحكم صنعها بزيادة المعرفة والتحقيق ؟

ان التفرقة بين العقليين سهلة بينة في كثير من الأحوال . فهناك العالم الذي يحسن التفكير والفهم والاحاطة بالأفكار والمفاهيم ، ولكنه لا يحسن تنفيذ الأفكار في آلات مخترعة ولا يحسن توجيه المنفذين الى صنعها واختراعها ، وهناك الصانع الذي يباشر التركيب والفك واعادة

التركيب بمهارة يدوية وحيلة تطراً في ساعتها من تلك الحيل التي جعلت العرب يطلقون اسم علم الحيل على علم المكنتات ، وربما كانت هذه الحيل جميعا خفية على الصانع عند ابتداء المحاولة الأولى ثم تظهر له بالمعالجة والاختبار كأنها طرق يسير فيها حتى يراها مغلقة أمامه فيرجع عنها ويتحول الى غيرها ، أو كأنها في النهاية من قبيل المصادفة التي لم يكن ينتظرها .

وفر نكلين كان صانعا نشأ بين الصانع يعمل ويجرب ويحاول ويعتمد على التواتر كما يعتمد على المصادفة ، ولكنه في البحث عن النظريات والعلاقات بين الحوادث المبعثرة لم يكن مقصرا عن شأو أمثاله من المفكرين الباحثين ، فلم تكن تعوزه ملكة لازمة للعالم الباحث عن الحقائق والنظريات ، وكل ما يحتاج اليه هذا العالم الباحث من تفتح الذهن وصدق الملاحظة وحسن الترجيح والموازنة بين الأسباب والاحتمالات فهو من عاداته الذهنية في مباحثه العلمية وفي معيشته اليومية ، فلم يكن ينهض من مكتب العالم ليدخل الى مصنع العامل المخترع ، بل كان مكتبه ومصنعه موزعا واحدا تشترك فيه ملكاته وخصائص ذهنه هنا وهناك .

الا أنه كان يعتقد أن المعرفة مصلحة انسانية ، وأن العلم الذي لا يتحول الى منفعة عامة لاقية له في العقل ولا في الحياة ، ومن رأيه أن الكشف العلمي الذي لا يوضع موضع التطبيق في المنافع العامة ولا يصلح لشيء من الأشياء هو كشف « غير صالح » على الإطلاق .

وكأنما كان خجلا من اضاءة الوقت في قدح الشرر وجذب الريش والزغب وتجريب هذه الألعاب الكهربية على غير جدوى ، فكتب (صيف سنة ١٧٤٩) الى صديقه العالم الانجليزي كولنسون Collinson يروي له — في شيء من التهكم — كيف يعتذر الى أولئك الذين ساءهم ، أو أحفظهم ، قليلا أن يسمعوها عن تجارب الكهرباء ولا يحسوا لها أثرا ملموسا في نفع بني الانسان ، فقال له انه خرج مع طائفة من صحبه الى

نزهة خلوية تطهو طعامها على نار مستمدة من الكهرباء : « ويشتمل فيها الكحول بشرارة تعبر النهر من شاطئ الى شاطئ بغير موصل غير الماء ، ويقتل فيها ديك رومي بالهزة الكهربائية وينضج على سفود تديره الكهرباء أمام نار مقدوحة من القناني الكهربائية ، وعما قليل يستطيع أن يشرب نخب الكهربيين المشهورين في إنجلترا وهولندا وفرنسا وألمانيا في أكواب مكهربة ترعش الشفاه قليلا عند مساسها بفعل التيار المنبعث من بطرية كهربية » (١) .

ومنافع الكهرباء اليوم لا تحصى ولا يضارعها شيء مما كان يستخدم قبلها في الصناعة وتيسير أعمال الناس أو تيسير الأعمال للملايين من المهندسين والصناع والتجار والوسطاء بين الصناعة والتجارة ، ولكن فرنكلين استطاع أن يقنع العالم بفائدة لها تساوى جهود المئات من العلماء في المئات من السنين ، لأن العمود الذي اخترعه للوقاية من الصواعق قد وازن تلك الجهود وأربى عليها ، ولم يوازنها ويرب عليها عند الذين أصابتهم الصواعق أو تعرضوا للإصابة بها حيث يتتابع نزولها، بل هو قد وازنها وأربى عليها عند الملايين من الذين لا يتعرضون للصاعقة ولا يعرفون منها الا اسما يهول ويتردد في مقام الانذار والوعيد ، ووازنها وأربى عليها عند أرباب الخيال الذين تصوروا جوبيتير على السحاب وتصوروا فرنكلين على الأرض ندين يتبارزان ، ويخلع الند البشرى منهما سلاح الند السماوى المقدس في ملاحم الشعر ومزاعم الأساطير .

ولم يعدم المازحون قائلًا يقول : « ان عمود الصواعق قد سب على فرنكلين صواعق الغضب والنقمة من عاهل في الأرض يناظر جوبيتير في السماء ، ذلك هو جورج الثالث ملك إنجلترا في أيام الثورة الأمريكية. فانه كره أن يشيع في العالم اختراع رجل نأثر على التاج ولم يقدر على

(١) من كتاب بنيامين فرنكلين الأمريكى الأول تأليف برلنجيم
Benjamin Franklin The First Mr. American by Burlingame.

منعه وتحريمه لأن خوف الناس من صواعق السماء أعظم من كل خوف يخافونه من صاحب التاج ، فتوسل بكل وسيلة يقدر عليها لهزيمة فرنكلين في هذا الاختراع .

وكان فرنكلين على طريقته البسيطة قد عرف أن كهربا السحاب تنجذب الى الموصل السهل فتسرى فيه ولا تصطدم بعائق على الأرض. تنفجر الصاعقة من جراء المصادمة بينها وبينه ، فاختار لجذب الكهرباء السحابية وتوصيلها الى الأرض بغير عائق وبغير مصادمة عمودا قائما ينتهى الى أسلاك صالحة للتوصيل بالكهرية الأرضية ، وفضل العمود المسنن على العمود المستدير من أعلاه ، لأنه يقلل المصادمة وبواعث الانفجار .

فلما ثبتت فائدة العمود لمنع الصواعق نشب الخلاف على الرأس المسنن والرأس المستدير أيهما أسلم في الوقاية وأصلح في تحقيق النظرية العلمية ، فأوعز الملك الى سير جون برنجل Pringle رئيس مجمع العلوم أن يفضل العمود المستدير على العمود المسنن ، ونقل المسألة من ميدان العلم الى ميدان السياسة وواجبات الولاء والطاعة ، فأجابه العالم النبيل بالجواب الذى يستحقه وألقى اليه فى جوابه أن قوانين الطبيعة لاتخضع للمراسيم الملكية ، واعتزل العمل فى منصبه الرفيع ايثارا للأمانة العلمية على الحظوة والجاه ، وشاعت يومئذ فى انجلترا أبيات من الشعر خلاصتها أن صواعق الغضب التى تملكها أيها الملك جميعا لاتنفك اذا أردت أن تجاوز الحد The Point ... وهى كلمة فى الانجليزية ترادف معنى السن والنقطة وتقابل فى هذا المقام معنى الدائرة والكتلة ، يريد الناظم بذلك حد العمود المسنن الذى فضله فرنكلين ووافق على تفضيله كبير العلماء ، ومعه سائر العلماء .

ومباحثه العلمية التى لم تشتهر هذه الشهرة متنوعة فى جوانب متنوعة من الحياة العامة والخاصة ، أحاطت بالعلاج الكهربى وعلاقة الصحة بالحرق والتبريد بالتبخير ، وفنون شتى من الاستشفاء بالوسائل الطبيعية.

وشملت البحث في غازات المستنقعات وحفائر الأرض وسرعة السفن في الماء الضحل والماء الغزير ، ولغات القبائل البادية في أمريكا الشمالية ، وإشارات التخاطب بين النمل والحشرات ، ومستقبل الطيران ومستقبل علم الضوء على اعتبار الضوء حركة من حركات التموج في الفضاء ، ولم يدع البحث في التشريح ووظائف الأعضاء وأساليب التطبيب ، ولا في الموسيقى وفن الإيقاع ولا في الألوان والأشكال ، وجرى في هذه المباحث كلها على وتيرته المعهودة من تسخير المعرفة للمنفعة وتطبيق النظريات على الوقائع المتداولة ، وهي عادة ذهنية لاتعيب التفكير العلمي الصحيح إلا إذا كانت المنفعة المقصودة منفعة شخصية ينسى المرء في سبيلها منافع أبناء نوعه وحقائق العلم أو قوانين الطبيعة ، وتلك هي الخلطة التي يرى منها هذا العقل العلمي المطبوع فكانت فائدة بنى الانسان أجمعين مقدمة لديه على كل فائدة ، ولم يكن نصيبه من هذه الفائدة الكبرى غير القفاز على المائدة .

وقد ظهر موقفه من المباحث النافعة في اختراعه للموقد الذي سمي باسمه ويعرف الآن باسم موقد فرنكلين ، على ما دخل عليه بعد ذلك من التعديل والتحسين .

فهذا الموقد من الآلات التي يمكن أن تصنع بانلثات والألوف ويحتكرها المخترع فلا تباع الا من مصنعه أو باذن منه ، وكان تعويل الأمريكيين قبل اختراع هذا الموقد على كواخين المداخن التي تستنفذ الكثير من الوقود وتضيع الكثير من الحرارة المستفادة منه ، وتصيب المستدفئين بكثير من الأضرار لأنها تدفئ الجانب المواجه لها من الجسم والجانب القريب اليها من الحجرة ، وتدفع الجسم كما تدفع المكان مختل التوازن في درجات الحرارة مع غلاء الوقود الضائع وشدة الحاجة الى الدفء والوقاية من البرد في الشتاء ، وشدة الحاجة الى المواقد على العموم لمطالب الغذاء وغيره من اللوازم البيتية .

فاخترع فرنكلين موقدا يوضع وسط الحجرة وينقل الى حيث يشاء

الساكن ويحفظ الحرارة كلها للتدفئة ويرسل الدخان الى المدخنة من أنبوبة تركب عليه وترفع منه على حسب الحاجة ، وأراد حاكم المدينة أن يكافئه على هذا الاختراع فكتب له تسجيلاً باختكاره وقرر أن يحرم صنعه ويبيعه بغير إذن من مخترعه ، فشكره فرنكلين واعتذر من قبول هذا التسجيل ، وقال في اعتذاره انه ينتفع هو وأبناء عصره بمخترعات الأقدمين ولا يؤدون اليهم ثمناً لمنافعها الجزيلة ، فمن الانصاف أن نتفع اخواننا وأبنائنا بما نهتدى اليه من المصنوعات والمخترعات بغير جزاء .

ولم يجهل فرنكلين وهو يعتذر هذا الاعتذار أن الشهرة الأدبية غير مضمونة للمخترعين والباحثين وليست عوضاً خالصاً من الحسد والادعاء، فقد كان أعلم بالطبيعة الانسانية من أن ينخدع هذه الخديعة ، وكان يكتب الى صديقه جون ليننج Lining بعد ظهور العشرات من مخترعاته فيقول ان الحسد يأبى على المنافسين أن يعترفوا للمخترع بفضل اختراعه وان الغزو يسول لهم بعد ثبوت تفعه أن يدعوه لأنفسهم ويكابروا في الدعوى فيصدقهم الحساد والجهلاء ، وانه ما من انسان مالك لقواه العقلية يتمنى لصديقه أو لولده أن يشتغل بالاختراع^(١) .

ولعله من مصداق ما تقدم في كل معنى من معانيه حوار الدكتور جونسون وتلميذه بوزويل عن تعريف فرنكلين للانسان .

قال بوزويل : « أحسب أن تعريف الدكتور فرنكلين للانسان تعريف حسن : حيوان صانع للآلات » .

والذين قرأوا مفكرات بوزويل عن أحاديث الدكتور جونسون يعلمون أن الأستاذ لم يسمع من تلميذه فكرة الا سارع الى مخالفته فيها، وأنه لم يكن من عادته أن يمنح موافقته لشيء من الأشياء بغير اعتراض- وعلى هذه العادة أجابه الدكتور قائلاً : « لكن كم من الناس لم

(١) من كتاب بنيامين فرنكلين الأمريكي الاول تأليف برلنجيم المتقدم ذكره .

يصنع آلة قط ؟ وهب انسانا بغير ذراعين ، فانه لايقدر على صنع آلة من الآلات ؟ » .

ان تعريف فرنكلين للانسان فى الحقيقة أصدق تعريف له وأوفاه بالشرط الجامع المانع فى التعريف ، فما من فارق بين الانسان والحيوان أوضح وأثبت من قدرة الانسان على صنع الآلة واستخدامها ، وهذه القدرة هى المقصودة بتعريف فرنكلين لا وجه للاعتراض عليها بتفاوت الناس فيها ، فليس الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الناطق أن بعض الناس لا ينطقون ولا يفكرون وأن بعضهم يولدون بكمأة أو مجانين ، وليس من الاعتراض الصالح على تعريف الانسان بالحيوان الاجتماعى أن يشذ بعض الناس ويتأبد فى الخلاء وينفر من الاجتماع ... ولكن العبرة من هذه القصة أوسع وأدق من أن يحيط بها تعليق واحد ، وكفى منها هنا أن تبرز قدرة العقل العلمى المطبوع على التعريف واقامة الحدود والفوارق ، وأن تبرز تلك الرابطة الوثيقة فى طبيعة فرنكلين بين الانسانية وصنع الآلات ، وأن تبرز مع هذا وذاك سهولة الانكار حتى من الفضلاء !

ولم يقنع فرنكلين بخدمة العلم بفكره منفردا مستقلا عن القادرين على خدمة العلوم فى بيئته وعصره ، فأنشأ نادى « الجاتتو » الذى أصبح مجمعا للعلوم والآداب ثم أصبح بعد ذلك جامعة بنسلفانيا القائمة الى اليوم ، ونظم الجماعة الفلسفية الأمريكية كما نظم أول مكتبة عامة تقتنى الكتب بالشراء والاستعارة وتعييرها القراء ومن يحتاجون الى الراجع من أصحاب المباحث والدراسات ، وقد كافأته الجماعة الفلسفية على غيرته العلمية وجهوده فى نشر المعرفة وتمكين العلماء من نشرها بانتخابه رئيسا لها مدى الحياة ، وهو تقدير من النخبة المختارة يفوق التقدير الذى يلقاه طلاب الرياسة فى مناصب السياسة ، وكان فرنكلين فخورا به متعزيا به عما كان يلقاه من حساده الأقوياء من البخس المتعمد ونكران الجميل . ومهما تعدد جهوده ومشاركاته فى الأدب والسياسة والاجتماع فليس

من الحصر الذى يزرى بها أن تقول انها كانت فى جملتها وتفصيلها جهود العالم المطبوع ، بذلك المعنى الذى افترضنا به الكلام فى هذا الفصل عن فرنكلين العالم ، وزيدته أن الملكة العلمية لم تفارقه قط فى تلك الجهود والمشاركات .

الكاتب

إذا كنا قد عرفنا طبيعة هذا العقل من الالمام السريع بحياته العلمية فمن اليسير علينا أن نعرف خطته إذا اشتغل بالكتابة في عصر المطبعة ، فانه على التحقيق لم يكن يستطيع أن يعفى نفسه من عمل يتصل بهذه الصناعة ، وكذلك كان كاتباً وطابعاً وناشراً ومديراً للعمل ، وسنرى كيف كان كاتباً يساهم بقلمه في جميع الموضوعات التي تسهم فيها الأقلام . أما الطباعة فقد كان فيها صفاً وحفاراً ومديراً للمكنات ومصلحاً لما يختل منها ، ويكاد أن يحسب مع المهندسين المكنيين في زمانه لأن هذه الهندسة لم تتشعب في ذلك الزمن تشعباً يصعب عليه أن يحيط به على طريقته في الاحاطة بكل عمل قريب من رأسه ويديه ! وأما النشر فلم يترك شيئاً يشتغل به الناشر في عصره دون أن يتولاه ويبلغ به مداه .

ويقول فرنكلين في ترجمته لنفسه انه لا يذكر زمناً لم يكن يقرأ فيه ، وهذا مع ذاكرته القوية التي أعانتها على حفظ الكلمات وادخار المفردات والعبارات واستيعاب ذلك المحصول اللفظي ، والفكري ، الذي يسر له الكتابة المشوقة بأسهل أسلوب .

وقد قيل عنه انه لم يوجد في العصر الحديث كاتب كان حظه من التعليم المدرسي أقل من حظه ، وكان فضل المعلمين عليه أقل من فضله في تعليم نفسه ، وكان عاشر أبناء أبيه فنذره لخدمة الدين ، ثم تبين أن التعليم في المدرسة الكهنوتية يفوق طاقته فأدخله مدرسة من مدارس الأجرومية والتربية الأولية ، ومكث في هذه المدرسة — مدرسته الثانية — من الثامنة الى العاشرة ، ثم أخرجته أبوه لمساعدته في صناعته .

وكان الصبي المشغوف بالقراءة يلتهم كل ما صادفه من الكتب في داره وعند أقربائه ، فقرأ الكتب التي يقتنيها أبوه في مسائل الدين

وخلافات المذاهب ومناظرات العلماء اللاهوتيين ، ووقعت له نسخة من كتاب « رحلة الحاج » للكاتب المتصوف بنيان Bunyan فقرأها وأعاد قراءتها ثم باعها ليشترى بشمها أجزاء من مجموعة المتسبين (١) Chapmen Books التي تنشر تباعا وتلم بالموضوعات المتنوعة من التاريخ والجغرافيا والنوادر والسير والعجائب الصناعية أو الطبيعية ، وهي قراءة توافق ذهن فرنكلين المشغول بالتوسع والتنويع

ولم يبلغ السادسة عشرة حتى كان قد استوعب العشرات من أمهات الكتب النافعة من قبيل تراجم بلوتارك وذكريات زينوفون ودراسات لوك وشافتنسبرى ورسائل ديفوى ومقالات كوتون مائر عن فعل الخير وغيرها من أشباه هذه المؤلفات القيمة التي كانت في متناول يده ، وقد أعجب أصحاب أبيه بذكائه واقباله على القراءة وفهمه لما يقرأ ف تبرعوا بإعارته ما عندهم من الكتب ، وشجعهم على إعارته بإعادته كل ما يستعيره في أيام معدودات ، ومنهم بائع كتب كان يعيره ما يطلبه كتابا كتابا في المساء ليعيده اليه في النهار التالي ولا يتمكن من البر بوعده الا أن يسهر على مطالعته طوال الليل الى الفجر على نور المصباح الضئيل .

والذي قرأه على هذا المنوال كثير ليس فيه كتاب واحد من كتب اللغو والفضول ، فبلغ السادسة عشرة ومعلوماته تزيد على معلومات أبناء الثلاثين من طلاب العلم والمشتغلين بالاطلاع ، وفكر في الكتابة على سبيل التجربة فأحسن اختيار المؤلف الذي يقتدى به ويوافق منحاه وثابر على الاقتداء به والطموح الى محاكاته والتفوق عليه اذا تسنى له سبيل التفوق ، حتى أخذ منه كل ما في وسع تلميذ أن يستفيد على البعد من أستاذ .

كان اختياره للكاتب اديسون صاحب مجلة السبكتاتور دليلا على

(١) المتسبب كلمة يطلقها العامة على الرجل الذي يلتبس الرزق من الحرف المختلفة كالبيع والشراء والصناعة والوساطة ، ولها اصل فصيح اذا ردت الى التماس الرزق من اسبابه المتيسرة ، ولهذا ترجمنا بها الكلمة الانجليزية التي تفيد هذا المعنى .

ملكة ناقدة مبكرة عرفته بملكات ذهنه ومنهج تفكيره وتعبيره ، فليس في الكتاب من تتراءى ملامحه جلية مفصلة في أسلوب فرنكلين مدى حياته كما تتراءى فيه ملامح هذا « الأب » الفكرى الذى اختاره لقدمته بين عشرات من الكتاب .

وكان أخوه جيمس فى هذه الأثناء قد اشتغل بالطباعة وعهدت اليه صحيفة بوستن جازيت Boston Gazette بإصدارها فى مطبعته ، ، فأصدر منها فى أواخر سنة ١٧١٩ أربعين عددا ثم اختلف أصحابها معه فعهدوا بطبعها وإصدارها الى مطبعة أخرى ، فخطر له أن يستقل بإصدار صحيفة يملكها ويحررها ويدير عليها أعمال مطبعته التى أوشكت أن تتعطل وتخسر سمعتها وعملاءها أمام المطبعة الأخرى التى تنافسها ، فأنشأ صحيفة جواب انجلترا الجديد New England Courant فى شهر أغسطس سنة ١٧٢١ .

والحق فرنكلين بالعمل فى المطبعة متتلذذا على أخيه فى صناعة الطباعة وهو فى الثانية عشرة ، فلما استقل أخوه بإصدار صحيفته لم يكن قد جاوز الخامسة عشرة ولم يبق فى الصناعة عمل لم يجرب يده فيه ولم يتقنه غير الكتابة ، فأخذ فى معالجة هذه الصناعة على منهجه الذى شرحناه اجمالا فى الكلام على طريقته العلمية .

وكان حب الاقتان فى هذه الصناعة مطلباً طبيعياً يحسه من أعماق نفسه ، فلم يذهب مع الغرور وتحرى الاقتان من أبوابه الصالحة ، وعلم أنه لا يستغنى — بعد كل ما قرأه — عن المزيد ثم المزيد من القراءة ، فاقطع من قوته ليشتري الكتب التى لا تستعار ، وخيل اليه من بعض مطالعاته أنه آمن بمذهب النباتيين فاقترح على أخيه أن يعطيه طعاماً بغير لحوم ويضيف ثمنها الى أجره القليل ، فكان يشتري الكتب بثمان الطعام. وأدركته حصافته التى لا تغيب عنه وهو يطرق أبواب الشهرة الكتابية فأخفى اسمه واتخذ له توقيعاً مستعاراً باسم سيلنس دوجود Silence Dogood أى « صمتاً واعمل خيراً أو واصنع معروفاً » وجعله

اسما لامرأة وصفها في بعض مقالاته ، وعنّى في جميع تلك المقالات بالتشويق واجتذاب القراء بالفكاهة والنقد الاجتماعي الذي يعجب القراء من الرجال والنساء معا لأنه يلمس شكائاتهم ويحدثهم عن مشكلاتهم وأوجاعهم ولا يحيف على طائفة لمرضاة أخرى بل يسوى بينهم جميعا في النقد وملاحظة العيوب . ومن دأب الناس دائما أن يعجبوا بهذا التعميم في الملامة والسخرية لأنه يصيبهم كما يصيب الآخرين ، وقيم الكاتب أمامهم مقام الحكم العدل أو الحكم الحكيم الذي يعرف أحوالهم ولا يجور على أحد منهم أو يحاييه باخفاء ما يعرفه عن نفسه وعن صحبه من المآخذ والعيوب .

وأصلح ما يكون لهذا النقد الشامل كاتب مقنع واسم مستعار ، لأن هذا الاسم المستعار يجرده من « اللون الشخصي » الذي يدعو الى الاتهام بالحيف والمحاباة ، أو يدعو الى المنافسة والحسد وتقدير الكاتب بمظاهره الاجتماعية دون مزاياه الكتابية ، وقد خطر لفرنكلين حين أخفى اسمه أن مقالاته عرضة للاهمال والاستخفاف قبل النظر فيها ، وربما بخسها أخوه وزملاؤه الذين يراجعون معه موضوعات الصحيفة كل حق لها حتى حق النشر والاستحسان ، وصح تقديره بعد انكشاف أمره ومعرفة اسمه . فان أخاه قد توهم أنه اغتر بالسمعة والاعجاب وتطلع الى منزلة أكبر من منزلته في أعمال الصحيفة ، فتغيرت معاملته وتعددت مشاجراته واضطر الأخ الصغير بعد حين الى مفارقة الأخ الكبير ومفارقة المدينة كلها ثم مفارقة الديار الأمريكية الى العاصمة الانجليزية .

ومن يقرأ البقية الباقية من مقالات « سيلنس دوجود » يشعر أن النواة كلها كامنة فيها ، فقد برزت فيها ملامح الرجل التي يراها قارئه لأول وهلة في كتاباته بعد الستين وبعد السبعين والثمانين ، وكل ما جد عليها فانما هو من قبيل النمو الطبيعي للبنية المتكونة أو الصقل والتركيب للجوهر النفيس .

وقد تعلم الفرنسية بعد سن الكهولة وكتب بها أو ترجم اليها بعض

كتاباته الانجليزية ، وأخلصت أستاذه فيها — مدام بويون — في امتحان أسلوبه الفرنسي فقالت انه « واضح ان لم يكن صافيا » وقال غيرها ما يشبه هذا في كتاباته الفرنسية والانجليزية على السواء ، فهي واضحة سهلة محكمة ، والنقاد متفقون على دقتها وجلاتها وصحة تعبيرها عن معانيها ، ولكنهم يختلفون فيما عدا ذلك من محاسن البلاغة ومقاصد الكتابة ، ولا سيما القدرة على النفاذ الى الأعماق أو التحليق في القمم والآفاق .

وقد لخص آراء النقاد فيه كتاب مدرسي وجيز في تاريخ الأدب الأمريكي لثلاثة من أساتذة الأدب في الجامعات الأمريكية ، يغربل هذه الآراء من مصادرها المتعددة ويجتهد في أمانة النقل كما يجتهد في حسن الموازنة والترجيح .

فذكر من محاسن هذه الكتابة وضوحها وسلامتها وقوة تعبيرها وما يتخللها من الصور الخلاقة والفكاهة السائغة والقدرة على جوامع الكلم مع سلامة الإدراك وإيراد الحقائق التعليمية في صياغة ترضى وتشوق .

وذكر من عيوبها أنها تفتقر الى جزالة الخيال والرشاقة التي اتسم بها أسلوب أستاذه اديسون والافراط في النزعة العملية المادية التي لا ترتفع الى القيم العليا^(١) .

ونعتقد أن هذه الموازنة تلخيص عادل لما قيل في محاسنه وعيوبه الكتابية ، وأن فرنكلين نفسه لم يكن يجهل هذه العيوب ولم يشغل باله بمحوها أو انكارها ، وألقى باله كله الى محاسنه المحققة فاحتفل بتحسينها وحافظ عليها .

وكل ما كتبه عن البلاغة الكتابية يعزز تلك الآراء عن « نزعة العملية

Outline History of American Literature by Crawford, Kern, and (١) Needleman.

المفرطة » واخضاعه كل فكرة تجول في ذهنه لحدود التقرير والتطبيق .
وفن الكتابة عنده كغيره من مزاوالات الحياة وضروب الأعمال وسائر
الفنون : فكرة تتجمع من البحث في الغرض المقصود منها ، ثم نظرية
يتأدى إليها من ذلك التفكير ، ثم تطبيق يصححه بالتجربة والمراقبة وتقدير
التقدم فيه بمقياس من مقاييس الواقع المحسوس .

ومن الحوار التالي تبين مذهبه في الفكرة النظرية عن الكتابة وعن
التطبيق العملي الناجح لتلك الفكرة النظرية .

قال : « كيف نحكم على جودة الكتابة ؟ أو ما هي الصفات التي
ينبغي أن تتوافر للكتابة كي تعد من الكتابات الجيدة التامة في نوعها ؟

« والجواب أن الكتابة تكون جيدة اذا جنحت الى افادة القارئ
بزيادة قسطه من الفضيلة والمعرفة ، وبغير نظر الى نية الكاتب ينبغي أن
يكون المنهج محكما يستطرد — على انتظام — من الأمور المعلومة الى
الأمور المجهولة في تحديد وتوضيح وبغير لبس ولا اختلاط ، وينبغي أن
تكون الكلمات المستخدمة أقواها تعبيراً عن معانيها على شريطة أن تكون
كذلك أشيعها وأدناها الى الافهام ، ولا ينبغي أن يقال في كلمتين ما يمكن
أن يقال في كلمة ، ولا حاجة الى المترادفات الا نادرا وعلى أن يكون وقعها
في جملة سائغا في الأسماع ، ونوجز فنقول انها ينبغي أن تكون سلسلة
واضحة موجزة لأن الصفات التي تناقض هذه الصفات لا تروق . وننظر
الى المسألة من ناحية أخرى فنقول ان الرجل السيئ قد يكتب المعنى
السيئ كتابة جيدة ، وانه اذا ساءت نيته قد يستخدم أصلح الأساليب
والبراهين على حسب القراء للوصول الى بغيته ، وعلى هذا الاعتبار
نقول ان أجود ما يكتب هو أجود ما يصيب به الكاتب مرماه .

فالكتابة الناجحة هي الكتابة الجيدة في تقدير فرنكلين ، ومقياس
النجاح هو « التطبيق العملي » لفكرة مقررة ووجهة مرسومة ، وهذا
هو فرنكلين كله مرة أخرى يتمثل في صناعة القلم وفي كل صناعة .

ويصادفنا في تراجعهم فرنكلين رأى متفق عليه بين الواقعيين العمليين والنظرين المثاليين ، وهو هذه الغاية الواقعية العملية التي يرتادها في كل مطلب يعنيه ، وربما لمسنا في كلام الواقعيين العمليين شيئا من الاعجاب في التنويه بهذه الصفة ، وربما لمسنا من الجانب الآخر شيئا من الغضاظة في تصريح النظرين المثاليين بها أو تلميحهم اليها ، ولكنهم لا يختلفون في وصفه بهذه الصفة واعتبارها احدى صفاته البارزة ، بل كبرى صفاته العقلية والنفسية بين سائر الصفات .

على أننا نرى أن النزعة الواقعية والنزعة المثالية فيه تتقاربان ، أو أنهما على الأقل لا تتنافران ولا تتعارضان ، فانه يستقصى العمل الى غاية مداه ولا يستطيع أن يدخر جهدا من جهوده يتسع أمامه المجال لبلوغ الكمال الواجب في عمل من الأعمال .

وقد نجح في الكتابة الصحفية وقرر مكاتته فيها وأصبح في مجالها علما فردا لا يدانيه أحد من معاصريه ، وكان هذا النجاح خليقا أن يقنع غيره بالوقوف عنده والاكتفاء به في صناعة الصحافة وصناعة الطباعة ، ولكنه لم يقنع به ولم يقف عنده ، ولم يدع شيئا يقدر عليه في هذه الصناعة الا حاول أن يبلغ منه مايعينه على الاستقلال والكفاية ، حتى سبك الحروف للمطبعة ، ولم يكن في بلاده يومئذ سباكون للحروف .

وديدنه في هذه الخطة هو ديدنه في كل مطلب ، فانه يفكر في الشروط التي ينبغي أن تتوافر للصحفي ثم يأخذ نفسه بتحصيلها وتوفيرها ولا تشنيه عقبة ترصد له في طريقها ، مما يشئ أمامه النظريون المثاليون ولا يتجشمه كل عامل من المجتهدين الواقعيين ، وعلى هذه الخطة أخذ نفسه بالاطلاع على المعلومات الفلكية الضرورية لاصدار التقويم ، وفهم أن الامام باللغات مزينة واجبة للصحفي الذي يريد أن يتقن عمله بين زملائه ، وبخاصة في ذلك الزمن الذي تعددت فيه لغات النازلين بالولايات الأمريكية ولم تنتشر فيه لغة واحدة للكتابة والكلام كما حدث بعد حرب الاستقلال ،

فتعلم من الأسبانية والايطالية والألمانية ما يكفيه ، وتوسع بعض التوسع في اللغة الفرنسية ، وجرى في تعلم اليونانية واللاتينية على مذهبه في التعليم المدرسى متوسطا بين الاهمال والالزام ، فهو لا يهملها ولا يرى أن تفرض على الطالب فرضا ان لم يكن يشعر بالحاجة اليهما في مطالبه الثقافية ، وأحق منها بالفرض في البرامج لغات الأحياء أو اللغات الحية الشائعة بين أمم الحضارة ، وبين أبناء وطنه على التخصيص .

ومما يدخل في هذه الخطة العملية المثالية أنه يجتنب تبديد الجهود ويأبى الاسراف بطبعه فيما يتغيه من الكماليات أو الضروريات ، وهو لا يجور بذلك على حق الكماليات لأنه كذلك لا يسرف ولا يبدد الجهد في طلب الضروريات .

ولا يخفى على الذين اختبروا تعلم اللغات أن الصعوبة فيها درجات : أولاها درجة الفهم من الكلام المكتوب ، وتليها درجة الفهم من الكلام المسموع لأنه يرتبط بلهجات النطق الذى لا يسهل التقاطه على السمع ساعة النطق به كما يسهل التقاط الحرف المكتوب ثم التأمل في الكلمات على الاجمال ، وتلى هذه الدرجة في الصعوبة درجة السماع والاجابة عليه بالكلام المفيد ، ولا سيما الكلام المصطلح عليه فيما جرت به تقاليد أبناء اللغة من المثقفين وغير المثقفين .

وفرنكلين لم يبدد جهده في لغة من اللغات التى تعلمها لغير ضرورة ، وقد عاش في فرنسا زمنا واتصل فيها بصفوة العلماء والمتعلمين ، وعالج الكتابة وأحسنها الى حد الرضا من طبقة المتكلمين بالفرنسية النقية في زمانه ، ولكنه ظل الى آخر أيامه بين الفرنسيين يفهم الكلام في المجلس ولا يفهم الكلام في الخطابة العامة ولا سيما الخطابة السريعة التى لا تجرى مجرى الحوار على حسب المفهوم من السؤال والجواب ، والتى يترتب على فوات معنى من معانيها فوات المعانى التالية لها الى آخر الخطاب . ومن طرائفه في هذه المآزق — وهى طريفة تدل على لطف الحيلة كما

تدل على حب المجاملة — انه حضر اجتماعا عاما تعاقب فيه الخطباء وتعذر عليه أن يتابع فهم الخطب وعز عليه أن يهمل واجب التحية وينفرد بهذا الإهمال بين المستمعين ، فاحتال على الخروج من هذا المأزق بمراقبة إحدى السيدات الحاضرات ممن يثق بذوقهن وفهمهن وبعدهن من الغرض في مهيب الأهواء السياسية، وجعل يتابعها بالتصفيق كلما صفقت وبالسكوت كلما سككت ، وهو يحسب أنه قد أحسن الحيلة وتخلص من المأزق وأدى واجب المجاملة للمتكلمين والمستمعين ، ثم علم بعد ذلك أنه كان يجامل نفسه على غير قصد منه ، وقال له حفيده انه كان يصفق للثناء عليه والتنويه بماثره .. ! وانه كان يكثر من التصفيق كلما أكثر الخطباء من الثناء والتنويه ، وكان لا يكتفى بتصفيق السيدة ومن يصفقون معها بل يجب دائما أن يزيد عليه فضلة من عنده ... ولعله لم يخسر بهذا الموقف الطريف الذي ساقه اليه جهله باللغة وجهه للمجاملة ، فان أذكاء الباريسيين والباريسيات لا تفوتهم حيلته التي كشفها لهم على الرغم منه ، ولا تضيره عندهم ولا تحرمه لديهم من ابتسامة العطف والتسلية ! .. وقد روى الكثيرون ممن سمعوه يتكلم الفرنسية مع صفوة المجتمع الباريسي من العلماء والنبلاء أن الخطأ في كلامه كان أحب اليهم من الصواب ، لأنهم يتفكهون به ويكشفون ما ينطوى فيه من حسن الاحتيال على التعبير .

ولم يكتب فرنكلين لغير الصحافة الا القليل ، وأطول مؤلفاته ترجمته التي كتبها لنفسه ولم يتمها الى نهايتها ولم تظهر في حياته ، وله رسالة في الأخلاق كتبها في انجلترا وسماها « مبحث في الحرية والضرورة والسرور والألم » غلبت فيها عليه فلسفة العصر كله وذهب فيها مذهب القائلين بأن الفضيلة والرذيلة لا وجود لهما في الطبيعة التي تسيروها قوانين الضرورة وتدار وفقا لتلك القوانين كما تدار الآلات ، ثم عدل عن هذا الرأي أو عدله تعديلا يبقى للفكرة قالبها ويغير جوهرها ، فكان مذهبه الذي صمد عليه بقية حياته ان الفضيلة أهل لأن يفضلها المختار لو أنه أحسن

الاختيار وأن الخبثاء الدهاء لو عرفوا قيمتها لأصبحوا باختيارهم فضلاء
 بوحي من الخبث والدهاء .. وتعود بنا هذه المصالحة بين الضرورة والاختيار
 الى تلك النزعة الواقعية التي تلاقى النزعة المثالية في منتصف الطريق ،
 فتتقاربان ، أو هما على الأقل لا تتنافران .

وفيما عدا الترجمة والرسالة الأخلاقية لم يفرغ لتأليف الكتب مع
 اشتغاله بالصحافة والتجارب العلمية ووظائف الحكومة التي وكلت اليه
 بعد اشتهار اسمه وذيوع مخترعاته وعلومه . وقد كان عمله في الصحافة
 أعمالا متشعبة كما تقدم ، فانها كانت تشمل التحرير والطباعة والنشر
 وانشاء الصحف وتوزيعها وبيع الكتب التي يطبعها أو يستوردها من
 البلاد الانجليزية ، وكانت الطباعة التي يتولاها تشمل سبك الحروف
 وادارة المكنتات وحفر النقوش وكل صناعة طباعية يحتاج اليها الصحفي
 والناشر في عمله . وقد عقد النية منذ فارق أخاه على أن يشتغل بانشاء
 صحيفة يملكها ويتصرف في ادارتها وتحريرها ، فبدأ بعد عودته من لندن
 الى فلادلفيا بشراء مطبعة نجحت في اتقان مطبوعاتها وتوفير عملائها ،
 ثم اشترى في سنة (١٧٢٩) صحيفة بنسلفانيا جازيت وأصدر تقويم
 ريتشارد المسكين بعد ذلك بثلاث سنوات ، وضم الى الصحيفة مجلة
 سماها المجلة العامة The General Magazine and Historical Chronicle
 صدرت في سنة (١٧٤١) وكانت ثمانية المجلات التي صدرت في الولايات
 الأمريكية ، وحاول في أثناء ذلك اصدار صحيفة ألمانية يكتبها أستاذ من
 أساتذة اللغات فصدرت منها أعداد قليلة ولكنها لم تعمر طويلا لقلة
 القراء باللغة الألمانية ، ومكنته سمعته الحسنة في الصحافة والطباعة من
 المشاركة في بعض صحف الجنوب ثم أرادت الجماعة النيابية بكارولينا
 الجنوبية أن تشجع الطباعين على انشاء مطبعة فيها فتبرعت بألف جنيه
 لمن يقيم مطبعة كاملة في الولاية ، فاتفق فرنكلين مع أحد زملائه على اقامة
 المطبعة مشتركين في ادارتها وأرباحها ، وحيل بينه وبين الحصول على
 المعونة الموعودة فلم يكف عن السعى حتى حصل عليها بعد وفاة الطباع

الزاحم له (سنة ١٧٣٢) وأصبح هو وشريكه مستقلين بإصدار صحيفة للولاية باسم « سوث كارولينا جازيت » أى صحيفة كارولينا الجنوبية .

وكان فرنكلين كفؤا لكل صعوبة تعترضه فى أعماله الصحفية ولا سيما أعمال النشر والتوزيع ، ومن أخطر هذه الصعوبات التى تغلب عليها أنه منى بمزاحمة أندرو برادفورد مدير البريد يوم كان البريد « التزاما » يتولاه المدير لحسابه ولا يدخل فى عداد المصالح الحكومية ، فمنع برادفور ساعاته من توزيع صحيفة فرنكلين وأوشك أن يشل حركتها لولا ذلك الخلق المطبوع الذى أسعد فرنكلين بالأنصار والأعوان فى جميع المآزق المحرجة ، وهو خلق الكياسة وطيب المعاشرة وحسن التفاهم مع الناس من كل طبقة ، فلم يلبث أن تفاهم مع السعاة واسترضاهم بالهدايا تارة والافتناع تارة أخرى فأقبلوا على توزيع صحيفته على غير علم من مديرهم ، ونجح حيث أخفق مدير البريد .

وأعانه هذا الخلق فى اجتذاب العملاء فأقبلت دواوين الحكومة على طبع أوراقها عنده ، واختاره تجار الكتب لطبع الكتب التى يوزعونها ، وكان هو يطبع من التصانيف السلفية ما يقدر له الرواج فى كل زمن ، كالمجاميع القانونية ، ومجاميع الصلوات ، ودساتير الماسونيين ، ومفكرات الطبيب والاسعاف ، ودواوين القصائد التى تصلح للمناسبات ، ونصائح الارشاد فى مشكلات الأسر وأصحاب المعاملات ومراجع الصناعة التى تجمع بين العلم والفائدة ، غير ما كان يستورده من المطبوعات الأدبية التى يقبل عليها قراء الشعر والنثر من خاصة القراء . ولم يكن يستورد منها غير العدد الذى ينفد لساعته ، ويضمن له ثقة الخاصة من قراء الاقليم وتعويلهم على مطبوعاته ووارداته .

ومن المحرجات فى صناعة الطبع والنشر ما يحسه فرنكلين بصفة خاصة لأنه على ايمانه بحرية الرأى يكره العداوات ولا يميل الى اغضاب المخالفين ما استطاع أن يرضيهم بالكلمة الحسنة والصراحة المقبولة . وليس من اليسير على طابع أو ناشر أن يقصر مطبوعاته ومنشوراته على

ما يرضى الناس جميعا ولا يسوء أحدا منهم ، وأعسر ما كان ذلك في عصر المجادلات السياسية والدينية بين أناس من مختلف الأقدار والعقائد والميول ، فاجتهد فرنكلين في اجتناب ما يمكن اجتنابه مما يسوء القارىء لغير ضرورة ، ولم يبال بعد ذلك أن ينشر ويكتب ما يخالف أناسا ويوافق آخرين ، وكتب دفاعه عن صناعة الطباعة توضيحا لمسلكه بين الآراء المتضاربة ، فكاد أن يرضى الجميع به لو كان الى ارضاء الجميع من سبيل .

الا أنه — مع حرصه على المجاملة حرص الافراط في بعض الأحيان — لم يجمال أحدا فيما يشذ عن آداب المناظرة أو يقحم المثالب الشخصية بين مباحث النقد ومناقشات الآراء ، وكان يقول كما ذكر في ترجمته : « اتنى أتجاشى في تحرير الصحيفة كل اساءة شخصية من تلك الاساءات التى وصمت بلادنا في السنوات الأخيرة . وكلما ألح الملحون على نشر كلام من هذا القبيل واحتجوا كعادتهم بحرية الصحافة وشبهوا الصحيفة لتسوينغ طلبهم بالمركبة الحافلة التى ينبغى أن تتسع لكل راكب وكل مشترك — كان جوابى لهم اتنى على استعداد لطبع كلامهم على حدة ولهم أن يطبعوا منها النسخ التى يريدونها ويباشرون توزيعها ، ولكننى أنا غير مسئول أن أشارك معهم في عمل لا أراضاه .

ولا نخاله كان بحاجة خاصة الى مطبعة خصوصية لطبع رسائله في باريس ، فربما كان حكم العادة وحب الصناعة التى شب عليها سلواه في أيام الشيخوخة وباعته الأول الى اقتناء المطبعة الخصوصية قبل كل باعث من بواعث الأعمال السياسية أو الأدبية ، ولكن مطبعة « باسى » على هذا قد أخرجت له نخبة من الرسائل والنشرات لم تخرج مطابعه الأولى نظيرا لها أيام الشباب ، ولو سقطت هذه المطبوعات من مجموعته الكاملة لاختفى باختفائها أجمل ما كتب من الفكاهة والنقد بعد تهذيب السن وحنكة الشيخوخة والاطلاع .

« وفقا للخطة المقررة ... » .

هذه عبارة شاعت أيام الحرب الأخيرة ، في بلاغات القيادات العسكرية ، وتعود القراء بعد تكرارها أن يفهموا منها أنها تكتب في البلاغات التي تنذر بالارتداد من غير اعتراف بالهزيمة ! فإذا سمعوا خبرا يتبدى بالتراجع والارتداد بادروا الى اتماحه متهمين : نعم ! وفقا للخطة المقررة ..

ترى هل كان أصحاب هذه البلاغات من قراء فرنكلين ؟

لا نظنهم قراؤه . ولكنه قد سبقهم الى هذه العبارة وأمثالها ، وعود قراءه قبلهم أن يتوقعوا كل حركة كبيرة من حركات سيرته الحافلة .. وفقا للخطة المقررة ! . وعودهم أن يتسموا لهذه الخطة التي ترسم كل حركة من حركاته سلفا حتى حركات الأفكار والأخلاق ! ولكنهم يتسمون هنا لتلك العادة المزمنة التي لا تتغير ولا تذكر الا مقرونة بأخبار النجاح ، فليس في ابتساماتهم المتوالية شئ من التهمك أو السخرية على اخفاء الفشل بالدعوى ، بل هي ابتسامات العطف التي ترتفع الى الشفاه كلما نظر الناظر فرأى أمامه وجها قديما يطالعه من جديد ، ويرجع اليه في كل مرة على ديدنه وهجّيراه .

قال فرنكلين يصف مقدمات سيرته الطويلة : « ان الذين يكتبون عن فن الشعر يعلموننا أننا لا ننظم شيئا جديرا بأن يقرأ الا اذا رسمنا له من البداية خطة مفصلة عن مقاصده والا تورطنا في السخف والاطالة، وأراني أعتقد أن هذه الخطة تصدق على الحياة برمتها ، خلافا لمنزعى الأول اذ كنت لا أتبع في حياتي خطة موحدة ولا أرى الحياة على هذه الحالة الا شتيتا من المناظر لا تربط بينها رابطة . واننى الآن لمقدم على حياة جديدة . ولا بد لى من عزائم أمضى عليها ومسالك في الأعمال أتوخاها ، كى أعيش من جميع الوجوه عيشة مخلوق عاقل . فليكن لزما على اذن أن أتحرى القصد زمنا لأبرىء ذمتى من كل زيف ، وأن

أروض نفسى على قول الصدق فى كل موقف فلا أدع انسانا يتوقع من كلامى أملا لا يتحقق ، ولا أحيد عن سنة الاخلاص فى كل كلمة أفوه بها أو عمل أعمله ، وهى أحب السنن فى مناقب العقلاء ، وأن أفرغ نفسى بجهد وعناية لكل شاغل أقدم عليه فلا أنصرف بذهنى عنه سعيا وراء الأمل الخادع فى الثروة العاجلة . لأن الاجتهاد والمثابرة أضمن وسائل الثراء ، وعلى ألا أنبس بكلمة مسيئة عن انسان من الناس ولو فى سياق الافضاء بالحقيقة ، بل أحاول أن ألتمس المعاذير لما أسمع من أخطاء الناس ، وأن أذكرهم بالثناء فى كل مقام » (١) .

وعلى هذا البرنامج سار فرنكلين فى حياته الكتابية وحياته الصحافية ، فلم يقصر عن غاية كان فى وسعه أن يبلغها ، وتقدم الى الطليعة بين كتاب عصره فى وطنه وغير وطنه ، ونظم من حياته قصيدة لا اختلال فى أوزانها على النحو الذى رواه عن فن الشعر فى رأى معلميه . ولا ريب أن هذه القصيدة الحية ، بل هذه الملحمة الوافية ، أبدع قصائده من منظوماته وأناشيده ، فلم ينظم من الشعر ما أبقاها أو تركه للبقاء ، ولم يطاوع هواه مع عروس الشعر الا ليستعين بها على حفظ كلمات المنشور أو توقيع الأناشيد فى مجلس من مجالس الجبور ... فلم تبق له غير قصيدة واحدة ذات قواف متعددة ، هى الحياة على هذا الوزن الرتيب ، ومن قوافيها المتعددة قافية الكاتب الأديب .

(١) الفصل الرابع من ترجمة فان دورن .

السياسي

يعمل في السياسة اليوم أناس كثيرون كلهم له وظيفة سياسية ، وكلهم له عمل غير أعمال الآخرين ، وقد يقضى الواحد منهم حياة معمرة ولا يشتغل في السياسة بوظيفة غير الوظيفة التي استعد لها بترتيبه وتعليمه .

فالوزير ، أو الزعيم ، الذي يقود الرأي العام سياسي ، والسفير الذي ينوب عن دولته عند الدول الأخرى سياسي ، والحاكم الذي يدير الديوان أو يحكم الاقليم يعد من ساسة البلد ، والعالم الباحث الذي يدرس النظريات الاجتماعية ومبادئ الحكم عالم سياسي أو خبير مختص بعلم السياسة .

وهذه كلها أعمال محدودة في العصر الحاضر ، لا يختلط واحد منها بغيره وان كانت كلها تنتظم تحت عنوان السياسة .

ولكنها لم تكن محدودة في عصر فرنكلين ، ولم تكن محدودة في وطنه بصفة خاصة ابان حركة الاستقلال ، لأن الشعب الأمريكي في ذلك العصر كان يتطلع الى زعمائه البارزين في كل مشكلة ويتطلب منهم العمل والهداية في كل موقف ، وكان يواجه المسائل والخطوب جملة واحدة بكل ما عنده من قوة وقدرة ، فهو يندب الرجل الذي يراه أمامه للمشكلة التي يراها أمامه ، وينتظر من الفقيه أن ينفعه في تدبير شئون القتال ، ومن المقاتل أن ينفعه في تدبير شئون الحكم ، ومن التاجر أن يعمل عمل السياسي ، ومن السياسي أن يعمل عمل التاجر ، ولا يملك الوقت ولا التنويع أو التقسيم الذي يتيح له أن ينتظر لكل عمل صاحبه ولكل رجل رسالته ، فكل مشكلة لساعتها وللرجل الذي يلفت الأبصار ويقرع الأسماع في تلك الساعة ، وهذه هي المحنة التي امتحنت كل معدن من معادن الرجال البارزين فأخرجت في معصرة الشدة خيرا ما فيه .

وأخرجت مع هذا فئة صالحة من الزعماء لا تفوقهم فئة من قبيلها في عهد من عهودها التالية ، بعد النهضة والتقدم والاتساع والارتفاع . وكان فرنكلين واحدا من هؤلاء الزعماء المدخرين للشدائد في أوقاتها، وللسياسة بجميع مقاصدها : سياسة الزعيم وسياسة السفير وسياسة الحاكم وسياسة الباحث في كل سياسة .

ونجح حيث طلبوا منه النجاح ، ولم يخيب الظنون في رجاء يناط به أو ناظته به حوادث الأيام .

في عصرنا هذا قد تترجم السياسى ونلتمس أسباب نجاحه في أوائل نشأته ومبادئ تربيته وتعليمه .

وفي عصر فرنكلين نفسه ربما جاز التماس الأسباب — أسباب النجاح — في النشأة والتربية والتعليم .

ولكننا لا نستغنى في عمل من أعمال فرنكلين — خاصة — عن الرجوع به الى الفطرة الموروثة قبل غيرها ، فلم تكن في عصره علوم مقررة وبرامج محفوظة لتخريج الساسة الناجحين في كل ضرب من ضروب السياسة ، ولو كانت هناك تلك العلوم والبرامج لما فسرت لنا شيئا من نجاحه في سياسته ، لأنه — كما قيل — لم يوجد أحد قط كانت فائدته من المدرسة أقل من فائدة فرنكلين .

ولابد أن ننظر في تكوينه الفطرى ، وفيما هو من قبيل هذا التكوين، لتفسير كل قدرة له لم يستفدها من المراتة والتعليم .

ولا يستطيع مترجم له أن ينسى في هذا الصدد قوة البنية التى ورثها من أبويه ، فان قوة البنية أصدق أعوان السياسى في كل عمل من أعماله يتطلب الهدوء واعتدال المزاج ، وكل عمل من أعمال السياسى يتطلب النفس الهادئة والمزاج المعتدل .

وجب النظام خصلة يتعلمها الانسان في المدرسة وفي تجارب الحياة ،

كما يتلقاها استعدادا بالوراثة مع البنية الطبيعية ، ومهما يكن من فضل التعليم والتجربة في هذه الخصلة فلا شك في اختلاف الاستعداد لها بالطبيعة الموروثة ، فقد يغنى قليل من التعليم والتجربة مع الاستعداد الطبيعي حيث يضيع التعليم الكثير والتجربة الطويلة عبثا مع فقدان ذلك الاستعداد .

ولقد كانت قوة البنية عوناً لفرنكلين على التنظيم وكابحا لدوافع الخل والاندفاع والتقلقل بين رأى ورأى وبين نظام ونظام ، وقال عارفوه — بعد الأربعين على الخصوص — انهم لم يروه قط في ربكة أو عجلة .. وهذه أيضا عدة من عدد النجاح في السياسة لا يستغنى عنها ، ولا يقدر عليها أحد كما يقدر عليها الرجل المكين البنية المستقر على نظام لأعماله وأوقاته، يمنع الخلط بينها والارتباك في البدء بها والانتهاء منها ، ويمنع الربكة والعجلة تبعا لذلك ، فلا يفقد طمأنينته ولا يفقد العاملون معه طمأنينتهم اليه .

ويلحق بالاستعداد الفطري أنه كان عاشر أبناء أبيه ، فلم ينشأ نشأة الطفل المدلل ولا نشأة الطفل الوحيد الذى يقضى أيام الطفولة بعيدا من أمثاله غريبا عن شعور الزمالة والعشرة الطبيعية. وفتح عينيه على الدنيا وهو يصاحب أطفالا أكبر منه وأصغر منه بين اخوة وأخوات من الجنسين . فلم يصعب عليه بعد ذلك أن يسلك مع الناس ، وعرف الكبار والصغار في أخص حالاتهم وأعمها معرفة البداهة السهلة والفهم الصحيح. وكان له من كل أخ وكل أخت نموذج مختلف ينوع أمامه طبائع النفوس فلا تخفى عليه حقائق النفس البشرية على تعدد الأمزجة والطباع .

ولسنا نرى أن المقدرة السياسية كان لها الفضل كله في نجاحه حيث نجح في « وظائفه » السياسية التي لم تنحصر في مجال واحد من مجالات السياسة ، فمن قيادة رأى العام الى المفاوضة الى الادارة والتنظيم الى مباحث الحكم وفلسفة الاجتماع — كل أولئك كان له فيه أعوان من ظروف الزمن وظروف النهضة الفكرية وظروف المجتمع الأمريكى نفسه

في إبان تكوينه قبل الخلاف مع الدولة البريطانية وبعد الاستقلال عنها الى يوم وفاته .

١/ فالنزاع بين بريطانيا العظمى وفرنسا كان له شأنه في ضم فرنسا الى جانب الثورة الأمريكية وتحريضها على الانتقام من بريطانيا العظمى لسعيها الحثيث في طردها — أى طرد فرنسا — من أمريكا الشمالية نفسها ، وقد كانت رغبة فرنسا في طرد الدولة البريطانية من تلك البقاع لا تقل عن رغبة الأمريكيين الساخطين على حكومة لندن وحكومة المستعمرات .

وهذه معاونة من الظروف لا تهمل في تقدير مساعيه وتقدير أسباب نجاحه ، ولكنها اذا وضعت في الميزان وجب أن توضع أمامها عوامل أخرى في السياسة الأوروبية كانت تميل بفرنسا الى الحذر والأناة في تشجيع الثوار الأمريكيين ، بل كان من هذه العوامل التي تدعو الى الحذر والأناة أمور ترجع الى فرنسا داخل حدودها ولا تمتد الى ما وراء الحدود في القارة الأوروبية أو القارة الأمريكية ، وتلك هي مخاوف القصر والنبلاء من بؤادر الثورة الفرنسية التي كانت تهددهم بالذير بعد النذير حتى قضت على لويس السادس عشر — ملك فرنسا — الذي استقبل في بلاطه فرنكلين .

ومن الظروف التي أعانت على النجاح مالا يحسب لفرنكلين في ميزان القدرة السياسية ولكنه يحسب له راجحا مرجحا في غير ذلك الميزان ، وشهرته العلمية ظرف من أكبر هذه الظروف ، وسجاياه المحبوبة ظرف آخر لا يقل في تمهيد الطرق أمامه وفتح الأبواب له عن الشهرة العلمية .

وهنا أيضا ينبغي أن نعاذل بين الكفتين ونضع شيئا في كل كفة منهما ولا نقصر المرجحات على كفة واحدة .

هنا أيضا ينبغي أن نعلم أن الظروف المؤاتية تصادف الساسة في كثير من المهام الكبرى والصغرى ولا يحسنون الاستفادة منها بل لعلمهم

يعكسونها ويضيعون فرصتها بالغلطات التى يستغلها الخصوم ويحسبونها
فى جانبهم من الظروف المؤاتية !

وقد كان خليفة فرنكلين فى تمثيل بلاده عند الدولة الفرنسية رجلا
من مشاهير الأمريكيين بلغ الى رئاسة الجمهورية وعده المؤرخون
الأمريكيون والأوروبيون من آحاد الرؤساء النابهين ، وكانت له فلسفة
سياسية ومبادئ ديمقراطية تدرس الآن بين أصول الحكم الدستورى
والحرية الفكرية ، وحل هذا الخلف العظيم محل سلفه العظيم فأحسن
بالعبء الفادح من اللحظة الأولى ، وكتب الى قومه يقول : انه يحل
محله ولكنه لا يغنى غناه ... ولم يكن جفرسون ممن يتلطفون أو
يمدحون على حساب الحقيقة والعدل باسم التواضع المكذوب .

والظروف المعاونة فى استنباط قواعد الفلسفة السياسية تشبه هذه
الظروف وأمثالها فى مسائل المفاوضة الدبلوماسية . فقد كان أذكىاء
العصر يرقبون هذه الفلسفة وهى تولد وتترعرع وتنمو مع الحوادث
والمطالب الشعبية من جانب الطلاب وجانب المعارضين والمنكرين ، وكان
له رأى عن التمثيل النيابى وحقوق الدولة فى تحصيل الضريبة وحقوق
المحكومين فى المحاسبة عليها وحقوق الطبقات فى المساواة أو الامتيازات
الموروثة — قضية قائمة مسموعة الحجج من طرفيها منجمة على حسب
الحوادث بل على حسب الأفراد والأقاليم فى كثير من الأحوال ، وكان
صاحب الرأى الفلسفى يعمل « فلسفته » عملا وينفذها تنفيذا ولم يكن
قصاره منها أن يقرأها على الصفحات ويناقشها بالبراهين ، وكان جو
الدولة البريطانية من أقصاها الى أقصاها يتماوج ببقايا الثورة الدستورية
ويردد الأصدااء القريية التى يسمعها الحاكمون كما يسمعها المحكومون ،
وكانت فرنسا تنسم الأتقاس من هذا الجو وتنفسها فى صرخات فولتير
وزملائه المتمردين المتحفزين ، ولم تسمع نظرية واحدة من نظريات
الفلسفة السياسية التى شاعت فى ذلك العصر الا وهى لاحقة بجاذثة
تؤيدها أو سابقة لحادثة يوشك أن تتجسم للحس والعيان ، وهذه هى

النظريات التى تستجيب لها طبيعة فرنكلين ويتقبلها ذهنه ويقيم عليها أفكاره وأعماله فى وقت واحد ، فليست الأفكار فيها الا أعمالا مفسرة ، وليست الأعمال فيها الا أفكارا مطبقة ، أو فى انتظار التطبيق .

ويوضع كل هذا فى كفتى الميزان حيثما وزنت قدرة فرنكلين ومعونة الظروف فى مساعيه السياسية وفى قيادة رأى العام الى الفلسفة الاجتماعية ، ويوضع فى الميزان قبلها وبعدها تقدير واحد ينبغى ألا ينساه من يزن عملا من الأعمال أو سيرة من السير ، وربما كان هذا التقدير سؤالا يلقيه المؤرخ على نفسه ويجيبه ثم يفترض جوابه المعقول فى حساب المسئولين الآخرين : فإذا كان صاحب السيرة لم يعمل عمله بفضل قدرته وحدها دون غيرها ، فهل عملته الظروف وحدها بفضل قدرتها دون غيرها ؟ وهل كل عامل ينجح مثل هذا النجاح اذا وجد فى هذه الظروف ؟

ان كانت الظروف لا تغنى عن العامل فذلك هو الفضل الذى يوضع له فى ميزانه ، واذا كانت الظروف المؤاتية لا تنقطع عن الدنيا ولا تتجدد منها حادثة من الحوادث العظمى فهى لا تعلو ولا تهبط بكفة ميزان .

كانت قيادة رأى العام من « وظائف » السياسة العامة التى نهض بها فرنكلين أو أنهض لها — على الأصح — لأنه لم يطلبها بأدواتها ولم تكن لديه أدواتها فى البلاد التى تنال فيها قيادة الشعب بالتأثير فى الجماهير . فلم يكن خطيبا يملك عواطف السامعين ويثيرها ويلعب بها على هواه ، ولم يكن من عاداته أن يسرف فى الوعود وأن يقول ما لا يعمل ولا ينوى أن يعمل ساعة الوعد به فى ساعة من ساعات الحماسة وهياج الخواطر والأفكار ، ولم تكن الحماسة من طباعه فى علاقة من علاقاته بالناس خاصة أو عامة ومحتاجين أو هادئين، وكان فصيحاً مينا فى الاعراب عن رأيه والاقناع بحجته وشرح أفكاره التى استقر عليها والتى لاتزال بين التردد والاستقرار ، ولكن هذه الفصاحة المينة ليست بالعدة الماضية فى قيادة الجماهير من منصة الخطابة ، وليست على الأخص بالعدة الماضية فى عصر النزاع واضطراب الأهواء وجماح المطالب الى غير وجهة ثابتة

يتفاهم عليها القادة والمفكرون فضلا عن الأتباع المتقادين بغير تفكير .

فلما نهض فرنكلين بقيادة الرأي العام أنهض لها على الأصح من غير سعى لها وغير تدبير مقصود للوصول اليها اللهم الا أن نحسب نتيجة عمله غاية مقصودة يناط بها التدبير .

فقد كانت ثقة الناس به من نتائج شهرته بالتقويم السنوى الذى سماه تقويم ريتشارد المسكين وكاد أن يحمل اسمه والاعجاب به الى كل بيت فى الولايات ، وكانت هذه الثقة فى موطنه وبين عارفه من نتائج الاطمئنان الى حسن ادارته وأمانة يده وضميره ورباطة جأشه وقدرته على مواجهة الشدائد والأزمات بما يلائمها من الرأي الحاضر والفكر الهادى والتصرف المريح الذى يرتضيه أطراف الخصومة بعد سكون الزوبعة وانقضاء النزاع والخلاف .

ولم يحاول قط ، ولا كان فى قدرته ، أن يثير الجماهير بفصاحة الشارع وارتجال الدعوى الكاذبة التى لا تسأل عما تقول ولا يذكرها أحد بما قالت ولا يذكر أحد ما سمع منها بعد حينه ، ولكنه كان يقدر على ما هو أصعب وأخطر فى مخاطبة الجماهير : كان يقدر على تهدئة الجماهير الثائرة . وهى قدرة لا طاقة بها لأقدر الخطباء على اثارة الجماهير الهادئة ، وكانت عدته النافعة فى هذه المواقف رباطة جأشه وطيبته المرتسمة على سيماه ونظرته الأبوية التى تعدى الناظرين بما يقابلها فلا يملكون الا أن ينقادوا له طائعين كما ينقاد الأبناء للآباء .

ومن هذه المواقف الثائرة أن بعض الأغرار على الحدود سمعوا بمركة بين السكان البيض والهنود الحمر فهجموا على قبيلة من القبائل الهندية للاقتصاص منها وفر أبناء هذه القبيلة وبناتها الى فلادلفيا يحتمون بها من مطاردة الناقمين المتعطشين الى الثأر والانتقام ، فثار بهم غوغاء فلادلفيا وتعقبوهم فى الطرقات ليفتكوا بهم وينتقموا منهم على السماع بغير تمييز بين المعتدين والمسالين ، وطلب الحاكم من فرنكلين أن يجمع

الفتنة بفرقة من الجند الرديف ، فلم يعمل فرنكلين بالأمر وآثر التجربة بالحسنى قبل الوثوب الى السلاح ، وذهب الى الثائرين منفردا عزلا لا يحمل في يده شيئا حتى عصاه ، وكانت رؤيته كافية لتوقف الجمهور الهائج في ثورة غضبه للاصغاء الى الأب فرنكلين ، وكتب هو عن هذا الحادث الى صديق له في لندن يقول : « في خلال أربع وعشرين ساعة كان صديقك القديم جنديا ومستشارا ودكتاتورا على نوع ما وسفيرا الى الغوغاء . ثم عاد الى منزله نكرة كما كان .. » .

وبهذا الوقار على أسلوب آخر كان يؤدي أمانة القيادة بين كبار القادة من فطاحل الزعماء ، فلما عهد اليه مع فئة من هؤلاء الزعماء أن يكتب اعلان الاستقلال لم يرض عن كلمة جفرسون التي قال فيها عن حقوق الأمريكيين « انها مقدسة لا تنكر » واقترح بدلا منها « انها ثابتة بذاتها » لأن القول بأنها لا تنكر لا يطابق الدقة العلمية مع وجود من ينكرونها ويقاثلون في سبيل انكارها ، ولأن القداسة في الحقوق العامة قد ابتذلت بدعوى الملوك الذين يزعمون انهم يتلقون السلطان من السماء ودعوى رجال الدين الذين يزعمون أن القداسة مستمدة منهم وقد يتسلطون من وراء هذه الكلمة الى المطالبة بالرقابة على حقوق الشعب « المقدسة » !.. فكادت قيادته للأمة لا تستغنى عن وقار تفكيره بين الدهماء ولا بين الزعماء .

والسياسى المفاوض يلى السياسى الزعيم فى القدرة والخبرة بأساليب المفاوضة فى كل ظرف من ظروفها ، وهى تلك الظروف التى تتناقض بين يوم ويوم وبين خصم وخصم وبين قضية وقضية .

فتولى المفاوضة فى بلده بين البيض والهنود الحمر ، وبين أبناء الولايات وأبناء كندا الفرنسية .

وتولى المفاوضة فى انجلترا نائبا عن بعض الولايات الأمريكية .

وتولى المفاوضة فى فرنسا ليستعين بها على مقاومة بريطانيا العظمى

ويعقد معها معاهدة تعترف فيها باستقلال الولايات وتسجل لهذه الولايات كيائها « الرسمي » في عالم السياسة الدولية .

وكانت عدة « السياسى المفاوض » لديه أكمل من عدة السياسى الزعيم أو السياسى الذى يقود الجماهير بالأقوال والوعود .

كانت المسألة طبيعة فيه ، وكان من مبادئه « العلمية » صيانة الجهود عن التبديد ، فلا يقدم على نضال يستطاع اجتنابه بوسيلة من وسائل التراضى أو حيلة من حيل المجاملة والتفاهم على أواسط الأمور ، وعنده انه « لا حرب حسنة ولا سلم سيئة » .. بل السلم خير من الحرب ما دامت المسألة تغنى عن القتال .

وفافوض الهنود الحمر فنجح لأنهم يحسون منه دخيلة شعوره فى مسألة الفوارق بين الأجناس ، وقد كان يقول ان الفتك بأبناء قبيلة هندية انتقاما من أبناء قبيلة أخرى جور قبيح كانتقامنا من الهولنديين مثلا لعدوان يصيبنا من الفرنسيين واعتذارنا من ذلك بأنهم « كلهم بيض الوجوه .. » .

ولم يسمع الهنود منه هذا الرأى ولكنهم كانوا يحسونه من شعوره ومعاملته وإيثاره للتراضى والمصافاة .

ولما ذهب للمفاوضة فى انجلترا كان فى رأسه كل حل وكل محاولة قبل القطيعة وإعلان العداء .

كان فى ذهنه أن تتعاون أجزاء الامبراطورية على نمط «الكومنولث» الذى اهتدى اليه الساسة البريطان بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان فى ذهنه أن تختار للامبراطورية عاصمة فى الولايات تتبعها الجزر البريطانية كما تتبعها الولايات الأمريكية وغير الأمريكية ، وكان فى ذهنه أن تنفض الخصومة بتقرير حقوق الهيئات النيابية فى كل بلد وتقرير حقوق التاج على المساواة بين الجميع ، فلا يكون لبرلمان انجلترا حق

في فرض الضرائب مع وجود البرلمانات المحلية ، ولا يشترك التسابون للتاج في هذه المساواة .

وهذا المفاوض الذي كان من طبعه أن يذهب مع المفاوضة الى الحد الأقصى لم يكن يذهب بها الى غير حد ولا نهاية ، فلما جاء العدوان في بلده من الهنود الحمر وظهر من العدوان انه استضعاف وسوء فهم لمعنى المسالمة والمداواة كان هو المقاتل المصر على القتال الى أن يتبدد هذا الفهم وتزول من نفوس المعتدين مظنة الاستضعاف . ولما فتح كل باب للمسالمة مع الساسة البريطان ويثس من كل حل وكل حيلة كان هو في طليعة الدعاة الى المقاومة بالسلاح وعلى رأس العاملين على توفير الأسلحة وتجنيد الفرق واتخاذ الحيلة في مواضع الهجوم والدفاع .

أما المفاوضة في فرنسا فقد كانت في نصف الطريق أكبر مجازفة ، وكانت في النصف الآخر أكبر نجاح .

برح الديار الأمريكية سرا في السادس والعشرين من شهر أكتوبر (١٧٧٦) مع ثلاثة من الزعماء لمفاوضة الدولة الفرنسية في عقد معاهدة مع الدولة الأمريكية المستقلة تمهد لغيرها من المعاهدات مع الدول الأخرى ، وتبدأ الاعتراف بالدولة المستقلة الجديدة في المعاهدات الدولية ، وكان سفره على سفينة صغيرة لا تحتل زعازع المحيط الأطلسي في تلك الآونة ، وأخطر من زعازع المحيط الأطلسي رقابة الأسطول البريطاني على السفن التي تفارق الشواطئ الأمريكية ومن عسى أن يكون فيها من الثوار العاملين على خدمة الثورة ومناجزة الدولة الحاكمة ، ولا خفاء في الجزاء الذي ينتظر فرنكلين لو وقع في قبضة الأسطول المنتشر في عرض البحار ، فانه لا ينجو من الشنق بتهمة الخيانة العظمى قصاصا منه وعبرة لأمثاله ، وما كان هذا الجزاء الرابض له ليخفى عليه قبل سفره ، فقد كان جون هانكوك Hancock يوقع اعلان الاستقلال ويقول والقلم في يده : « علينا يا صحاب أن تتعلق جميعا بعلاقة واحدة » وهي عبارة باللغة الانجليزية ترادف الكلمة العربية التي

تعبّر عن هذا المعنى « بالاعتصام » بحبل واحد .. فقال فرنكلين : نعم .
والا تعلقنا بحبال كثيرة متفرقين !

سافر من بلاده في السبعين وهو يعلم هذا الخطر الذي يترصد له في الطريق ، ولكنه لم يصل الى « نانت » ليهدأ بعض الشيء على أثر هذه الرحلة المقلقة في السفينة المضطربة حتى أحس طوابع النجاح بعينه ، وعلم أن الحفاوة التي سيلقاها من الأمة الفرنسية تفوق كل ما خطر على باله وبأل أصحابه ، واقضى اليوم السابق لدخوله باريس دخول الفاتحين في التساؤل عن الموعد وعن الطريق والتسابق الى أقرب الأمكنة لرؤية السفير المنتظر ، فلم يبق رجل ولا امرأة من المشتغلين بالسياسة والمطلعين على أخبار الثورة الأمريكية الا خف الى طريق من الطرق التي قيل انه سيعبرها الى مقره أو الى البلاط ، وأقبل « الدكتور » في قبعته الفرو المعهودة والكساء الساذج يحبى المستقبلين على جانبي الطريق بابتسامته الطيبة ونظرته الوديدة في غير اكثار من الايماء والحركة ، وغزا المجتمع الباريسي من اللحظة الأولى ولا سيما مجتمع العلية وذوى الثقافة من أقطاب الآداب والفنون، وكان العصر عصر التنافس بالأندية أو الصالونات فكانت السعيدة من عقيلات النبلاء من تظهر بزيارة من « الدكتور » ومن تضمن دعوة الضيوف الكبار لمحدثته عندها حين تشاء ، وساعدته الشهرة السابقة والقدرة السهلة على كسب الأنصار والأصدقاء من ذوى الجاه والمنزلة العالية بين قادة الآراء ، وعلم أن هذا النجاح الأدبي غنيمة لا يستهان بها كائنا ما كان موقف البلاد والدواوين الرسمية ، ولكنه كان يعلم من باطن هذا الموقف أنه يناصره ويتمنى له التوفيق وانه — مع التحفظ الشديد في الظاهر — يملئ له ويعينه في الباطن ويستمله فترة من الزمن ريثما تسنح الفرصة التي يرتقبها الساسة المسؤولون ، فيعلنون الاعتراف بالدولة الجديدة آمنين عاقبة العداء الصريح للدولة البريطانية ، فان هذه الدولة نفسها ستعترف لا محالة بالحكومة الثورية متى نشت من قهرها واکراهها على الخضوع .

ولم يأت هذا الأمل المرتقب بغير عناء وبغير شك وبغير تردد مخيف بين الأمل الضعيف في النصر والخوف القوي من الهزيمة . الا أن السفير المتفائل لم ينقطع قط عن الرجاء وعن بث الرجاء في قلوب المتشائمين ، ولم يتخذ له الجواب السريع في حالة من حالات الشك والحيرة أو حالة من حالات الهزيمة الظاهرة التي تلجم الألسنة وتبلبل الأذهان . فلما قيل له يوما : ما الخبر يا دكتور ! ان هاو Howe قد أخذ فلادلفيا ... لم يلبث أن أجاب على الأثر : عفوا يا سيدى ! ان فلادلفيا هي التي أخذت هاو ..

ثم وصل الخبر المرتقب بعد عام وانهزم الجنرال برجون في ساراتوجا تلك الهزيمة المنكرة التي تقرر بعدها مكان الدولة الحديثة ، وكان وصول الخبر الى باريس في الرابع من شهر ديسمبر ودعوة الوزير فرجين Vergenne وزير الخارجية الفرنسية لسفير الثورة الناجحة بعد يوم واحد من وصول الخبر ، وطلب الوزير في هذه المرة فتح باب الكلام في المعاهدة فأرسل فرنكلين نصوصها اليه بعد يوم ، ولم يأت شهر فبراير حتى كانت المفاوضة كلها مفروغا منها وكانت المعاهدة معدة للتوقيع ، فسميت معاهدة التجارة والتحالف ، واشتملت على الاعتراف باستقلال الولايات وعلى التعهد بالاتفاق على مقاتلة بريطانيا العظمى والاستمرار في القتال الى أن يتفاهم الفريقان على قبول الصلح ، ولا يعقد أحدهما صلحا مع بريطانيا على انفراد .

وأقام فرنكلين أيامه بفرنسا خلال الحرب مخفوا بالأصدقاء والمعجبين من صفوة السادة والسيدات ، وكان قصر « باسى » الذي أقام فيه قبلة القصاد من الأدباء والساسة المقيمين بالعاصمة الفرنسية والوافدين اليها من الأقاليم أو الأقطار الأوربية ، وأقل من هذه الحفاوة الشاملة يثير حسد الحساد ويوغر صدور النظراء والأنداد ، ولكنه نجح هنا نجاحه الذي لم يسعد به قط عظيم ناجح مشهور ، فكان نصيبه من حسد الحساد أقل نصيب ، وكانت سقطاته التي عدوها عليه أهون السقطات .

من هذه السقطات انه لم يحترس كما ينبغي أن يحترس من الجواسيس والعيون ، وأفرط هنا في سجية السماحة وكراهية التضيق وأخذ الأمور كلها على هيئة وميل الى المغفرة والاعتذار ، وتفلسف بهذا التهاون كأنه يقصده ولا يقع فيه على غير علم وانتباه . فكتب الى صديقه جوليانا ريتشى يقول : أترانى لو تحققت من تجسس خادمي أستغنى عنه لهذا السبب اذا كنت راضيا عن خدماته الأخرى ؟ ولا جرم تتسرب الجاسوسية اليه من هذه الثغرة ويثبت بعد ذلك أن مساعده المقيم معه في الدار — ادوارد بنكروفت — كان في خدمة الحكومة البريطانية لنقل أخباره ومراسلاته ولو لم تكن على صلة بالسياسة والمفاوضات الحكومية ، ويشاء الحظ الحسن لهذا الرجل المحدود أن تكون معاذيره على الدوام راجحة على سيئاته في أظهر السقطات . فكم له من معذرة ظاهرة في هذه السقطة التي لا مراء فيها ؟ ... لقد كان من معاذيره أن الجاسوسية لم تضره ولم تضر دولته في كثير ولا قليل ، وكان من معاذيره انه يريد أن يعرف العالم أجمع أن قضيته بينة جلية كالشمس في رابعة النهار فلا حاجة بها الى تقية أو مداراة ، وكان من معاذيره أنه عامل نفسه كما عامل دولته في هذه السماحة التي جاوزت حدودها بغير مراء ، لأنه لم يكن يأمن على حياته ولم يكن ثمة خطر على مصالح دولته أعظم من الخطر الكبير الذي كان يترتب به حيث أقام وحيث سار أيام تلك السفارة ، ومن الحظ الحسن ولا ريب أن تحسب للانسان المعاذير كلما حسبت عليه أمثال تلك السقطات .

ويستوفى هذا السياسى الزعيم والسياسى المفاوض وظائف السياسة العامة بآرائه في شئون الحكم وقضايا الاجتماع ، وهى آراء لا تحيط بالمسائل والقضايا احاطة المذهب الجامع للقواعد والفصول ، ولكنها تعرض علينا حلا عمليا لكل مشكلة أو فكرة تجريبية عن كل واقعة ، ويؤلف منها الباحث مذهباً مجملاً اذا أراد أن يعرضها معرض الترتيب والتبويب .

ولا حاجة الى القول بغلبة الفكرة الديمقراطية على كل رأى من آرائه فى الحكم وفلسفة الاجتماع والسياسة ، فربما كانت الديمقراطية شعورا عنده قبل أن تكون تفكيراً ودراسة ، وقد كان أخوه — صاحب الصحيفة التى نشر فيها كتابته الأولى — ثائراً متطرفاً وأوشك أن يعاقب بالسجن الطويل على جملاته العنيفة ، وكانت السخرية بالأنقلاب من أوائل الآراء التى نشرها: الصبى فرنكلين باسمه المستعار بين الخامسة عشرة والعشرين ، وكان من سخرياته فى مسألة الأنقلاب أن يتخيل أسماء التوراة مصحوبة بالأنقلاب: النبلاء كاللورد آدم ، واللادى حواء ، والبارون أرميا ، والكونت حزقيال ، وكان يقول بعد نضجه وتقدمه فى تجارب الحياة ان الحسب الموروث لا يورث الخير ولا الانصاف ، وقد كره ازدواج المجالس التشريعية لأن المجلس الأعلى فى رأيه انما يختار لتغليب سلطان الأغنياء على المجتمع ، وهو لا يكره الثورة ولا يعارض حقوق الملكية ولكنه يكره سيادة الطبقة الغنية على سائر الطبقات ، ويؤمن كل الايمان بوجوب حرية التجارة واطلاق القيود للمعاملات لأنها لازمة للحضارة الانسانية لزوم حرية الفكر أو هى ألزم لها فى جملة أحوالها ، ولكنه على هذا الايمان القوى بحرية المعاملة كان يرى من حق المجتمع أن يشرف على تنظيم الملكية واقتناء الثروة لأنها كلها من صنع يديه ، فليس فى طاقة الفرد اذا انفرد بنفسه أن يحرز ملكاً مصنوعاً يزيد على ضرورات المعيشة الموقوتة ، فاذا أحرز شيئاً يزيد على ذلك فانما يحرزه بفضل المجتمع وخدماته الطبيعية أو الموضوعية ، فلا يحق له أن ينكر على المجتمع سلطان الاشراف على التنظيم والتشريع فى هذه الأمور ، وانما يشترط لذلك أن يكون كل حامل عبء من الأعباء الاجتماعية شريكاً مسموع الرأى فى شرائع التنظيم .

وليس انكاره لسيادة العلية الغنية انكاراً لرياسة العلية التى ترفعها الى مكان الزعامة فضائل العقل والأخلاق ، بل هو يذهب فى الاصلاح الاجتماعى مذهب كنفشيوس الذى يقول باصلاح الرؤساء وهم قدوة

طبيعية للاتباع والمرؤوسين ، وقدوتهم هذه هي التي تخلق العرف وتروض السواد على اتباعه وتجعلهم على حسب المعهود من عاداتهم يحذرون الخروج على العرف أشد من حذرهم دخول الجحيم حيث يلقون العقاب على الخطايا والذنوب .

وتكاد عقيدة المساواة الديمقراطية أن تكون عنده انسانية عامة لا يخصصها بوطن ولا قوم ولا قبيل ، فلما لاحظ أن العبيد المحررين ظلوا في حياة الحرية فقراء يحترفون الحرف الوضيعة عقب على ذلك قائلاً انه لا يعتقد أن العيب أصيل في الطبيعة أو دائم لا يتغير بتغير الأحوال ، وانما يرجح انه من نقص التعليم والمراة ، وأن الزنجي ذو ملكات حسنة واستعداد كامن للفنون ، ولذلك يحذق الموسيقى ويرع فيها ، ولو تعلم فنا غيرها لما قصر فيه .

ومن رأيه — بل من آرائه الكثيرة — أن الرق مفسدة للمجتمع الذي يشيع فيه ، لأنه يركن بالسادة الى الكسل ويفرى الأطفال بالكبرياء والتجبر في الأسر التي تملك الرقيق ، وقد أوصى بالاعتماد على العمل المأجور وتنبأ بشيوع ارتفاع الأجور في العالم تبعاً لارتفاعها في الولايات الأمريكية بعد الغاء الرقيق .

وكان من رأيه أن العمل هو معيار الثروة ، فليس الذهب والفضة معياراً ثابتاً لها لأنهما سلعة تتقلب بها الأسعار كما تتقلب بسائر السلع ، وانما تقاس ثروة الأمة بمقياس الأعمال التي تحصل عليها ، وليست هذه الأعمال وقفاً على الصناعات البدنية وما إليها ، بل هي تشمل أعمال الحضارة بأجمعها ، وكلما اقتدر المجتمع على توفير تلك الأعمال كانت قدرته هذه مقياساً لغناه .

ولهذا كان يشجع اصدار عملة الورق ويقول انها رمز للعمل وان الأغنياء يعارضونها لأنهم يملكون الذهب والفضة ويحبون أن يقيسوا الثروة بمقياس ما يملكون .

ولا يعادى فرنكلين صناعات الترف لأنها على اعتقاده حافز للهمم وسبيل الى دوران الثروة بين العاملين والمترفين ، ورب شلن يخرج من يد أحق يذهب الى يد عاقل أحق منه باقتنائه ، فيستفاد منه في الحالين ، وأفضل من الصناعة في قياس الفائدة على العمل أن تقوم الثروة في أساسها على المحصولات الزراعية والعمال الزراعيين .

وكان إيمانه بحق الحكم يقوم على قاعدة واحدة وهي التي نسميها اليوم قاعدة تقرير المصير . فإذا نهرت الأمة من حكومة وطالبت بحكومة غيرها فلا حاجة لها الى سند غير هذا الطلب ، ومن ثم سخرته بدعوى الدولة البريطانية أنها صاحبة الحق الذي لا ينازع في حكم الولايات المتحدة ، لأن الأكثرين من أبنائها رعايا بريطانيون ينتقلون الى تلك الولايات ، ولأن الدولة البريطانية تولت حماية الولايات من عدوان فرنسا المجاورة لها ، فكتب رسالته الساخرة بلسان ملك بروسيا وجعل ذلك الملك يدعى مثل ذلك الحق على الجزر البريطانية لأن سكانها رعايا جرمانيون انتقلوا اليها وحكمهم فيها أمراء من الجرمان ، وتولت بروسيا حمايتهم بقمع فرنسا ومجارتها حين بعد حين !

وقد كانت مبادئه الدستورية والقانونية تتسم بسمة يستطيع القارىء أن يقدرها بغير اطلاع عليها لأنها سمة الاعتدال والسماحة واجتناب الشطط في الأحكام والقاء الفروض والتكاليف على عواتق الناس ، فكان ينكر العقوبة التي تجاوز قدر الجريمة في الضرر أو قدرها في الضلالة وسوء الخليفة ، وكان يؤثر في الدستور قلة القيود والموازانات ، ولكنه لم يعلن مخالفته للمبادئ التي عارضها لأنه وازن بين دستور يصدر بالاجماع ودستور يؤيده فريق ويخالفه فريق ولو في سبيل التصحيح والتنقيح ، فرجح عنده أن الاجماع على الدستور أجدى وأثبت لدعائمه من اعلان المخالفة له في خطواته الأولى على الخصوص .

واذا كان هذا رأيه في حسم الخلاف على الرأى فحسم الخلاف الذي يريق الدماء أحق منه بالجهد والحيلة ، لأنه كان يسمى الحرب لصوصية

وغيلة ، وهكذا كان برنامج الداخلى فى سياسة الولايات ، وعلى هذا البرنامج استقامت أعماله فى كل سياسة داخلية أو خارجية ترتبط بالأمم الأخرى ، ومن عجائب دقته فى تقدير الأمور بأحوالها وأزمانها انه تنبأ عن عصبة الأمم وأن العالم ربما شهد بعد مائة وخمسين أو مائتى سنة هيئة يجتمع فيها المندوبون عن دول أوربة جميعا لفض المشكلات وتوطيد السلام ، وكان باينز Baynes ، وروملى Romilly فى شبابهما قد زاراه سنة ١٧٨٣ وتحدثوا فى مساوىء الحروب العالمية فقال فرنكلين انه يظن أن اقناع الملوك بارسال مندوبيهم الى مكان واحد لا يزال عسيرا ، وانهم مع الصبر قد يتفق بعضهم على منع العدوان ويرى الآخرون نفع هذا الاتفاق فينضوون الى الهيئة شيئا فشيئا ولا يبعد أن تضمهم الهيئة الواحدة أجمعين بعد مائة وخمسين سنة أو مائتين (١) .

وله غير هذه الآراء فى مذاهب السياسة والاجتماع خطرات متفرقة بين الرسائل والأحاديث . أما أكثرها فقد ورد مشروحا أو مقتضبا فى رسالته عن العملة الورقية ورسالته عن زيادة السكان وتعمير البلاد :

Observations Concerning the Increase of Mankind and the Peopling of Countries.

ومسحتها الغالبة عليها هذه النظرية العملية التى تتقبل التطبيق والتنفيذ فى حينها أو بعد حين ، اللهم الا خاتمة واحدة أوشكت أن تسلكه فى عداد الطوبيين الأفلاطونيين ، وذلك هى استغناؤه عن الأحزاب السياسية بتأليف حزب واحد من الشبان العزاب يسميهم حزب الفضيلة ويدربهم على نظام خاص يشبه نظام الماسونيين واليسوعيين ، ويرجو منهم لخير المجتمع ما لا يرجى من سائر الأحزاب .

والأداة التامة فى الوظائف السياسية. انما هى أدواته فى أعمال التنفيذ والتطبيق ، وهى التى تعرف الآن باسم الوظائف الديوانية ويفرق المعاصرون بينها وبين السياسة فيسمونها بالادارة Statesmanship أو بولاية

(١) الجزء الأول من كتاب علماء أمريكا المشاهير مؤلفه كروثر .

الحكم Administration ولا يعتبرونها من وظائف السياسة في الصميم فهي على الأقل شيء غير الدبلوماسية ، وغير البوليטיقا ، وغير عمل السفير وعمل الوزير وعمل الزعيم المطالب بقيادة الجماهير .

وحيثما كان هنالك تدير للتنفيذ العملى فصاحبنا فى عنصره على تعبير الغربين ، أو فى مجاله ومعدنه كما نقول نحن الشرقيين .

وليكن ذلك التدير من صناعته أو غير صناعته ، ومن مألوفاته قبل ذلك أو غير مألوفاته ، فما دام فى وسعه أن يعرف ما هو العمل المطلوب ففى وسعه أن يعرف ما هى وسائل التنفيذ وأن يدبر هذه الوسائل أصح تدير .

والادارة خطة وتنفيذ ، وليس أطبع من ذهنه على وضع الخطط وترتيب الأعمال ، ثم على تنفيذها بالأدوات اللازمة لها بغير اسراف وبغير اهمال .

وأكثر ما يصاب المديرون بالفشل من عجزهم عن الانتفاع بأدوات التنفيذ حين تكون هذه الأدوات من الآدميين !

فليس أكثر من المديرين الذين يستخدمون الوسائل الآلية ويحاولون أن يعاملوا المشتغلين معهم من الآدميين معاملة الآلات .

ولكن فرنكلين كان يحفظ هذه الأدوات الحية جيدا ويعرف كيف يسلك معها وكيف يسلك بها فى طريقه ، ولهذا كان يفلح فى كل ادارة تحتاج الى التنفيذ بالأدوات الآدمية ، ولو لم تكن من صناعته ولا من سوابق عمله كادارة معارك القتال .

أراد الجنرال برادوك Braddock قبل كارثته الحربية فى مونتجيهلا Monongahela أن ينقل معداته فى مائة وخمسين مركبة وظن أن المسألة كلها مسألة أمر للفلاحين وسوق للمركبات بالخيل ، وعنده الأمر وعنده من يسوق . فلم يحصل بعد الجهد الجهيد على أكثر من خمس وعشرين

مركبة ، وفزع الى فرنكلين فحصل له على المركبات المطلوبة كلها بخيولها قبل انقضاء أسبوعين .

وتحدث الجنرال وفرنكلين في « الخطة » الحربية فحذره فرنكلين من مفاجآت الكمائن ونبهه الى قلة جدوى الخطط النظامية في اتقاء هذه المفاجآت مع امتداد خط القتال ، فسخر منه الجنرال وقال له ان هذا الحذر ضروري للكتائب التي تقودونها من الجنود المراقبة « ولكن هؤلاء الهمج لا ضير منهم على جنود الملك المنظمين » .

ووقعت الكارثة فبادت الفرق التي كان يقودها وقتل ثلاثة وستون ضابطا من تسعة وثمانين ، وأدرك فرنكلين الخطر الداهم فجند من السكان نحو ستمائة للدفاع عن الحدود واقامة المتاريس وأصاب في القيادة حيث أخطأ القائد المغرور ، ولم يغفل عن عمل لازم في أشد أيام الشتاء وقد ناهز الخمسين ، وكان الجنود والسكان يسمونه الجنرال فرنكلين ، ثم أبى جنوده بعد عودته الى فلادلفيا أن يفارقوه حتى يؤدوا له التحية عند منزله ، وصحبوه ، كما قال في ترجمته ، الى الباب ثم أعلنوا تحيتهم بالطلقات النارية في الهواء .. فهزت الدار وحطمت أجهزة الكهرباء وهي من زجاج !

واذا كان مقام الكلام عن الخبرة باستخدام الأدوات حين تكون هذه الأدوات من الآدميين — فليس ما ينسى في هذه الحملة نفسها مشورته على الواعظ الذي شكاه الى أعراض الجنود عن حضور الصلاة والاجتماع للدعاء ، وكان من جرایة الجنود أقذاح من شراب الروم للتدفئة في الشتاء القارس ، فلما سمع شكوى الواعظ المكروب وأشفق عليه من خوفه للهزيمة بعد هذا الاعراض — تبسم مطمئنا للواعظ الخائف وقال له : لا عليك من اعراضهم . خذ على عاتقك توزيع جرایة الشراب ولا توزعها الا بعد أداء الصلاة ... فلم يتخلف بعدها جندي واحد عن موعد الصلاة !

وهذه الخبرة بالادارة فى الشئون التى لم يتدرب عليها تغنى عن الافاضة فى دقائق التنظيمات التى كان يتدعها باجتهاده كلما أدار عملا من الأعمال التى يتصدى لها أمثاله ولا تستغرب من مدير مطبعة أو مدير صحيفة . لأنها جميعا أعمال من نمط واحد ، ومنها تنظيم البريد وتنظيم الاضاءة فى المدينة وتنظيم فرق المطافئ وتنظيم مكاتب الهيئات النيابية والهيئات العلمية التى أسهم فى أعمالها ، فكل أداة لازمة لهذه التنظيمات فهى على متناول اليد من تفكيره وسجاياه : فهم صحيح ، وتقسيم متقن ، وتنفيذ مرتب ، وخبرة باستخدام الأدوات الحية والأدوات الصناعية على السواء .

« سياسى بالطبع » اذا صح هذا التعبير . والسياسى بالطبع يصنع السياسة على يديه ويصنع لكل ساعة سياستها التى تملئها الحوادث عليه .

ولا يختم الكلام عن فرنكلين السياسى قبل أن يقال ان بلاده قد أصبحت أمة متحدة بفكرة جريئة واسعة هى فكرة الاتحاد ، وقد كان فرنكلين صاحب الدعوة الأولى الى هذا الاتحاد .

الفيلسوف

كان دافيد هيوم يسمى فرنكلين الفيلسوف الأول ، ويشفع ذلك أحيانا بقوله عنه انه أول فيلسوف وجه أنظار القارة الأوربية الى عالم الفكر في الديار الأمريكية .

وكانت الأنثوية الأدبية في باريس تسميه الفيلسوف أو الدكتور ولا تردفه بالاسم فيفهم السامع أنهم يعنون فرنكلين .

وكانت كلمة « الفيلسوف » كالاسم الغالب عليه بعد عودته الى بلاده في أخريات أيامه .

ولم يكن ملقبوه بهذا اللقب مخطئين من وجهة العرف ولا من الوجهة العلمية في عصره . فقد كان فرنكلين فيلسوفا بكل معاني الكلمة الا هذا المعنى الحديث الذي غلب على الفلسفة بعد عصره وبعد شيوع التفرقة بين المعارف الانسانية ثم شيوع التخصص في كل معرفة منها . ونريد به الفلسفة التي غلبت على بحوث « ما بعد الطبيعة » وقضايا المنطق النظرى وكادت تنحصر فيها . فهذا هو مجال الفلسفة الذي لم يكن فيه فرنكلين من زمرة الفلاسفة ، ولم يرد أن يكون منها ، ولا نخاله كان مستطيعا أن يكونه لو أراد . لأنه مجال لا تألفه طبيعته ولا يألفه تفكيره ولا يرجى منه أن يأتي فيه بما يفيد .

كان فرنكلين فيلسوفا بمعنى الكلمة القديم ، وهو محبة الحكمة ورياضة النفس على اتباعها في أحوال الحياة اليومية ، ولعله عرف هذه الفلسفة عملا قبل أن يعرفها علما واطلاعا . لأنه نشأ في بيئة المتطهرين وعرف بالقدوة والبداهة أن الأخلاق المثلى نظام من نظم الحياة الدنيوية .

وكان فرنكلين فيلسوفا بمعنى يوافق معنى الكلمة الحديث ، وهو

استخراج العلل والنظريات الفكرية لكل مبحث من مباحث العلم والاختراع التي اشتغل بها منذ شبابه ، فكان يقدر الرأى والعلة ثم يبنى عليهما الاختراع ، أو كان يخترع ما يخترع ثم يعمم الرأى والعلة على التشابهات من الظواهر الطبيعية ، ولولا هذه الفلسفة العلمية لما جمع بين البرق والشرارة الزجاجية فى نظرية واحدة .

وكان فيلسوفا بمعنى الكلمة الذى شاع فى كل زمن وجعل الفلسفة ضربا من التصوف العقلى يوحى الى صاحبه التقشف والزهد فى المظاهر الفارغة التى يفتن بها المتكالبون على الحياة ، ولم يكن فرنكلين متقشفا أو زاهدا فى دنياه ، ولكنه كان يطلب الشيء لمعناه لا لمظهره ، ولأنه هو يبتغيه لا لأن الناس يبتغونه بالمحاكاة والتقليد .

أما الفلسفة التى تستغرق صاحبها فيما وراء الطبيعة وفى الجدل حول مباحثها فلم تكن من فلسفات فرنكلين ، لأنه كان ينفر من النظريات التى لا يحسها ولا يدركها ، وكان ينفر من الجدل كما قال فى مفكراته ، وإن كانت مطالعته لسقراط قد أكسبته قدرة عظيمة فى فنون الحوار ، وكادت أن تنحرف به الى شقاشق الجدل فى بواكير حياته الفكرية .

وقد اطلع فرنكلين على كتب الفلسفة التى وصلت الى يديه فى بوستون وفلادلفيا ، وقرأ منها كتاب كولنز Collins محاضرة فى التفكير الحر Discourse of Free thinking وكتاب شافتسبرى Shaftsbury بحث فى الفضيلة أو الجدارة Inquiry Concerning Virtue of Merit وكتاب درهام Derham فى اللاهوت الطبيعى Physico-Theology^(١) وغيرها من الكتب التى من قبيلها ، واطلع على أطراف من مذاهب الفلسفة الاغريقية ولا سيما مذهب أفلاطون ومذهب فيثاغوراس ، واطلع على كتب الجدل الدينى التى وجدها عند أبيه فخلص منها جميعا الى عقيدة كعقيدة أبى العلاء فى التفرقة بين الظن والعقل اذ يقول :

كذب الظن لا امام سوى العقف

ل مقيما فى صبحه والمساء

Masters of American Literature (١)

وارتأى أن قبول العقل للعقيدة هو السند الوحيد الذى يكسبها حق الايمان بها ، وأنه لا حق للاعتقاد حيث يكون العقل بلا عمل وبغير مشاركة فيه .

ودان زمنا بمذهب النباتيين ، ثم مال من مذهب النباتيين الى بقية مذهبهم فى وصايا فيثاغوراس المعروفة ، ومنها تناسخ الأرواح وتسلسل الأدوار ... وراقه أن يشبه الأدوار المتلاحقة بعمل من أعمال الطباعة التى كان يزاولها ، فقال ان الانسان طبعات متعددة تظهر تباعا فى كل جيل من الأجيال الأبدية بعد التصحيح والتنقيح ^(١) وانه يرجو أن تظهر منه طبعة مصححة منقحة بعد موته ، ويود أن يذكر ما كان حيث يكون فى مستقبل الأجيال !

وابتدأ فى الثانية والعشرين من عمره بعقيدة فى الدين لم تزل تترقى معه الى أن جاوز الثمانين ، ولخص هذه العقيدة فى رسالة من جزئين سماها أصول العقيدة وشعائر الديانة Articles of Belief and Acts of Religion لم يوجد منها غير جزء واحد هو الذى تترجم منه ما يلى تقلا عن كتاب أقطاب الأدب الأمريكى الذى سبقت الإشارة اليه ، وهذا بعض ما جاء فيها :

« وانى لأرتفع بخيالى وراء نظم السيارات ، ووراء الشمسوس الثوابت ، وأسبح فى هذا الفضاء الذى لا نهاية له وهذه الشمسوس التى يدور حول كل منها أسراب من السيارات كسيارتنا الأرضية الى غير نهاية ، فتلوح لى هذه الكرة الصغيرة التى نعيش عليها كأنها العدم حتى فى خيالى الكليل ، وأرى نفسى الى جانبها أقل من العدم فأحس أننى شئ ضئيل لا شأن له ولا خطر ، وأحس كذلك أنه لمن الغرور البالغ أن أتوهم أن ذلك الخالق الكامل يحفل بهذا (اللاشئ) الذى يسمى

(١) كتاب مشاهير رجال العلم فى أمريكا تأليف كروثر

Famous American Men of Science.

الانسان ، وانه تحقق له من الانسان العبادة ، ولكنه هو جل وعلا فوق ذلك بما لا تحصره العقول .

غير أن الناس جميعا ينطوون على شعور طبيعي يميل بهم الى القداسة أو الى التعبد لقوة عظيمة وراء الأبصار ، وقد وهب العقل للانسان بين الأحياء فارتفع به فوق سائر الحيوان الذى نعرفه فى دنيانا ، ومن ثم يبدو لى أئنى مطالب بالواجب على — كانسان — أن أتوجه بالصلاة والتعظيم الى ذلك الكائن العظيم .

« وأدرك على هذا أن الإله الصمد قد خلق أربابا لا عداد لها تعلق على الانسان علوا كبيرا وتفهم من أسباب كماله ما لا يفهم ، وتعيد اليه الشناء والجزاء على النحو المعقول .

« كما أنه بين الناس لا يبالى المصور القدير ما يلقاه من ثناء الجاهل والأطفال مبالاته بثناء العارفين وذوى الدراية بالتصوير — كذلك الأرباب التى يخلقها الآله الأعظم قد تبقى ولا تفنى ، وقد ترتفع من مقام الى مقام ، ويخطر لى أن كل رب منها له الحظ الأوفر من الحكمة والقدرة ، وأن كلا منها جعل له منظومة شمسية تدور عليها أسراب من السيارات ، والى هذا الرب الذى أبدع منظومتنا أتجه بالثناء والتقدير . لأنه خالق أن يشتمل على شئ من الطبائع التى أودعنا اياها ، ولأنه منحنا العقل الذى ندرك به حكمته فى خلقه فهو لا يزهى فى ثناء عباده ولا يرضى عن الجاهل بفضلته والاستهانة بمجده .

« وأفهم لأسباب كثيرة أنه صالح ، ويسعدنى أن أظفر بالود من كائن على هذه الصفة من الحكمة والخير والصلاح ، فعلى اذن أن أنظر فيما يرضيه وأبحث عما يولبنى منه العون والرعاية .

« وأفهم أنه يرضى عن اسعاد خالقه كما يرضى عن الاقرار بفضلته والتوجه بالدعاء اليه ، ولا سعادة فى الحياة بغير فضيلة ، فبما يرضيه اذن أن أتلقى بالفضيلة فيسعد بمخلوقه السعيد .

« ولما كان قد خلق في هذه الدنيا كثيرا من الأشياء التي لا غرض لها فيما يبدو منها غير اسعاد الناس ، فاني لأومن أنه لن يغضب على أبنائه الذين ينعمون بتلك الأشياء ويمتعون أنفسهم بالرياضات الحسنة والمسرات البريئة ، وأنه لن يكون من المسرات البريئة ما فيه ضرر لانسان.

« اننى أحبه اذن لصلاحه ، وأعبده اذن لحكمته ، وعلى " ألا أغفل عن حمد هذا الرب لأنه حقه الذى لا أملك جزاء له غيره ، وعلى أن أصحح العزم على التحلى بالفضيلة واغتنام السعادة لأرضيه بما فيه رضى » .

هذه العقيدة الساذجة مستمدة على ما يظهر من فلسفة أفلاطون الذى كان يفترض وجود الأرباب الصغار للتوسط بين إله الكون والانسان وتعليل ما يحدث في العالم من الشر والأذى ، وقد أعجبت فرنكلين في سداجة الشباب فدان بها واصطحبها في أطوار حياته يعد لها ويكملها ، ويعرضها على مقاييسه العلمية كلما تقدم فيها خطوة من الزمن والخبرة ، فأمن بخلود الروح وحسابها بعد الموت لأنه قاسها على خلق المادة فرأى أن الأرواح أحق بالصيانة والبقاء من المصنوعات المادية ، وأن الله علمنا من حكمته أنه قادر على خلق مادة جديدة لكل جسم وكل شيء ولكنه يتجنب الشتات والبعثرة ولا يصنع شيئا ليزيله ويفنيه ، فليس من حكمة القصد في الخلق أن توجد الأرواح لتؤول الى الزوال والقضاء .

وقد بقى معه من هذه العقيدة ايمانه بالله وبالروح وبالحساب وكتب خلاصة عقيدته الى عزرا ستايل في الرابع والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ أى قبل وفاته بأيام ، فقال :

« هذه عقيدتى :

« وأومن بالله واحد خالق للكون كله ، وأومن بأنه يديره بحكمته ، وأنه حقيق بالعبادة ولا شيء أرضى له من صنع الخير لمخلوقاته الأخرى .
« وأومن بخلود الروح ، وأن الانسان يحاسب بالعدل بعد موته على

ما صنع في هذه الدنيا . وهذه عندي هي أصول الايمان في الدين الصحيح وهي في موضع الاجلال عندي حيث وجدتھا في كل نحلة وملة .

« أما عيسى الناصري الذي يهكم أمر الاعتقاد به خاصة فاعتقادي فيه أن وصاياه الأخلاقية وديانته كما تركھا لنا خير ما شهدته الدنيا أو عساھا تشهده ، ولكنني أرى أنها تعرضت لمختلف التغييرات والتحريفات ، وأشك في الاهيته كما يشك معظم المخالفين الآن في انجلترا ، وإن كنت لا أقرر في ذلك عقيدة محتومة لأنني لم أدرس المسألة ولم أر ضرورة لهذا الدرس وأنا مقبل على الحقيقة أعرفھا بأهون من هذا العناء . ولست أرى ضررا في اعتقاد من يعتقدھا إذا كان لها كما هو الراجح أثر في زيادة الاحترام لوصاياه وزيادة العمل بها ، وبخاصة حين أنظر فلا أرى أن العلي الأعلى يغضب لها ويميز بين من يعتقدونها ومن لا يعتقدونها في سياسته للكون أقل تمييز . وأضيف الى هذا فيما يخصني أنني — بعد ما اخترته من كرم الله خلال حياتي هذه — لا يخامرني الشك أنه سيتولاني بمثله في الحياة الآتية ، وإن لم أكن أهلا له بعملی .. » (١) .

هذه الفلسفة الدينية ، أو هذه الديانة الفلسفية ، وافقت فرنكلين فثبتت على أصولها من الثانية والعشرين الى الرابعة والثمانين ، وحرى أن توافقه كل الموافقة وأن يطمئن اليها غاية ما يتاح له الاطمئنان في هذه الغوامض والمتشابهات . لأنها فلسفة نبئت من عقله وسليقته وأوشكت أن تنبت من كيان أعرق فيه من العقل والسليقة . فإن هذا الكيان المترن قد تمثل في بداهة حيوية عنده توحى اليه بخطة القصد في جميع الأمور . فهنا فرنكلين العالم الذي يعقل بداهة أن الطبيعة تأخذ بسنة « الجهد الأقل » The Least Action فلا تحيد المادة عن القريب وتتخطاه الى البعيد ولا تدع الطاقة موضعا لا مقاومة فيه لتمضي الى موضع تجد فيه المقاومة

(١) من كتاب الكتابات الترجمة جمع واختيار كارل فان دورن .
Benjamin Franklin Autobiographical Writings

وتتعرّض فيه بالعوارض والموانع ، وهنا فرنكلين الهادىء الرصين الذى لا يكلف نفسه ولا يكلف أحدا فى عمل من الأعمال فوق حقه من العناء وشغلان البال ، وهنا فرنكلين الفيلسوف المؤمن الذى يبنى على هذه السنة — سنة القصد — حكمة القصد الالهى التى لا تخلق الأرواح لتزليها وتفتنيها ولا تخلقها عبثا ليتساوى عندها بقاؤها وفناؤها بعد ظهورها فى عالم الحياة . ومن عجائب النفس البشرية أن المطبوعين على التهمك الذين يتهمون على كل غلو فى التفكير والاحساس هم أقرب الناس الى الوقوع فى هذا الغلو الذى يعرضهم للتهمك من أناس دونهم فى الذكاء وأصالة التفكير ، ولولا ذلك لما غلا فرنكلين فى عقيدة « الجهد الأقل » حتى طبقها على الموازنة بين الدراسة والمشاهدة بغير عناء ، ففى خطابه المتقدم يقول انه لم يجشم نفسه مشقة الدراسة فى تحقيق طبيعة السيد المسيح لأنه اذا كان سيرى الحقيقة عيانا فى العالم الآخر فالرؤية أيسر عليه من الدراسة !

وكفى بهذا حجة لمن ينفى عن فرنكلين شبهة المغالطة فى العقيدة التى استقر عليها ، فان المرء ليغالط فى كل شيء الا فى الطبع الذى يتأصل منه وراء الوعي والمشئنة .

وبديهى أن عقيدة فرنكلين هذه لم تكن عقيدة الأكثرين من الخاصة والعامة بين قومه وغير قومه ، وانه ليعلم ذلك ولا يخطر له أن يزعم ضامئ الناس بالجدل والنقاش ليقنعهم بصواب رأيه ، وليس سكوته هذا حبا للسلامة أو مراعاة لمخالفيه ، بل هو الصواب فى رأيه حين تعنيه السلامة وحين لا تعنيه ، وقد كان ينصح به أناسا لم يكن لهم عنده حق الصداقة والنصيحة ، ومنهم من تحول عن صداقته وجافاه بعض المجافاة كما حدث فى العلاقة بينه وبين الكاتب المفكر الكبير توماس بين Paine فانه قرأ كتابه المخطوط الذى سماه عصر العقل وأرسله اليه لاستطلاع رأيه ، فكتب اليه فى الثالث من شهر يوليو سنة ١٧٨٦ يقول : « ان الحجج التى اعتمدت عليها فى انكار الحكمة الخاصة — وان لم تنكر

الحكمة الإلهية العامة — لتضرب المعول في أساس كل دين . اذ لا باعث للعبادة والخوف من الجزاء أو التوسل بطلب الوقاية اذا زال الإيمان بالله يحرس ويهدى ويخص بالراضوان بعض الناس ، ولست أريد أن أناقشك في تلك الحجج وان كنت أحسب أنك تطلب هذه المناقشة ، وحسبى في الوقت الحاضر أن أقول لك ان حججك قد تبلغ من المهارة أن تقنع طائفة من القراء ، ولكنك لن تفلح في تغيير الاجماع الانساني على الشعور المتفق في هذه الأمور ، وكل ما تجنيه من نشر هذه الرسالة أن تجلب على نفسك الكراهية ، وأن يصيبك الضرر بفعلك ولا ينتفع به أحد . واعلم أن من ييصق في وجه الريح فانما ييصق على وجهه . وهب أنك نجحت فيما قصدت اليه فهل تخال في ذلك فعلا كائنا ما كان ؟.. انك قد يسهل عليك أن تعيش عيشة فاضلة بغير معونة الدين ، وأن يكون فهمك الجلي لمحاسن الفضيلة ومساوئ الرذيلة مع قوة عزمك كفيلا بتمكينك من مقاومة الاغراء والغواية . ولكنك قمين أن تعلم كم من ذوى الجهالة والضعف بين الرجال والنساء وكم من الأغرار والطائشين بين الناشئين تنفعهم بواعث الدين في اجتناب الرذيلة والثبات على الفضيلة والصبر على هذا الثبات حتى يصبح في حكم العادة التي تهم جدا في صيانتها ومناعتها ، ولعلك أنت نفسك مدين بتريتك الدينية لهذه العادات التي ترفعك بحق في نظر نفسك . وانك لتستطيع أن تستخدم ملكاتك البارعة وقدرتك على الاستدلال في علاج موضوع دون هذا الموضوع في مزالق الخطر فتحتل مكانك بين المؤلفين النابهين منا ، اذ ليس من اللازم بيننا — كما هو لازم بين آكلي البشر من الهونتوت — أن يبرهن الشاب على بلوغه مبلغ الرجال واستحقاقه للحسبان منهم باقدامه على ضرب أمه .. » (١) .

ومن الواجب في مقام التعريف بحقائق النفس الانسانية أن تفرق بين هذا الخلق وبين خلق الرياء الضعيف أو الكذب المزدول ، فليس

أبعد من الفارق بين الرياء الذى يخدم به المرء نفسه ولا يبالى منفعة الناس والايمان بالصواب الذى ينفعهم ويحق له أن يحرص عليه . ولم يعرف عن فرنكلين قط أنه كان يرأى أحدا فى عقيدة من عقائده التى يحفظها لنفسه ولا يرى من الواجب عليه أن يعلنها لغيره ، فإذا سأله سائل ذو مكانة عنده ولم يكن من الأدب فى رأيه أن يهمله ويسكت عن جوابه صارحه بما يعتقد وأبلغه عقيدته على حقيقتها ، ولو أنه كان يستريح الرياء مع أحد لاستباحه مع أبويه وهو الحريص على ارضاء الناس عامة فضلا عن حرصه على مرضاة الوالدين . فقد أبلغه أبوه ان أمه تشكو اليه أن ولدا لها يدين بمذهب الآريين وأن أخاه يدين بمذهب الكنيسة الشرقية ، وكان فرنكلين يومئذ فى الثانية والثلاثين فأجاب أباه ولم يكتم معتقده ، بل قال له ولأمه بأسلوب صراح : « ما هو الآرى وما هو تابع الكنيسة الشرقية ؟ لا أستطيع أن أقول اننى أعرف الفرق بينهما حق المعرفة ، والواقع أننى قليلا ما أشغل عقلى بالبحث فى هذه الفروق والخلافات ، وأرى أن الدين الصحيح يبنى بالخسار كلما غلبت المراسم على الفضيلة ، وأن الكتب المقدسة تؤكد لى أننا نحاسب فى اليوم الآخر على ما عملنا لا على تفكيرنا فى المذاهب ، ولن تكون شفاعتنا أننا طفقنا نصيح : يا رب يا رب ! بل يشفع لنا ما صنعناه من الخير لخلائق الله » (١) .

فمذهب فرنكلين فى كتمان عقيدته أشبه شىء بمذهب الجلة من الحكماء الأقدمين الذين كانوا ينصحون بكتمان الحقائق الغامضة عن لا يدركونها ، ولم تمنعه مخالفة السواد أن يجب اليهم التدين والاجتماع لسماع العظات وأداء الفرائض التى يعتقدونها ، وساء زمنا أن يرى سواد الناس معرضين عن الصلاة لأنه رأى منهم بوادر الاباحة والتهافت على المنكرات فشرع فى تنقيح كتب الصلوات ومذاكرة المصلحين من رجال الدين عسى أن يهتدوا الى أسلوب من أساليب الارشاد أجدى فى اقناع

(١) Franklin. His contribution to the American tradition by Bernard Cohen

شعبهم من أساليبهم العتيقة التي درجوا عليها ، وسوى بين الملل والأديان في وجوب الاحترام فساعد أناسا من غير المسيحيين على احياء شعائرهم في جواره ، وقال انه لو علم أن المفتى الأعظم بالقسطنطينية يوفد الى الديار الأمريكية رسولا من دعاة الاسلام لتلقاه بالترحاب (١) .

ومن تناسق هذه الشخصية البسيطة أنها تطرد في آرائها وخلائقها ، فما بدا منها دليل على ما استتر ، ومن عرف رأيا لها في مسألة خطيرة أو شك أن يعرف سائر آرائها في المسائل الأخرى ، وهذه الفلسفة الدينية التي آمن بها فرنكلين تغنينا عن الاسهاب في تفصيل فلسفته الأخلاقية ، بل ربما كان الأصح أن نقول ان فلسفته الدينية قائمة على قواعده الأخلاقية ، لأنه يقيم الفضيلة على قواعد المصلحة العليا : مصلحة الفرد ومصلحة النوع بأسره ، فهي مطلوبة لأنها صالحة باقية ، والرذيلة مكروهة لأنها فاسدة زائلة ، ومن وازن بين مسرات الفضيلة وآلامها خرج من الموازنة بايثارها على الرذيلة ، لأن آلام الرذيلة أكثر من مسراتها ، وكثير من مسراتها زائف مدخول يجنى الضرر على صاحبه أو على غيره ، خلافا لمسرات الفضيلة التي تصح في جوهرها ولا يخشى منها الضرر على أحد .

ولم يكن فرنكلين مثاليا حالما في رأى من آرائه ، ولكنه لم يكن كذلك من الاباحيين المستهترين بالمبادئ والقيم الأدبية ، بل كانت له خطة يروض نفسه على اتباعها ويحاسب نفسه على التقصير فيها ، وقد بلغ بهذه الخطة مرتبة الاعتدال ولم يبلغ بها مرتبة العصمة بطبيعة الحال ، فهي في شئون الآدميين ضرب من المحال .

كان خاطئا ولم يكن اباحيا ، وكان من خطايا ما عرفه الناس بغير اختياره ومنها ما عرفوه من كلامه . اذ اعترف بانقياده للشهوات في شبابه وعاب على نفسه أنه اتقاذ لهذه الشهوات حتى اندفع الى عشرة بعض

(١) كتاب برنارد المتقدم ذكره .

النساء فمن لا أخلاق لهن ولا كرامة ، وجملة ما يفهم من وصاياه ومن معاذيره في شئون الأخلاق الاجتماعية انه يحارب الفساد ويحسب منه رياء المجتمع في التمييز بين المفسدين ، فانه يأخذ المرأة بالذنب ويعفى شريكها منه ، وقد ينسى الحقائق في سبيل المراسم والتقاليد ، وعليه اللوم اذا فسد من بنيه وبناته من هو مستعد للصالح ومن هو صالح لأن يكون عضوا من أعضاء المجتمع كالعضو السليم في البنية الحية .

وقد نشر — وهو في الحادية والأربعين — نبذة في مجلة الجنتلمان عن امرأة سيقّت الى ساحة القضاء ليعاقبها على الولادة بغير زواج ، ووزرها في سوء الحظ أكبر من وزرها في سوء النية كما يؤخذ من كلامها الذي ألقاه فرنكلين على لسانها ، وهذه فقرات منه بعد مقدمته القصيرة :

« كل ما أرجوه في ضعة وانكسار أن تتشفعوا لى لدى الحاكم أن يعفنى من الغرامة التى تحكمون بها علىّ . فهذه خامس مرة — أيها القضاة الأجلاء — أساق فيها أمامكم لتهمة واحدة . وقد عوقبت مرتين لأننى عجزت في المرتين عن سداد الغرامة المقررة . وربما كان هذا موافقا لحكم القانون فلا أناقش فيه ، ولكن القوانين أحيانا تخطئ فيتقرر الغاؤها من أجل ذلك ، وغيرها يجثم ثقيلًا على كواهل الرعية في بعض الأمور فيجعل من حق السلطان أن يرفع أحكامها أو يخففها .

« فاسمحوا لى أن أقول ان هذا القانون الذى أدان به مناقض للعقل في ذاته وقاس بالنسبة الىّ خاصة من جهة أخرى — أنا التى قضيت ما قضيت من حياتى في جيرتى. غير عادية ولا باغية على أحد ، وأتحدى عداتى — ان كان لى عادة — أن يذكروا اسم رجل أو امرأة أو طفل أسأت الى أحد منهم ، فاذا تركنا قضاء هذا القانون جانبا فلست أفهم ما هي الجناية التى أعاقب عليها .

«لقد ولدت خمسة أولاد أصحاء مخاطرة بحياتى ، وقد ربيتهم بجهدى وكسبى دون أن أثقل على المدينة بمنحة أو معونة ، وكنت خليقة أن

أحسن تربيتهم فوق ما أحسنت لو لم تؤخذ منى تلك الغرامات الثقيلة التى فرضت علىّ . أفيحسب من الاجرام فى طبائع الأشياء أن أزيد عدد السكان فى وطن لا يزال فى حاجة اليهم ؟ أخال أننى أحمد على هذا ولا آلام ، وما حدث منى أننى أغويت زوج امرأة أو أغريت أحدا من الفتيان ، وما عوقبت قط على جريمة من هذا القبيل ولا اقترفت ما يشكوه أحد قط اللهم الا أن يكون مكتب العقود قد خسر الرسوم التى يتقاضاها على الزواج .

« على أننى أسأل : هل يحسب هذا من خطئى وتقصيرى ؟ اننى ألجأ الى عدالتكم وقد تفضلتم فقلتم اننى مالكة لقواى العقلية ولا تعوزنى سلامة الفكر والادراك ، واننى لأكونن على غاية من الغباء لو رفضت الزواج وآثرت الحالة التى أنا عليها الآن على الحياة الزوجية ، وقد كنت ولا أزال راغبة فى تلك الحياة ولا أشك فى صلاحى لها وحسن قيامى بمطالبها ، اذ كنت على نصيب من النشاط والقصد ولست بالعقيمة ولا بالقاصرة فى تدبير شئون الدار ، وأعود فأتحدى كائنا من كان أن يزعم أننى رفضت طلبا للزواج . بل حدث على تقيض ذلك أننى تقبلت الطلب الوحيد الذى تقدم به أول خاطب لى وأنا بعد عذراء ، ووثقت به وباخلاصه فعبث بى وهجرنى وفى جوفى جنين .

«وأرجو أن تعلموا جميعا أن هذا الخاطب قد أصبح قاضيا فى هذا الاقليم ، ولكم وددت لو كان جالسا اليوم بينكم على منصة القضاء عسى أن يوصيكم بالرفق فى توقيع الجزاء علىّ ، وكنت اذن لا أبالى أن أذكر ما ذكرت من أمره . ولكننى أقول الآن مضطرة انه ليس بالعدل ولا بالمساواة فى الجزاء ، وانه ليس من الانصاف أن يكون المسئء الىّ والمتخلى عنى والسبب الذى أوقعنى فى كل جريمة — آمننا مترقيا الى مناصب الشرف فى الدولة التى تديننى بوصمة العار والمسبة .

« ولقد يقال لى ان الخطيئة خطيئة الدين ان لم يكن لهيئة التشريع

حكم فيها . فان تكن خطيئة دين فدعوها اذن لرب الدين ، وقد حظرتهم على أن أدخل كنيستكم . فما بالكم لا تقنعون بهذا الحرمان .. »

هذه فقرات من مقاله الذى نشره فى صحيفة الجنتلمان (عدد ابريل سنة ١٧٤٧) وسماه دفاع مسز بولى بيكر ، وأراد أن يعرض فيه مظلمة من مظالم المجتمع تلام عليها المجتمعات قبل ملامة الأفراد ، وأن يقدم الاهتمام بالحقائق ودواعى الفطرة على الاهتمام بالمراسم والتقاليد ، ومن كان يحاسب نفسه بسجل يومى مكتوب عما زاد أو نقص من الفضائل المطلوبة لا يظن به أن يبيح الجماع والانطلاق من نظام الحياة الاجتماعية ، وانما هو عارف بالمعاذير حيث ينبغى أن تعرف ، وعارف بمواطن اللوم على المجتمع حيث ينبغى أن يلام .

كان خاطئا يقع فى الخطيئة ولكنه لا يبيحها ولا يعفى نفسه من الملامة عليها والعمل على استدراك جرائمها كما سيأتى فى الكلام على فرنكلين الانسان ، وكان يجب السرور ولا يرى فيه حرجا من الدين ولا من الأخلاق ، بل يراه واجبا من الواجبات التى ترضى عنه خالق الكون وما فيه من مسرة وجمال ، وشرطه فى السرور ألا يضر أحدا ولا يسف بالكرامة الى مبادئ الشهوات ، فان لم يكن فيه ضرر ولا اسفاف ولا ابتذال فهو حق للانسان بل واجب عليه .

ومما عرف عنه أنه قضى زمانا لا يذوق الخمر خفيفها ولا ثقيلها ، وكان رفاقه فى مطبعة العاصمة الانجليزية يدعونه الى شرب الجعة معهم فيأبى معتذرا ويسمونه من أجل ذلك بالأمريكى شارب الماء .. وقد نظم فى شبابه نشيدا لمجلس الشراب يشترك مع المجلس فى غنائه ولا يشترك معه فى شربه ، وما حرمها على نفسه لأنها حُرمت عليه بحكم الدين أو القانون ، ولكنه حرمها لأن سرورها مشوب غير خالص من العقبات وغير مأمون فيه أن يسترسل مع الشارب الى الافراط والادمان .

لقد كان فرنكلين فيلسوفا بكثير من معانى هذه الكلمة فى وضعها الأول ووضعها الحديث :

كانت له عقيدة مفكر في الدين ، وكانت له نظريات باحث في العلم ، وكانت له مبادئ مبتدعة في السياسة ، وكانت له آداب مرعية في نظام المعيشة ، وكانت حياته الخاصة والعامة مدروسة من الوجهة الفكرية مروضة من الوجهة النفسية ، وبعض أولئك كليل بحساباته في زمرة الفلاسفة المعدودين . الا أنه فيلسوف يصعب على مؤرخي الفلسفة أن يضعوه تحت عنوان واحد من عناوين المدارس الفلسفية غير مستثنى منها مدرسة البرجماتية التي ظهرت في وطنه بعد وفاته بأكثر من مائة سنة وقيل عنها انها المدرسة النموذجية للأمريكيين ، وقيل عنه انه رائدها الأول من العلماء المفكرين .

نعم لا استثناء للبرجماتية من مدارس الفلسفة التي يحاول المؤرخ الفلسفي أن يضع فيها فرنكلين . لأن ميزان الحقيقة عنده غير ميزان الحقيقة في المدرسة البرجماتية ، ولأنه قد يحتوى البرجماتية ولا تحتويه . وانما تزول هذه الصعوبة اذا أردنا أن نضع الفاصل بين فرنكلين وبين كل مدرسة فلسفية أو دعوة فكرية . فحيث لا عمل لا فلسفة لفرنكلين ، وحيث لا توجد الفكرة المفهومة فلا عمل كذلك لفرنكلين . وبهذا ينفصل أحيانا عن الواقعيين كما ينفصل عن المثاليين ، وأصدق ما يكون تعريف الفيلسوف هنا تعريف الانسان في مذهب أرسطو ، وهو الحيوان الناطق المدنى بالطبع ، فهو حي يفكر لا ينسى وشائج القربى بينه وبين أبناء نوعه ، وذلك هو فرنكلين الفيلسوف .

وذلك أيضا هو فرنكلين الانسان .

الإنسان

دنيوى .. عصرى .. انسانى .. نفعى .. ساخر .. طينته عادية ..
مستر أمريكان !

هذه كلمات وصف بها فرنكلين ، وأراد واصفوه بها أن يحصروه
في قشرة بندقة كما يقولون في اصطلاحات الغرب ، فأصاب كل منهم
اصابة لا خلاف عليها ، وأخطأ كل منهم خطأ لا بد أن يستدرك عند
الاحاطة بصفات فرنكلين .

كل صفة من هذه الصفات لا تنبذ مرة واحدة ولا تؤخذ مرة واحدة .
فهو في الحق دنيوى ، وعصرى ، وانسانى ، ونفعى ، وساخر ، وطينته
عادية ، ومستر أمريكان .. وهو غير ذلك استدراكا على جميع تلك
الصفات .

ان الذين وصفوه بأنه دنيوى أرادوا كلمة Secular ، وهى تعنى أنه
رجل واقعى عملى يقيس الأمور بما يحسه ويختبره ، وأنه في خلائقه غير
الرجل الصوفى الذى يعيش بين الشهود والغيب ويخوض في أعماق
الخفايا والأسرار ، وغير الرجل الذى يطيل النظر فيما وراء الطبيعة
وما وراء هذه الآفاق المدركة بالحواس والعقول .

وكذلك كان فرنكلين في رأى جميع عارفيه ومترجميه ، ولكنهم عند
اطلاق هذه الصفة على فرنكلين ينبغى أن يوسعوا آفاق الدنيا حتى تتسع
لكل شواغله العقلية والعلمية وترجع بحدودها أفقا وراء أفق حتى تصبح
أوسع وأكبر من آفاق كثير من الحالمين المحسوسين من الخياليين . فلم يكن
هنالك شيء دنيوى لم يكن دنيويا فيه ولم يكن حاضرا بين أعماقه
وآفاقه ... وليس كذلك كل الدنيويين .

وقد كان فرنكلين عصريا في نظريته الى أحوال زمنه ، وهذا وصف

صحيح ينطبق عليه كل الانطباق ، فلم يكن في عقله بقية من بقايا الزمن السالف تحول بينه وبين النظر المستقيم الى أحوال عصره ، ولم يكن في عقله هوى من الأهواء الغالبة يشط به الى المستقبل البعيد فيفهم الوقائع معلقة على شيء في الغيب المجهول : كان ينظر الى عصره ويراه بغير حجاب من بقايا الماضي ولا أحلام المستقبل ، وعلى هذه السنة بعينها يصبح عصريا بينما لو عاد الى القرن العشرين .. وقد كان هو يتمنى لو يتاح للمرء أن يعاود الدنيا بعد الموت فيراها عصرا بعد عصرا أو عصورا بعد عصور . ونظاله لو عاد الى الدنيا كما تمنى لما أدهشه شيء مما وقع فيها خلال هذه الأجيال ، الا أن تكون دهشته للسرعة والكثرة لا للجوهر واللباب . فما من شيء حدث لم يكن عنده محتمل الحدوث ، وما من نقيصة انسانية كان في ظنه أنها ستزول خلال هذه الأجيال ، ولا استثناء في ذلك للحروب العالمية ، لأنه قدر لاتفاق الدول على اتقائها مائة وخمسين سنة أو مائتين . ولا يخفى أن الاتفاق على الاتقاء غير الاتقاء الناجح وغير المنع في الواقع . فليس في العصر الحاضر ما لا يكون فرنكلين «عصريا» فيه بعد بضعة أيام ، لو عاد .

وكان انسانيا ، أو كان انسانا من فرعه الى قدمه ، فلا همجية ولا وحشية ولا ادعاء للكمال والنزاهة « الملائكية » .

انسان معتدل ، لا ملك ولا شيطان ، ولا همجية تنبؤ عنها الانسانية المهذبة المتحضرة ، ولا وحشية تنم على النكسة في خلائق الانسان .

انسان بفوائده وانسان بعيوبه ، ولكن الصفة هنا لا تكفى وحدها ولا تزال كغيرها من الصفات بحاجة الى استدراك . فاذا كان الرجل انسانا بفوائده وعيوبه فليس معنى ذلك انه انسان كسائر الناس أصحاب الفضائل والعيوب ، لأنه كان يعمل مع الفطرة في تكوين فضائله وتثبيتها ، وكان يتيقظ لعيوبه ويجاهد ما استطاع في اصلاحها ، وكانت الأعذار الى جانب عيوبه أرجح وأقوى من دواعي اللوم والزلل ، ويصدق هذا على أكبر السقطات كما يصدق على الهفوات الصغار .

فمن سقطاته المعيبة تلك العلاقات المريبة بينه وبين بعض النساء في شبابه ، ومنهم « دبورا » التي تزوج بها بعد معاشرة لها بغير عقد ديني أو عرفي وبغير تسجيل معترف به على نحو من الأنحاء .

وقد لقي جزاءه على هذه السقطات ، لأن ابنه من احداها — وليام — خذله وخذل قومه وانقلب على قضية الاستقلال ولاذ بالبلاد الانجليزية بعيدا من أبويه وذويه ، وعاشت « دبورا » مهملة من جانب المجتمع بعد نباهة فرنكلين وارتفاع شأنه ، فكانت كل دعوة الى محفل من محافل الدولة أو الأمة تذكره بتلك السقطة وتنقص عليه حياته وحياة زوجته .

ولا يهم المؤرخ هنا هذا التفكير الذي لا يد له فيه ، ولكنه يهمه أن يثبت ما له وما عليه في هذه السقطات . فقد كانت هذه السقطات كأمثالها من سقطات الناس في الضعف والغواية ، ولكنها لم تكن كسقطات الناس في المعاذير وجهود الاصلاح ، ولم يكن كل ذى سقطة قادرا على أن يتشفع أمام عدالة الضمير بأعذار كأعذار فرنكلين ، وجهود كجهوده في اصلاح الخطأ والصبر على تنعاته مختارا بغير اكراه .

لقد كان من معاذيره شدة النفور في عصره من سلطان الكهنوت على جميع المذاهب ، وكان من أسباب ذلك النفور الشديد بين المتحررين خاصة افراط المتعصبين في الخرافة وتصدى الجهلاء من رجال الدين للحكم فيما يجهلونه والاستهانة بالأرواح البريئة في سبيل العصبية التي كانوا يسمونها غيرة دينية أو حماسة روحية ، وقد كانوا يتوهمون السحر في كل مشتغل بالعلم ويحرقون الساحر والساحرة لأنهما من حلفاء الشيطان «محتكر» العلوم السوداء ، على ما توهموه وتوارثوه بالتقاليد.

ومن السهل أن تتخيل شعور الرجل المطبوع على البحث العلمي نحو هذه السلطة ، فإن « رد الفعل » أمامها خليق أن يذهب من النقيض الى النقيض ، فيمرق من سلطانها مروق التحدى والاصرار .

ومما يشفع لفرنكلين في سقطته أن « دبورا » لم تكن من النساء

المتبذلات ، وأنها لما تركها فرنكلين ليسافر الى لندن تزوجت من رجل آخر ولبثت على ذمته الى أن عاد فرنكلين من رحلته ، ولما أراد أن يصحح خطأه ليتزوج منها حال العقد القائم بينه وبين اتمام عقد الزواج حتى ثبت وفاة الزوج الأول ، وكان في وسع فرنكلين — وقد اشتهر وارتفع في سلم المجتمع — أن يتخلى عن هذه المرأة الجاهلة الفقيرة المهملة في حساب الطبقة العالية وفي حساب المتدينين من جميع الطبقات ، ولم يكن عسيرا عليه أن يختار له زوجا تساعد به الأسرة الاجتماعى ولا تقف في سبيله عقبة دون المناصب العليا بقية حياته ، ولكنه صنع الواجب الذى أوحاه اليه ضميره وأكثر وحى الضمير على المصلحة وحب الوصول.

وتستدرك صفة الانسانية اذا نسبت الى فرنكلين على غير الوجه المتقدم في معانيها الكثيرة .

فقد كان من معانى الانسانية ايمان المرء بخير الانسانية ورفضه كل عقيدة دينية غير العقيدة الموضوعة ، وكان فرنكلين يؤمن بخير الانسانية ويعمل له ويسوى بين الناس جميعا في الأخوة البشرية ، ولكنه لم ينكر وجود الاله ولا وجوب الاقتداء بفضائل السيد المسيح .

وكان من معانى الانسانية حب المسالمة وطيبة القلب ووداعة الأخلاق وفرنكلين كان ولا ريب مسالما طيبا وديع الأخلاق ، ولكننا نجهله اذا فهمنا من المسالمة انه كان يفرق من العداوة ويتجنبها بكل ثمن وكل وسيلة . لقد كان حقا يكره المعادة ولا يستشيرها ، ولكنه كان اذا جاءته العداوة الى باب داره بغير داع ولغير مساءة منه لم يجفل منها وأهملها ذلك الاهمال الذى يلهب الغضب ويؤجج سكير الحسد ويغنيه عن الانتقام ، ولم يمزح حين قال ان الانتقام الحسن من حساده وأعدائه انما هو الاستزادة من أسباب حسدهم وعداوتهم ، وانه في غنى عن مقابلة الحسد بالانتقام لأن حساده ينتقمون له من أنفسهم ، فقد كان حقا يؤمن بهذه الفكرة كأنها فكرة علمية مقدرة بنتائجها موزونة بميزانها ،

فهو الرابع اذا تقدم ونجح وحساده هم الخاسرون اذا حسدوه على التقدم والنجاح .

والذين قالوا عنه انه « نفعى » لم يظلموه فتيلا بالمعنى العرفي أو بالمعنى الفلسفى الذى يطلق على مذهب النفعيين Utilitarianism ، ولم يقولوا عنه ما ينكره لو سمعه ، ولا ما يستنكره الناقد الأخلاقى على اطلاقه ، الا أن تكون النفعية على حالتين : احدهما أن يستهين المرء من أجلها بكل قيمة أخلاقية ، والأخرى أن يقدم منفعته الشخصية على المنفعة العامة أو على المنافع التى اصطلح عليها نوع الانسان ، كائنا ما كان موضوع النفع الانسانى من الماديات أو الروحيات .

وليس فى مقدور عدو من أعداء فرنكلىن أن ينسب اليه حب المنفعة على حالة من هاتين الحالتين . ولا نعيد هنا ما ذكرناه — فى الكلام على فرنكلىن العالم — عن زهده فى جميع المنافع التى تعود عليه من تسجيل اختراع الموقد المعروف باسمه ، ولا عن زهده فى مكاسب المخترعات الأخرى ، ومنها الشائع المتداول كالنظارات وأعمدة الصواعق ، ولكننا نذكر مواقفه فى الأعمال الوطنية التى لا تخفى عليه عواقبها وهو من هو فى كياسته وبعد نظره واختباره للطبائع البشرية وتجاربه لحظوظ العاملين من العرفان بالجميل . فقد كان ينوب عن بعض الولايات فى لندن ليعرض على حكومة الدولة وجهة نظر الولايات ويقضى لها مصالحها فى دواوين الرئاسة ، وكان يعلم ان اغضاب رؤساء تلك الدواوين يززع مركزه عند الولاية التى ينوب عنها لأنها لا ترجو نفعا من وكيل ينفر منه الرؤساء ويوصدون فى وجهه أبواب الشفاعة والوساطة ، فلم يمنعه علمه بذلك أن يغضب الرؤساء كلما وجب أن يخاطبهم بالحق الصراح الذى لا يقبلونه وأغضبهم فعلا مع اشتهاره بالمسألة والقدرة على القول اللين والعبارة السائغة ، ولما حافظت الولايات على وكالته واستجيت من جزائه بالفصل على أمانته وحسن خدمته أعفاها هو من ذلك الموقف الحرج واستعفاها باختياره ليفتح أمامها باب الانتفاع بوساطة وكيل غيره ، وقد ظهر فى

أخريات حياته وبعد مماته أنه كان يحتاج الى اتفاق المال لخدمة المصلحة الوطنية ويستبطن الاجراءات التى لابد منها لاقناع المراجع المعتمدة بضرورة اتفائه وارساله ، فينفقه من ماله الخاص وتنقضى السنون ولا يتمكن من استرداده وهو خارج بلاده . ثم يعود الى بلاده وقد تغير الحكام والنواب وتتابع الشواغل المستحدثة كل يوم من أيام الاستقلال الأولى ، فيلوذ بالصمت ويترك ما أنفقه غير مقتصر فى المصالح الوطنية الجديدة التى توكل اليه .

والسخرية التى ألفها الأصدقاء والشعراء من كلام فرنكلين وكتابه سمة أدبية ونفسية فى وقت واحد ، وقد تلحق بطبيعته الواقعية النفعية التى تعرف الناس حقيقتهم وتعرف الرياء والصدق من دعاويهم ولا تنتظر منهم فى الدين والدنيا فوق طاقتهم ، وهى أشبه بابتسامة الأب لطفله الذى يريد أن يراوغه ويحتال على خداعه وهو لا يحتاج منه الى الخديعة لاستجابة رجائه أو قبول معاذيره . وقد أثرت لفرنكلين سخریات تضارع سخریات فولتير الفرنسى وسويفت الايرلندى وهما علمان من أكبر أعلام النقد الساخر فى الآداب الغربية ، ولكنها سخریات سليمة من طعنات فولتير المناضل ووخزات سويفت السوداء الناقم ، وليست له سخرية يفارقها العطف على المعارضين والموافقين كتلك السخریات المسمومة التى تتخلل كتابات سويفت كثيرا وتتخلل كتابات فولتير من حين الى حين .

والطينة العادية من الصفات التى تكررت فى تراجم نقاده ومؤرخيه . ولا كذب فى وصف النقاد والمؤرخين ، وانما الكذب — أو الخطأ — فى تقدير هذه الطينة العادية التى خلق منها هذا الرجل العظيم .

ان اللبنة طينة عادية ، والقصر الذى يبنى باللبن طينة عادية ، ولكن القصر واللبنة شيان مختلفان .

ان الرجل الذى يكون « عاديا » فى ملكة واحدة يقال بحق انه من طينة عادية .

ولكن الرجل الذى يكون عاديا فى عشرين ملكة وفى كل ما تصدى له من الأعمال والأفكار لا يحسب انسانا عاديا نراه بيننا كل يوم .

ان الوسط فى القوة البدنية وسط .

ولكن الوسط فى القوة البدنية وفى القوة الفكرية ، وفى القوة الخلقية ، وفى قوة التفكير حين تتجه الى العلم وحين تتجه الى الأدب وحين تتجه الى السياسة وحين تتجه الى الحياة العامة ، لا يقال عنه انه وسط ولا انه فى مرتبة من العظمة الانسانية دون مرتبة العظماء المرتفعين المحلقين فى جو واحد من أجواء القدرة والكفاية .

وهذه عظمة أحب الى الناس ، وينبغى أن تكون أحب اليهم وأنفع لهم وأولى بالكتابة عنها لطلاب القدوة والحوافز النفسية ، فان الاقتداء بالعظمة المحلقة فى السماوات يئس من يلمس جنبه فلا يجد فيهما الجناحين القادرين على التحليق ، ولكنه اذا رأى أمامه عظيما يمشى على القدمين فى كل طريق يعبره أمثاله لم يئأس من الاقتداء والمشابة ، وان لم يكن مثله وسطا فى عشرات من الكفايات والملكات .

طينة عادية نعم .. وهذه هى العظمة التى يفهمها العاديون فى جميع نواحيها ، وتتعت حولها الصلة المحكمة بين العظماء من بنى الانسان وغير العظماء .

« والمستر أمريكان » أحدث ما وصف به فرنكلين الانسان فى كتابات المعاصرين .

والذين وصفوه بهذه الصفة يعنون أنه أول نموذج للأمريكي من الأمريكين ، وأنه لو عاد الى الحياة اليوم مع رهط من زملائه آباء الاستقلال لم يستغربه أحد ولم يستغرب هو أحدا ممن حوله ، وقد تحيط الغرابة بين الأمريكين المعاصرين بواشنطن وآدمز وهاملتون وجفرسون وسائر القادة المدنيين والعسكريين .

وهذه الصورة صحيحة في مجموعها في انتظار التكملة اللاحقة بها
كجميع تلك الصور التي أريد بها حصر الرجل في قشرة البندقة .

والتكملة التي تلحق بهذه الصورة أنه اذا عاد الى الحياة عاد كما
كان في أيام الحياة : مستر أمريكان في إنجلترا ومستر أمريكان في فرنسا
ومستر أمريكان في أمريكا .. ومستر آدم مع هذا حيث كان ، لا يحس
القلق والغربة في بيئة ينتقل اليها ويقيم فيها ، فهو أمريكي مستريح بين
الأمريكيين وأمريكي مستريح بين الفرنسيين وبين الانجليز وبين من شاء
من العالمين . فاذا أراد أحد بقوله عنه انه « مستر أمريكان » أن يصبغه
بصبغة خاصة تلائم هذه البيئة ولا تلائم تلك فهذا هو موضع النقص
في التصوير .

كان دنيويا عصريا انسانيا تفعا ساخرا من طينة عادية ، ولم تكن فيه
صفة من هذه الصفات تناقض الأخرى أو توضع لاستثناءها واقصائها .

وكان انسانا لا تنتظر منه الخوارق ، ولكن الخوارق التي جاءت منه
أنه كان وسطا في أشياء كثيرة ، فكان عظيما لهذا التوسط القليل النظير .
وكانت ملكة العالم هي الملكة الغالبة عليه كما تقدم في الكلام على
أعماله العلمية .

الا أننا نستطيع أن نقول عنه انه « انسان علمي » بمعنى غير ذلك
المعنى ، وهو تفسير كل خلق من أخلاقه تفسيراً علمياً لا يحير الباحث
ولا يدفع به في معترك النقائص والشكوك .

كل صفة فيه واقعة خاضعة للبحث العلمي والتفسير بالمبادئ العلمية
حتى الطيبة والسماحة والاعتدال .

فمن مبادئ العلم ان الطاقة تأخذ بمبدأ المجهود الأقل ، وان الأداة
المحكمة هي الأداة التي تصرف كل طاقة الى موضعها ولا تبددها .

فرنكلين كان « طيباً » علمياً ، وسمحاً علمياً ، ومعتدلاً في أخلاقه
علمياً على جميع الأحوال .

كان لا ينتقم من أعدائه ولا يضيع جهوده في الانتقام منهم ، لأنه عمل
لا حاجة به اليه .

وكان يفضل الفضيلة ويقول بعد البحث ان الخبثاء لو عرفوا فضلها
لأصبحوا فضلاء بوحى من الجبائفة ، لأن الخلق الكريم بعد الموازنة بين
الجهود الصالحة والجهود الضائعة أبقي الجهود وأنفعها وأحقها بالحرص
عليه .

وليكن ذلك صحيحا في عرف الناس أو غير صحيح ، فانما المهم هنا
انه صحيح في التطبيق العلمى كما يطبقه فرنكلين ، وفي الجهود النفسية
كما يحسها فرنكلين ، وفي هذا الانسان العلمى الذى يطبق العلم ويطابقه
باختياره وبغير اختياره .

انسان لا يحير أحدا في أمره ، ولا نخال أحدا حيره في شأن من شئون
الطبيعة الانسانية ، فهو لا يفرض على الدنيا لو نالا يراه فيها ، ولا يزال
متفتح الذهن لكل غريبة من غرائبها فلا يصل اليها أو تصل اليه حتى
يراها في موضعها صالحة لأن تقترن بالموجودات كلها في مواضعها ..
وانما تأتى الحيرة من المفاجأة ، وتأتى الغرابة من تضيق الحدود التى
تتفتح لها الأذهان ، فان بقى الذهن متفتحا بغير حدود فكل وارد ضيف
مقبول غير محتاج الى جواز « أجنبى » أو اذن بالدخول .

الجزء الثاني
من فرانكلين

يشتمل هذا القسم على متفرقات من كلام فرنكلين في الموضوعات المختلفة التي تناولها بقلمه ، وهو قسم لا غنى عنه لتمام التعريف برجل عالم كاتب مفكر لم يعمل في ميدان من ميادينه الكثيرة الا كان لقلمه نصيب واف من ذلك العمل ، وقد كتب فرنكلين في المباحث العلمية والمسائل السياسية والاجتماعية كما كتب في شئونه الخاصة التي تعنيه وتعنى ذوى قرباه ، وكان له طابعه الذى ينم على مزايه النفسية وملامحه الشخصية فى كل باب من أبواب الكتابة ، ونحن نود أن نلم بهذه الجوانب جميعا فيما نختاره من كل باب .

وسنقتبس فيما يلى نماذج من كتابته العلمية والاجتماعية ، ولكن الاستقصاء فى هذه الناحية غير مطلوب فى ترجمة عامة ، وانما المطلوب هنا أن نلم بما يعرفنا بطريقته فى البحث العلمى والتفكير الاجتماعى ، وما عدا ذلك فمكانه المطولات المخصصة لتاريخ النظريات العلمية والمخترعات التى تولدت منها ، أو الدراسات التى تشرح أطوار المجتمع ومشكلاته وآراء المفكرين فيها على التتابع أو للمقابلة بينها فى أوانها ، فاذا استطعنا فيما نختاره هنا من كتابته العلمية أن نعرف طريقة بحثه ونزق تفكيره أثناء عمله فذلك حسبنا من التعريف بهذه الشخصية فى ميدان من ميادينها المتعددة ، واذا استطعنا فيما نختاره من كتابته الاجتماعية أن نعرف ما يهمه من المجتمع وما يتوخاه من النظر فى أحواله والحكم على مشكلاته فقد تمت فى الصورة العامة ملامحها التى تصور لنا هذه الناحية من ملامحها الكثيرة .

وقد تعمدا هنا أن نترجم له دراسة علمية فى مسألة لم يحسبها من مسائله الناجحة ، أو من المسائل التى وصل فيها الى مقطع الرأى بين الآراء المحتملة ، وتلك هى المسألة التى ذكرها العالم اللاتينى القديم وسجل فيها تجربة الملاحين فى تهدئة هياج البحر بصب الماء عليه . فان دراسته لهذه

المسألة — كسائر دراساته العلمية — تستجمع أسلوبه في احصاء العوامل والفروض والموازنة بينها وتجربة كل فرض راجح منها وتقرير النتائج بمقدارها الذي حققه كل التحقيق في غير تزييد ولا انتقاص ، وتمثل فيها طبيعة التردد في قبول النتائج ما لم تكن لجامعة مانعة كما يقول المنطقيون ، وتلازمها طبيعة الأمانة التي لا يستهويها حب النجاح والرضا عن النتيجة التي يرضى عنها الكثيرون .

وتعمدنا في اختيار النبذتين الاجتماعيتين أن تكونا نموذجا لما أثر عنه من طلاقة الفكر أمام العرف الذي تقرر العادات والخرافات والايان الأعمى بظواهر العقيدة الدينية ، وطلاقة الفكر أمام العرف الذي تثبت في النفوس عصبية الأجناس مع الكراهية المتبادلة بين الأعداء المتقاتلين .

أما كتابة فرنكلين التي توسعنا في الاختيار منها فهي كتابته في التقويم وكتابه التي يجمعها عنوان الرسائل ، وكلاهما وافية بالدلالة عليه في جميع أدوار حياته وفي جميع شواغله الذهنية وخلائقه النفسية .

فتقويم ريتشارد هو الأسلوب الذي شق به طريقه في الحياة الأدبية والفكرية وقرر به مكائنه بين أصحاب الأقلام ومكائنه بين قومه على التعميم ، واستوى فيه على نهجه المختار في الكتابة بعد استقلاله بعمله واختباره للمكاته ومواهبه ومطالب قرائه ، واعتماده على ذلك النهج العملي الذي يتخذ الفكاهة طريقا إلى الجد ، والتسلية طريقا إلى الفائدة ، ولم يتغير هذا الأسلوب بقية حياته في نسق التعبير ولا موضوعات التفكير ، اللهم الا ما كان من قبيل نضج السن واتساع أفق الاطلاع .

أما رسائله فهي عنوان واحد لكل ما يخطر على البال من الموضوعات التي شغل بها في حياته العامة وعلاقاته الشخصية ، وقد شملت حياته العامة — كما تقدم — مباحث العلم ومشاكل السياسة والادارة وجهود الخدمة الوطنية في داخل بلاده وخارجها ، وشملت علاقاته الشخصية أناسا من الوزراء والشعراء ، وأناسا من العلناء ورجال الدين ، وأناسا من الجاهلاء والأغمار ، كما شملت الرجال والنساء وذوى قرباه ومن ليست له

قراءة بهم غير قراءة المودة والعاطفة أو قراءة الاشتراك في المصلحة العامة .
 ورب رسالة في مسألة علمية تتخللها نصيحة انسانية أو استطراد الى
 البراهين على وجود الله ، ورب رسالة في الدعاية تكشف عن أعماق
 نفسه من حب الخير للناس والرحمة بالحيوان في زمن لم تعرف فيه كلمة
 الرفق بالحيوان ، ورب رسالة تكتب الى احدى الصحف عن مسألة
 عارضة وتعتبر اليوم مرجعا من المراجع الهامة في تحقيق التاريخ والعلاقات
 الدولية ، ولما تخلو رسالة من هذه الرسائل على أنواعها من أسلوب
 الفكاهة الساخرة التي تسلكه مع الطبقة الأولى بين الكتاب الآخرين
 في عصره ، وتفرده بين الأكثرين منهم ببراءة الطوية من الضغن والايذاء .
 وبراءة القلم واللسان من لواذع الهجاء .

وليس ما ترجمناه في الصفحات التالية كل ما ترجم لقرنكلين من الرسائل
 أو الفصول ، ولكنه — فيما نرجو — نماذج كافية للدلالة عليه والابانة
 عن مزاياه وملكاته ، وقد يزداد عليها الكثير من قبيلها ، ولكن الزيادة
 تأتي مكررة لصفات هذه « الشخصية » التي ألمنا بها في حدود الايجاز
 والاكتفاء بالميسور .

تقويم ريتشارد المسكين

جرت عادة التقويميين في أيام فرنكلين على اصدار تقويماتهم خلال شهر أكتوبر من السنة السابقة لتاريخ التقويم ، ولما صحت نية فرنكلين على اصدار تقويمه لم يتيسر له اصداره في ذلك الوعد فتأخر الى التاسع عشر من شهر ديسمبر ، ولكنه سبق التقاويم التي ظهرت قبله الى بيوت القراء وجيوبهم وعوض ما فاتته من مسافة الزمن بالأسلوب المبتكر الذى قربته الى قلوب قرائه ، فأصبح فى صحبة كل قارئ منهم كأنه الصديق المؤمن الذى يرجع اليه للاستشارة فى مشكلات العيش كما يرجع اليه للسؤال عن التواريخ والمواقيت .

وقد سماه تقويم « ريتشارد المسكين » وصرح فيه بفقره وحاجته الى حظ من الرزق يرجوه من رواج ذلك التقويم ، فنجح فى كسب زمالة القراء كما نجح قبل ذلك فى كسب كل زمالة صالحة فيمن يلقاهم ويلقونه من الصحاب والأعوان ، ونظر اليه كل قارئ من طلاب الرزق فى القارة الجديدة نظرتة الى صاحب يعرف ما يعنيه ويحتاج الى مثل حاجته من السعى والتدبير والعمل بالتجارب والوصايا من غير من ولا استعلاء ، اذ كان القارئ يتخيل ناصحه فى صورة الزميل الذى يتلى بمثل بليته ويعرف الحكمة من ضنك الحياة ولا يدعى عرفانها من تفوق فى رأى أو مزية فى العلم والدراسة .

قال فى فاتحة التقويم الأول : « لقد كان فى وسعى هنا أن أحاول كسب الخطوة عندك بدعوى اننى لا أكتب هذه التقويمات الا رغبة منى فى خدمة المصلحة العامة ، ولكننى اذا زعمت هذا لا أخلص القول وهو من زخرف المقال الذى بلغ من يقظة الناس فى هذا الزمن أنهم لا يقبلونه... أما حقيقة الأمر على جليتها فهى أننى فقير جد فقير ، وامراتى الطيبة ،

كما أقول لها ، جد متكبرة ، وهى تهيب بى قائلة انها لا تستطيع أن تعكف على مغزلها ولا ترانى أعمل شيئاً غير النظر فى النجوم ، وتوعدتنى غير مرة أن تحرق جميع كتبى وكل ما عندى من تلك الفخاخ ، كما تسمى آلات الرصد والحساب ، ان لم أستطع أن أصنع بها شيئاً ينفع أهلى ، وقد سمح لى الطابع بحصة قيمة من الربح وبدأت من ثم فى الاستجابة لما أمرت به سيدتى .. » .

ووضحت مزية هذا التقويم من سنته الأولى على سائر التقاويم بما احتواه من حشو الفراغ ونوافل الكلمات التى لا شأن لها بالتاريخ والتوقيت ولكنها ذات شأن نافع فى التوجيه والاتفاع بالأوقات ، وعابها بعض النظراء والمنافسين على ما يظهر بما فيها من النكات والمضحكات ، فأراد فرنكلين أن يقنع قراءه بفضل هذه الزيادة وانها لا تقتطع شيئاً من حق القارئ فى الزاد المفيد بل تسوغ له مذاقه وتساعد على هضمه ، فقال فى مقدمة التقويم لسنة ١٧٣٩ : « لا تقلق أيها القارئ الرصين الوقور اذا رأيت بين عبارات الجد الكثيرة فى تقويمى هذا تنقة هنا أو هناك من أحاديث الهزل والبطالة . ففى كل صفحة طهوتها لك كفاية من اللحم للوفاء بنقودك ، وهنا وهناك قدد من مائدة الحكمة تعود مع حسن الهضم بالغذاء الجيد الى لبك ، ولكن المعدات المتعللة لا تطيق الأكل خلوا من التوابل والمشهيات ، ولعلها فى الحق لا تنفع بشئ فى غير هذا الموضع ، ولكنها تعين على تناول الطعام » .

ولم يكن تقويم ريتشارد المسكين باكورة فرنكلين فى عالم الكتابة ، لأنه بدأ الكتابة كما تقدم فى صحيفة أخيه وهو فى نحو السادسة عشرة فأتى فيها بما يفوق محصول أمثاله من خبرة العمر ودرجة التعليم ، وقد أخذ فى كتابة التقويم وهو فى نحو السابعة والعشرين بعد أن مضى عليه أكثر من عشر سنوات يمارس صناعة القلم ويكتب الرسائل والفصول ، ولكنه اختار لعبارات التقويم — أو لمعظمها — أسلوب جوامع الكلم ، وهو أدق الأساليب وأحوجها الى الفهم المستقيم والتعبير المحكم والايجاز

البليغ مع البساطة والوضوح ، فكانت جوامع كلمة في تقويماته خير دلالة على الكاتب بلفظها ومعناها ، ورسمته لمن يريد أن يفهمه رسماً لا تزيد عليه كتاباته الأخرى شيئاً غير التفصيل والتوكيد .

ففى أسلوبها اللفظى دلالة على ملكة التعبير وقدرة على النفاذ الى الجوهر واجتناب الفضول ، وفى أسلوبها المعنوى دلالة على الدراية العملية والسجية السمحة والعقل الحصيف الذى لم يقف بالمعرفة قط دون التطبيق المفيد ، فاذا صح قول القائلين ان الأسلوب هو الرجل فهو أصح ما يكون على فرنكلين ، وأصح ما يكون على فرنكلين نفسه فى « جوامع الكلم » وما شابهها من الحكمة الناجزة والخبرة المركزة ، وليس من النافع أن نطيل التساؤل عن مصدر هذه القدرة على البيان الصحيح : هل كان الفضل فيها لملكة التعبير وذخيرة الكاتب من المفردات والأساليب ؟ أو كان الفضل فيها لصواب الفهم وأصالته فى استخلاص المعانى الجوهرية من الحواشى والفضول ؟ فمهما يكن من فضل ملكة التعبير فهى لا تغنى عن صواب الفهم ، ومهما يكن من صواب الفهم فهو مفتقر الى التعبير المبين ، وجماع القول أن الكاتب أحسن تعبيراً لأنه أصاب فهماً وأصاب قبل كل شئ فى فهم رسالة التعبير وأداته وما يعينه عليه .

ونحن نتوسع فى النقل من تقويمات ريتشارد المسكين لأنه كتبها فى عدة سنوات تمتد من شببته الى كهولته ، ولأنها أدل كتاباته عليه فى جوانبه الخلقية والعقلية ، وما من صفة اشتهر بها هذا النابغة المتعدد الجوانب الا رأيتها بارزة ناطقة فى بعض كلماته التى تناثرت بين هذه التقويمات ، ويكفى أن يتصفح القارئ جملة منها لتثبت فى روعه صورة رجل معتدل المزاج سمح الطباع متزن العقل بعيد النظر صادق الملاحظة خبير بالموازنة بين الاحتمالات المتفرقة والأطراف المتعارضة موفور الحظ من ملكة التعبير فى أسلوب يجمع بين الصواب والفكاهة ، وهكذا كان فرنكلين فى جميع أطوار حياته وفى جميع ما تولاه من المهام والأعمال .

وسنكتفى من أمثاله ومأثوراته فى التقويمات بطاقة مما أورد
الأستاذ كارل فان دورن أكبر المترجمين له والمشغولين بجمع آثاره ،
ونزيد عليها قليلا مما لم يورده ورأينا فيه تلميحا لمختاراته ، ثم نختم
منتخبات التقويم بفصل عن كسب الثروة يدل على أسلوبه فى مطولاته
وفى سائر المطولات .

وهذه هى مأثوراته التى تدخل فى جوامع الكلم والأمثال :
ما تلاقى الطمع والسعادة قط ، فكيف يتعارفان ؟

* * *

الفقر يطلب بعض الأشياء ، والترف يطلب كثيرا من الأشياء ، والطمع
يطلب جميع الأشياء .

* * *

فى الدنيا سكيرون مدمنون أكثر من الأطباء المزمين .

* * *

ليست الثروة لمن حواها ، وانما الثروة لمن تملأها .

* * *

هل لك فضيلة ؟ جعلها اذن بزيينة الفضيلة وشمائلها .

* * *

ليس أحلى من الشهاد الا المال والعتاد .

* * *

الملوك والديبة كثيرا ما تتعب حراسها .

* * *

قلب الأحقق فى فمه ، وفم الحكيم فى قلبه .

Benjamin Franklin by : Carl Van Doren. (١)

ما من عدو بالعدو الصغير .

* * *

من يسرع في الشراب يبطئ في الحساب .

* * *

اصنع جميلا لصديقك كي تبقيه ، واصنع جميلا لعدوك كي تقربه
وتدنيه .

* * *

حيث يوجد الزواج بغير حب يوجد الحب بغير زواج .

* * *

من كان غنيا فلا حاجة به الى التقدير ، ومن كان مقترا فلا حاجة به
الى الغنى .

* * *

لا نستحسن من يستحسن كل ما تقول .

* * *

أسرة الحمقى عريقة .

* * *

أنظر أمام والا وجدت نفسك وراء .

* * *

تقف الأكذوبة على قدم واحدة ، وتقف الحقيقة على اثنتين .

* * *

البطء والصمت فضيلتان من فضائل الحمقى .

* * *

انكر نفسك في سبيل نفسك .

* * *

الهرم في الشباب يكون شبابا في الهرم .

السّمك والضيوف تفوح لهم رائحة بعد ثلاثة أيام .

* * *

الدهشة وليدة الغباء .

* * *

ليس للمساومة أقارب ولا أصدقاء .

* * *

من يملك الصبر يملك ما يريد .

* * *

ما من واعظ أوعظ من النملة ، وهى لا تنبس بكلمة !

* * *

لا يخلو الغائب من خطيئة ولا الحاضر من معذرة .

* * *

الفقر والشعر واللقب عرضة للساخرين .

* * *

ريفى بين محامين ممكة بين قطتين .

* * *

الحب والسلطان يكرهان الأقران .

* * *

شر دواليب المركبة أعظمها ضجيجا .

* * *

اكتب مع العلماء وانطق مع الدهماء .

* * *

إذا شئت ألا تنسى فى جدتك فاكتب ما يستحق أن يقرأ ، أو اعمل
ما يستحق أن يكتب .

* * *

لا تؤجل مسعاك الحسن ولا تكن كالقديس جورج يمتطي جواده
أبدا ولا يسير .

* * *

كما نحاسب على كل كلمة سخيفة نحاسب على كل صمت سخيف .

* * *

دع المسرات تتبعك .

* * *

الزمن عقّار يداوى كل داء .

* * *

إذا علمنا القدماء ما هو أفضل فليعلمنا المحدثون ما هو أوفق .

* * *

بيت بغير امرأة ولا وقاد ، جسد بغير روح ولا فؤاد .

* * *

لا القلعة ولا الحسناء تثبت طويلا بعد المفاوضة .

* * *

زوج ابنك حين تريد ، وزوج بنتك حين تستطيع .

* * *

افتح عينك كلها قبل الزواج ، ولا تفتحها كلها بعده .

* * *

الحمقى يبسطون الموائد والحكماء يأكلونها .

* * *

تبكير في النوم وتبكير في اليقظة صحة وثروة وحكمة .

* * *

احفظ دكانك ودكانك يحفظك .

* * *

الكيس الفارغ لا يقف مستقيما .

* * *

التجربة مدرسة غالية ولكن الحمقى لا يتعلمون في غيرها .

* * *

المفتاح المستعمل لماع .

* * *

لأجل مسمار ضاعت الحدوة ، ولأجل حدوة ضاع الحصان ، ولأجل
حصان ضاع الفارس .

* * *

نكبة الانتقال ثلاثا كنكبة الحريق .

* * *

مطبخ سمين وصية هزيلة .

* * *

ثلاثة يحفظون السر اذا مات منهم اثنان .

* * *

وهذه نماذج من حكم التقويم قد اجتهد كارل فان دورن أن يوفى
بها التمثيل لما جاء منها في التقويم على مختلف السنين ، ولكن حكم
التقويم على الخصوص كانت أكثر المأثور من كلام فرنكلين تفرقا بين
تراجمه المطولة أو الموجزة ، وإن كان بعضها مقصورا على دراساته
العلمية أو مساعيه السياسية ، وهذه طائفة أخرى منها نجعلها من هنا
وهناك لندل على ملازمتها لذكره في عصره وبعد عصره وعلى اتساع
نطاقها في الاعراب عن مختلف الأمزجة والأهواء :

* * *

من لا يقدر على الطاعة لا يقدر على الأمر .

* * *

تدبر طويلا في اختيار الصديق ، وتدبر أطول من ذلك في تبديله .

حسن يعمل خير من حسن يقال .

* * *

خير لك أن تضار مرات من أن تضير مرة .

* * *

الهمة أم الحظ السعيد .

* * *

الجهل لا يعيب الانسان كما يعيبه ألا يقبل التعليم .

* * *

بم تعبد الخالق ؟ بالاحسان الى الخلق .

* * *

اذا كان رأسك من الشمع فلا تمش في الشمس .

* * *

فضيلة وحرفة خير ميراث للوليد .

* * *

القدوة الصالحة أبلغ العظات .

* * *

لا تحكم على ثروة الانسان ولا على تقواه بسيماه في يوم الأحد .

* * *

من نام مع الكلاب تيقظ مع البراغيث (١) .

* * *

الأحمق من يجعل طبيبه وريثه .

* * *

الشجاع والحكيم يعذران حيث لا يتسع للرحمة قلب المغفل والجبان .

(١) هذه الأمثال مختارة من كتاب ريتشارد المسكين تأليف دوبرتي

الفرصة أنجح غواية .

* * *

من يعشق نفسه فليس له مزاحم في الغرام .

* * *

عين المعلم أقدر من يمينه .

* * *

ساعديني يا ذراع فليس عندي ضياع .

* * *

حراث على قدميه أشرف من سيد على ركبته .

* * *

ليس الكرم أن تجزل العطاء . الكرم أن تعطى في موضع العطاء .

* * *

أخفى الحماقات حكمة أفرطت في الدقة .

* * *

الملح مع حكماء يونان أجمل طعاما من السكر مع ندماء الطليان .

* * *

وليست هذه الحكم جميعا من ابتكار فرنكلين ، ولكنها خليفة كلها
أن تنسب اليه لأنه يصبغها بصبغته ، ويلمسها بعصاه ، ويقولها كما ينبغي
أن يقال في نظره وان جاءت قبل ذلك في معناها على لسان غيره .

وقد أشار « فان دورن » الى الحكم المستعارة من هذا القبيل فذكر
منها بعض الشواهد على منهج فرنكلين في تحويل الحكم المستعارة الى
أسلوبه وتصحيحها بذلك وفاقا لتفكيره وتعبيره ، ومنها الحكمة الايقوسية
التي تقول : « الخزنة السمان عمال عجاف » فانه يقتبس معناها فيقول
« مطبخ سمين وصية هزيلة » .. ومنها الحكمة الشائعة التي تقول :
« ثلاثة يحسنون النصيحة اذا غاب منهم اثنان » ، فانه يتعهدا بما عنده

من فرط الأناة والحذر فيقول : « ثلاثة يحفظون السر اذا غاب منهم اثنان » .

وقس على ذلك سائر الحكم من هذا القبيل وهي ليست بالكثير ، فقد حرص في كل ما أثبتته من نصائح التقويم أن يتقبلها قراؤه ويشعروا بمنفعتها وموافقتها لأحوالهم التي هي في الوقت نفسه أحواله من أكثر الوجوه ، وقد كان الأغلب الأعم من وصاياه يدور على فضيلة القصد والحزم وهما ألزم الصفات لطلاب الرزق من العصامين والغرباء الذين لم يتأصلوا بعد في البلاد ، ولعله لم يكن في معيشته قدوة في القصد والحرص على المال ، أو لعله أصاب حين قال إن القصد الذي حرمه قد تعوضه من تدبير امرأته وربة بيته ، ولكنه كتب ما يود أن يتبعه ويود كل قارئ مثله لو وفق لاتباعه ، فكان لسانا ينطق بما يجيش في كل ضمير .

قال الحكيم اللاهوتي هوثرن Hawthorne الذي خطب في ذكره (سنة ١٨٤٢) :

« أشك في أن الكشوف الفلسفية التي كشفها فرنكلين على جلالته ، أو الخدمات السياسية التي قام بها على اتساعها ، كانت تكسبه كل هذا الصيت البعيد الذي أحاط باسمه لولا تقويم ريتشارد المسكين الذي أجدى من كل عمل سواه في اذاعة ذكره بين جمهرة الناس ، فانه بكتابته تلك الحكم التي كانت تحسب من كلام ريتشارد المسكين قد أصبح المستشار الناصح الأمين لكل بيت في أمريكا على التقريب ، ومن ثم كان أعظم أعماله وداعة وتواضعا أعظمها عائلة عليه بالصيت البعيد » .

ويشتمل التقويم كما تقدم على نمط آخر من النصائح المعيشية التي تشتمل عليها التقاويم عادة ولكنها مطولة بعض التطويل يشغل بها مكان المقدمة ويتخللها بالملح واللواذع المضحكة على أسلوبه في الحكم الصغار ، ومن قبيل هذه النصائح المطولة مقاله عن « السبيل الى الثروة »

الذى أضافه الى ترجمته في طلباتها الأخيرة ، وقد احتال فيه على اعداد بعض الحكم القصار بلسان الرواية من باب المراجعة والتذكير .
قال في مقدمة التقويم لسنة ١٧٥٨ وقد سماه في هذه الفترة تقويم ريتشارد المسكين « في التحسينات » :

أيها القارئ المهذب :
سمعت أنه ما من شيء يدخل السرور على قلب المؤلف كأن يرى المؤلفين العلماء يعنون باقتباس كلامه ، ولكنه سرور قلما استمتع به ، لأننى ، وان كنت — بغير ادعاء أو غرور — قد أصبحت من مؤلفي التقاويم المعدودين منذ ربع قرن لا أجد اخوانى في هذه الصناعة — ولا أدرى لماذا — يجودون على بالثناء والتنويه ، وما من مؤلف آخر عنى بذكرى في بعض كلامه ، اقلوا لما أصيبه من الخير من كتابتى لكان نقص الثناء خليقا أن يبطى ويقتى في عضدى .

وآل بنى الأمر الى الاعتناء على قضاء الناس وتقديرهم لعملى دون غيره ، لأنهم يشتركون كئيبى وأسمع منهم من يقول حيث لا يعرفنى أحد خلال طوافى بالمدينة : « كذلك قال ريتشارد المسكين » فأشاع ذلك فى نفسى مع توالى الأيام شيئا من الرضا ، لأنه لا يدل على العناية بأرائى وحسب بل يدل مع ذلك على أنى قبل أصبحت مرجعا لهم يستشهدون به ويعتمدون عليه ، واننى لأقر هنا اننى فى سبيل الحض على ذكر تلك الحكم وتكرارها قد ظلمت استشهدت أنا نفسى بكلامى فى جد وتوقير .
وعلى هذا تستطيعون أن تقدروا مبلغ اغتباطى بالقصة التى سأرويها لكم فيما يلى :

« وقت حصانى أخيرا حيث كانت جمهرة من الناس تتجمع فى بعض الأسواق ، ولم تكن ساعة البيع قد حانت بعد فأخذوا يتحدثون بينهم عن سوء الحال وأوما أخذهم الى شيخ من عامة الجمع نظيف البزة فسأله : بربك أيها الأب ابراهيم . ما ظنك بهذه الأحوال ؟ أليست هذه الضرائب

الثقيلة وشيكة أن تفضى بالبلد الى الخراب ؟ فكيف ترانا قادرين على أدائها ؟ وبماذا تنصح لنا في أمرها ؟

فقام ابراهيم في مجلسه وأجابهم قائلا : « ان أردتم نصيحتي فما أنا ذا أمحضكم اياها في كلمات وجيزة . لأن الكلمة فيها الكفاية للعاقل ، وكثير من المقال لا يملأ المكيال كما يقول ريتشارد المسكين .. فأقبلوا عليه يستمعون اليه ورجوه أن يكشفهم بجلية رأيه ، فقال :

« أيها الصحاب ! أيها الجيران . ان الضرائب لثقيلة حقا ، ولو كانت ضرائب الحكومة وحدها هي التي نطالب بها لكان من اليسور لنا سدادها ، ولكننا نوء بضرائب شتى يتضاعف ثقلها على بعضنا .

« فنحن مثقلون بضعفيها من جراء كسلنا ، ومثقلون بثلاثة أضعافها من جراء كبريائنا ، ومثقلون بأربعة أضعافها من جراء حماقتنا ، وكلها من الضرائب التي لا يستطيع الجباة أن يخففوها عنا بالتقسيط أو النسيئة ، فعلينا اذن أن نصغى للنصيحة الحسنة ونترقب من ثم شيئا ينفعنا ، فان الله في عون من يعين نفسه كما قال ريتشارد المسكين في تقويم ثلاث وثلاثين .

« انها لحكومة قاسية تلك الحكومة التي تسوم رعاياها أن يفرغوا عشر أوقاتهم لخدمتها ، ولكن الكسل يسوم الكثيرين منا فوق ذلك لو أننا أحصينا الساعات التي ذهبت منا هدرا في التواني والتهاون لا نعمل شيئا أو نعمل ما ليس بشيء من ضروب اللهو والمجانة ، وان الكسل ليسقم أبداننا مذ كان الركود كالصدأ ييلى منها ما ليس ييليه الجهد والتعب ، ولن يزال المفتاح العامل لامعا كما قال ريتشارد المسكين . وكذلك قال اننا ما دمنا نحب الحياة فلا ينبغي أن نفرط في الوقت لأن الوقت هو قوام الحياة ، وكم من الوقت تقضيه في غير ضرورة مستسلمين للرقاد ناسين أن الشعب النائم لا يصطاد دجاجة وأن تحت التراب نوما طويلا كما قال ريتشارد المسكين .

« وإذا كان الوقت أنفُس قنية فتبديد الوقت على رأى ريتشارد المسكين أسوأ ضروب الاسراف ، ولن يعود الوقت الضائع ثانية كما قال في عبارة أخرى ، وما نسميه الكفاية من الوقت كثيرا ما ننظر فنراه دون الكفاية . فعلينا إذن أن نمضى قدما عاملين ، وأن نعمل ما ينبغي أن يعمل فننجز الكثير ولا نعاني من القلق والهَم غير القليل ، وكل شيء صعب مع التهاون والكسل سهل مع السعى والاجتهاد كما جاء في كلام ريتشارد المسكين ، ومن فاته التبكير حق عليه العناء سحابة النهار وأتى عليه الليل ولما ينجز من عمله ما ينجزه المبكرون ، وما أخرى الكسل في خطواته البطء أن يدركه الفقر على عجل كما قرأنا في تقويم ريتشارد المسكين الذى يقول هذا ويزيد عليه أن ادفع عملك ولا تدع عملك يدفعك ، وأن التبكير في النوم والتبكير في اليقظة صحة وثروة وحكمة .

« وأحسبني أسمع بعضكم يقول : ألا يجوز للإنسان أن يسمح لنفسه ببعض الفراغ ؟ فأنا قائل لك أيها الصديق ما قاله ريتشارد المسكين : أحسن استخدام وقتك ان أردت أن تنعم بقسط من الفراغ ، وما دمت لا تضمن دقيقة فلا تقذف بساعة من يدك .

« ان الفراغ وقت ينتفع به ، وفي وسع الرجل العاقل أن يجد هذا الفراغ وليس ذلك في وسع المتبطل الكسلان ، وصدق ريتشارد المسكين حيث يقول : ان حياة الفراغ وحياة الكسل شيان مختلفان . أفتحسبون ان التهاون يعطيكم من الراحة فوق ما يعطيه العمل ؟ كلا . فان ريتشارد المسكين يقول : تأتى المشكلات من الكسل وتنجم المشقة من الراحة في غير جدوى . وكثير من الناس يودون بغير عمل أن يعيشوا على حيل ذكائهم فحسب ، ولكنهم لا يجدون الخزين الكافي من هذه البضاعة ، في حين أن الاجتهاد يأتى بالراحة والوفر والاحترام . ودعوا المسرات تتبعكم والغازل الدؤوب عنده « شلة » وافية ، وإذا كانت عندي بقرة وشاة فكل غابر يقرئني التحية ، كذلك يقول ريتشارد المسكين .

وعلينا مع الاجتهاد أن نثابر وننتظم وتنبه ، وأن ننظر في عملنا

بأعيننا ولا تتكل فيه على غيرنا ، وصدق أيضا ريتشارد المسكين اذ يقول: « ما رأيت شجرة كثيرة التنقل ، ولا أسرة كثيرة الترحال ، الا كانت في ثمراتها دون زميلتها التي تنتظم على حال »

وكذلك يقول : «الاتقال ثلاثا نكبة كنكبة الحريق» ، وكذلك يقول: احفظ دكانك ودكانك يحفظك ، وكذلك يقول : ان أردت أن تنجز عملك فامض أنت وان لم ترد فأرسل فيه من ينوب عنك ، ومن أراد أن يسعد بالمحراث فلا بد له من مقاد أو سباق ، وعين السيد أفعل من كلتا يديه ، وقلة العناية أفدح ضررا من قلة المعرفة ، واذا قصرت في مراقبة صناعتك فانت تفتح كيسك لهم وتتركه ، والاعتماد الكثير على الغير يجر الخراب على الكثير ، والناس في هذه الدنيا كما جاء في التقويم لا تتحقق لهم النجاة بالثقة والاتكال بل بقلة الثقة والاتكال ، وعناية الانسان بنفسه هي المجدية عليه ، ويقول ريتشارد المسكين أيضا : المعرفة للدارس والثروة للمعتنى كالقوة للجسور المقدام ونعيم السماء للصالح الورع . أو كما قال كذلك : ان أردت لك خادما أميناً وخادما ترضاه فاخدم نفسك! . وانه لينصح بالمراقبة والاشراف حتى في صغار الأمور . اذ يحدث كثيرا أن قليلا من الاهمال يجلب البلاء الكبير ، وقد ضاع مسمار فضاقت الحدود ، وضاعت الحدود فضاقت الحصان ، وضاع الحصان فضاقت الفارس حيث أدركه العدو وقضى عليه ، من أجل مسمار في حدود حصان .

هذا في أمر الاجتهاد — أيها الأصدقاء — وأمر عناية المرء بعمله وموالاته له بنفسه ، ولكننا حريون أن نضيف القصد الى الاجتهاد اذا أردنا أن نستوثق من ثمره اجتهادنا . فان الذي لا يحسن الادخار كما يحسن الكسب يظل أنفه على المسن طول حياته ويموت وهو لا يساوي فلسا مما كسب ولم يدخر . وصدق ريتشارد المسكين اذ يقول : ان المطبخ السمين وصية هزيلة ، وكم من ضيعة ضاعت لوقتها منذ ترك النساء الغزل في سبيل الشاي ، وترك الرجال الحرث في سبيل الكأس .

وانه ليقول في تقويم آخر : ان أردت الغنى ففكر في الجمع كما تفكر في الطلب ، وما استطاعت فتوح الأسباب في أمريكا أن تغنيهم لأنهم بددوا أكثر مما غنموه .

فبعدا اذن للسرف وعاداته ، وأمانا اذن من الزمن وغدراته ، اذ لا يبقى لديكم بعد الخلاص من ربة السرف ما تجدونه اليوم من علل الشكوى والتبرم بسوء الحال وثقل الضرائب وتكاليف البيوت ، وصدق ريتشارد المسكين مرة أخرى فيما قال حيث قال : ان النساء والخمر واللعب والغرور ، تنقص من الثروات وتزيد من المطالب والحاجات ، وان تربية رذيلة واحدة تكفى لتربية طفلين ، ولعلكم تظنون حينا ان قليلا من الشاي أو قليلا من الشراب أو قليلا من النفقة يزداد على تكاليف الطعام ، أو قليلا من البذل يزداد على ثمن الكساء ، أو قليلا من الدعوات والولائم بين حين وحين لن ينجم عنه شيء كثير . فاذكروا اذن ما يقوله ريتشارد المسكين اذ يقول : حذار من تضييع القليل فان ثغرة صغيرة تفرق السفينة الكبيرة ، ومن أحب اللطائف والقطائف أقام الحجة للسائل والأفاق ، وان الحمقى يسيطون الموائد والحكماء يأكلونها ..

ولنختم الآن هذا الحديث فنقول : ان التجارب مدرسة غالية ولكن الحمقى لا يتعلمون في غيرها ، ولعلمهم لا يحسنون التعلم فيها بعد ذلك فأننا نستطيع أن نسدى النصيح ولا نستطيع أن نسدى الخلق والسجية ، واذكروا على كل حال ان الذين يتلقون المشورة لا يتلقون المعونة ، وان الذى يصم أذنيه عن نصيحة الرشد تكسر ركبته .

وهكذا ختم الشيخ حديثه ، واستمع اليه القوم وأقروا الرأى وذهبوا على الأثر يعملون بنقيضه ، كأنما كان هذا الحديث موعظة من مواظ المنابر في المعابد ، فما هو الا أن فتحت السوق وبدأ البيع والشراء حتى تهافتوا على السلع يبذلون فيها المال عن سعة ولا يبالون تحذيره من السرف وخوفهم من الضرائب الثقالة . وألفت الرجل الطيب قد وعى ما كتبت في تقويماتى وهضم كل ما دوتته فيها خلال هذه السنين الخمس

والعشرين ، ولا بد أن الإشارة الىّ كرة بعد أخرى قد أسأمت كل من
سمعتها سوى ، وإن كانت قد طابت خاطري وأرضت غروري ، مع علمي
أنتي لم أكن صاحب تلك الحكمة ولم يكن لي مقدار عشرين ، وإنما هي
حصاد الأجيال والأسلاف .

على أنتي قد عولت أن أتتفع بصداها وكنت أنوي أن أبتاع قماشا
لسترة جديدة فعدت من السوق معتزما أن ألبس سترتي العتيقة فترة
أخرى .

أيها القاريء

انك ان صنعت مثل صنيعي كان نفعاك منه مثل نفعي ، وانتني على
الدوام رهين خدمتك ..

٧ يوليو سنة ١٧٥٧ .

رسائل

تعد رسائل فرنكلين بالمئات ، نشرت في مجموعات متعددة حسب موضوعاتها أو حسب الجهات التي أرسلت إليها ، ومنها العام الذي يرتبط بالسياسة والعلم والمصالح القومية ، ومنها الخاص الذي يرأسه أهله وذويه وخاصة صحبه ، ويقصر في الأعم الأغلب على التحية واسداء الرأي في المسائل البيتية .

وكل هذه الرسائل مما يصح أن يوصف بالكتابة الفرنكلينية ، ونريد بها الكتابة التي تتسم بطابع الرجل وتنم على ملامح نفسه وعادات تفكيره ، وليس المراد بهذا أننا نقرأ الرسالة بغير توقيعها فنعلم أنها من قلمه ، فإن هذه الخصيصة ربما صدقت على الكثير من كتاباته ولكنها لا تصدق عليها جميعها ، ولكن المراد بالكتابة الفرنكلينية أننا إذا بحثنا فيها لم نخطئ فيها دلالة على خلقه أو رأيه أو شواغل عمله ، وعلى سبيل التمثيل نشير الى رسالة وجيزة مكتوبة في مسألة مألوفة في المراسلات بين الاخوة والأقارب كتبها الى أخته جين Jane أحب أخواته اليه لأنها استشارته في ارسال ابنها بينى Benny الى نيويورك ، فقال لها في أسطر معدودات: « اذا كنتم على رغبتكم في ارسال بينى فأرسلوه على أول مركب الى نيويورك واكتبوا معه سطرا موجها الى مستر جيمس باركر الطباع ... وأنا على ثقة من حسن معاملته هناك وسألتقى خبرا عنه في الأسبوع نفسه ، وأوصوه أن يكون على الدوام بشوشا مرحا مستعدا لعمل كل ما يؤمر به وكسب الرضا من كل من يعمل معه ، فهذه خير وسيلة لاقتناء الأصدقاء ، ومحبتى لك يا أختى العزيزة لحسن رعايتك لأبينا في مرضه» .

فهذه الرسالة « فرنكلين » في أكثر من سمة واحدة ، لأنه لا ينسى فيها المصلحة التي عرفت عنه في أدوار حياته من صباه الى أواخر أيامه

وهى الحرص على كسب الأصدقاء واتقاء المغاضبة والعداء ، وهى تطابق حكمته التى كررها كثيرا وفحواها أن يحسن الانسان الى الصديق ليستبقه ويحسن الى العدو ليستدنيه أو يعيده الى مودته ، وهذا مع البر بالأهل والعناية بأداء الواجب وانجاز ما يفرضه على كل من يناط به عمل يؤديه .

ومثل هذه السمة لانخطئها فى رسالة من رسائله العامة أو الخاصة ، فهى تمثله للقارئ جينا بما فيها من روح الفكاهة والسخرية الطيبة ، أو بما فيها من طبيعة المودة والمسائلة واستنفاد كل حيلة فى سبيل التفاهم والاقناع ، أو بما فيها من الدقة والتنظيم واجتناب الاسراف والفصول ، وقد كان يكتب رسائله العامة الى الصحف على أسلوبه فى أول كتاباته منذ نشأته الصحفية الباكرة ، فبعضها فى قالب الأمثال على السنة الآخرين وبعضها فى قالب العظات الفكاهية ، وبعضها فى قالب التلخيصات المرتبة كما ترتب الدروس الملخصة ، وبعضها فى قالب الحوار بين اثنين أو أكثر من اثنين ، ويجرى حوارها على نسق الحوار المعهود فى كتب أفلاطون ، آراء متتابعة تملئ ما بعدها ويأخذ بعضها برقاب بعض ، ثم تستدعى ردودها وأجوبتها كأنها تأتى من قبيل الحقائق المفروغ منها ، وهى كما لاحظ جامع رسائله الى الصحافة فيرنر كرين Verner W. Crane «مقنعة ولكنها ليست بالدرامية فى وضعها» ^(١) أى انها تقنع الفكر ولكنها لاتثير الشعور ولا تستجيش الخيال كما يحدث عند قراءة الحوار الدرامى الذى ينوع الكاتب شخوصه ويبرز فيه الأمزجة والدوافع النفسية فتستجيب لها نفس القارئ بما تثيره من دوافعه وطواياه .

وهذه الرسائل التى تترجمها مقتبسة بغير عناء فى الاختيار من أشتات رسائله الخاصة والعامة ، لا تتوخى فيها الا أن تكون معبرة عن فركلين فى عادة فكر أو سجية شعور أو طريقة عمل ، ولا حاجة الى العناء الطويل فى الاختيار لهذا الغرض لأن كتاباته كما قدمنا فركلينية بطبيعتها فى صفة واحدة على الأقل من هذه الصفات .

(١) Letters to the Press 1758 — 1775.

رد على خطباء القهوات

كتب هذه الرسالة ، بتوقيع مستعار ، الى صحيفة لندن كرونكل London Chronicle بتاريخ التاسع من أبريل سنة ١٧٦٧ ردا على خطباء القهوات الذين كانوا يحرضون الشعب الانجليزي على قمع الولايات الأمريكية وأخذها بالعنف والصرامة بدلا من الاصغاء الى مطالبها الوطنية .

قال :

« لقد كان لأئينا خطبائوها ، وقد صنعوا لها في بعض الأوقات خيرا كثيرا كما صنعوا لها الشر الكثير في أوقات أخرى ، وكان أسوأ ما صنعوه من شر على الخصوص يوم نجحوا في اغرائها بشن الغارة على صقلية فناعت بأعبائها وخسائرها وكان من جرائر تلك الحرب أن الدولة الزاهرة سقطت ولم ترجع الى ازدهارها بعد ذلك أبدا .

« وان هؤلاء الصياحين بالدهماء بين الأقدمين يخلفهم في العصر الحديث كتاب نشراتكم السياسية وكتاب الصحف وخطباء القهوات .

« ومما يلفت النظر أن رجال الجندية المنقطعين لهذه الصناعة ، وهم أناس متصفون بالشجاعة التي لا جدال فيها ، قلما يشيرون بالاقدام على الحرب الا عند الضرورة القصوى ، بينما يتعالى اللفظ بالحرب لأتفه الأسباب من أناس كأولئك الصياحين والثرثرة والمحدثين الذين هم بطبيعتهم يهابون أو بحكم أعمالهم البدنية تعوزهم تلك النخوة التي تنبعث منها الشجاعة الصادقة ، ويبدو عليهم كأنهم أشد بنى آدم تعطشا الى الدماء .

« واننا لفي هذا الزمن الذي لم نكد فيه نتنفس في أعقاب الحرب الشعواء المرهقة التي أهدرت الدماء والأموال على نحو لم يسبق له مثل في القارة الأوروبية ، نرانا أمام طوائف ثلاث من الخطباء يجتهدون

اجتهادهم في اثارتنا على أصدقائنا والاندفاع بنا الى حرب مع البرتغال وحرب مع هولندة وحرب مع مستعمراتنا .

« فأما الحربان الأوليان فليس في نيتي أن أبحث فيما تنطويان عليه من الحكمة والانصاف ؛ اذ لا أحسب أن انجليزيا يخامره الشك — اذا كان الهولنديون قد أساءوا الى أجدادنا قديما قبل مائة وخمسين سنة — أن الانتقام منهم واجب في أية لحظة كائننا ما كان مبلغ الصداقة بيننا بعد تلك الاساءة ، وأن البرتغاليين — اذا كانوا يشترون ثيابهم من الفرنسيين بأثمان أقل من أثمان الثياب عندنا — حقيقيون بأن نوسعهم ضربا حتى يثوبوا الى الصواب ويتخذوا لهم رأيا غير ذلك التفضيل والايثار .

« فاذا سلمنا أننا من القوة والبأس بحيث تقدر على ضرب هولندة والبرتغال معا ، لسبب أو لغير سبب ، ومعهم أصدقاؤهم الذين ينتصرون بهم أو بمعزل من أولئك الأصدقاء ، وعلينا أعداؤنا الذين يستثيرهم ذلك الصنيع أو بئامن من الأولئك الأعداء ، وسلمنا كذلك أن الهولنديين أيضا خليقون أن ييضوا لنا بالنفقات اللازمة للقتال — اذا سلمنا ذلك جميعا فلا غرض لي الا أن أضع بين يدي ذوى النظر ، بكل خشوع ، فرضا يخطر على البال ؛ وهو أن تكون لنا على تلك الفروض وسيلة أخرى لفض الخلاف بين وزرائنا الأسبقين ومستعمراتنا بوسيلة غير قطع الرقاب!

« وكل خطوة تقودنا الآن الى السخط على أمريكا : تتطير النشرات والصحف ويضج خطباء القهوات بالأكاذيب التي تقول عنها انها ثائرة عاصية ، وتستدعى القوة والأساطيل والجحافل للذهاب اليها ، وما يوجد منها هنالك ينبغي أن يستدعى من الأرجاء النائية لاحتلال العواصم الكبرى ، وينبغي كذلك أن يساق رؤوس القوم الى البلاد الانجليزية لتعليقهم على المشائق وما شابه ذلك ... ولماذا كل هذا ؟

لماذا ؟ أتسأل لماذا ؟

نعم . أرجو أن يؤذن لي أن أسأل : لماذا ؟

وجواب لماذا هذه أن القوم ييغون اسقاط الحكومة في هذه البلاد
واقامة أنفسهم في مقامها .

فكيف بدأ ذلك كذلك يا ترى ؟

تقول : كيف بدأ ؟ أليسوا جميعا يحملون السلاح ؟

تقول : كلا . بل هم جميعا في سلام .

— أفلم يمتنعوا عن أداء التعويض للمصابين في حوادث الشغب
الأخيرة كما طلبت الحكومة هنا ؟

— كلا . بل هم قد بذلوا الترضية الوافية ، وهي — على فكرة —
ترضية لم تبذل هناك لضحايا الشغب الذي حدث منكم هنا .

— أفلم يشعلوا النار في دار المكوس والجمرک ؟

— كلا . ان القصة كلها أكذوبة ملفقة لا أصل لها على الاطلاق .

— أفلم يتمردوا على القانون البرلماني الذي ينص على ايواء الجنود؟
أفلم يرسلوا الى الحكومة هنا طالبين الغاء الحجر على تجارتهم والغاء
قانون الملاحة بهذه المثابة ؟

— ان الجمعية في ولاية واحدة — ولاية نيويورك — هي التي
أنكرت ذلك القانون ، وان بعض التجار في تلك الولاية هم الذين
اجترأوا على ذلك الطلب . فاذا سلمنا أن الانكار والطلب خيانة عظمى ،
فهل نسلم أن خمسا وعشرين ولاية تعاقب بجزيرة ولاية واحدة ؟

هلموا ننظر في سكون في معنى ذلك القانون ومعنى انكاره ومعنى
الطلب من أولئك التجار .

ان القانون قد صدر من نفس الادارة التي أصدرت قانون الذمغة ،
ولعله قد أريد به تيسير ارهاب الولايات لاختضاعها لحكمه ، ولهذا
اشتملت نسخته عند تدوينها لأول مرة على فقرة تخول ضباط الجيش

أن ينزلوا الجنود فى المنازل الخاصة بأمريكا ، ولما عورضت هذه الفقرة أشد المعارضة انتهى الأمر بحذفها والاكتفاء باستئجار المساكن الخالية والأبنار (مخازن الغلال) لايواء الجنود حيث يزودون بالوقود والمصاييح والفراش وأدوات الطبخ وتهيئة الطعام ، مع خمسة أكواب من الجعة أو السدر أو نصف كوب من شراب الروم لكل جندى كل يوم ، وبعض أشياء أخرى لا تؤدى أثمانها جميعا بل تتكفل بها خزانة الاقليم . وما من وسيلة فى الاقليم لجمع المال غير اصدار قانون من مجلس الولاية يوجب تحصيله ، وعلى هذا وجب أن ينظر الى الأمر على اعتباره قانونا صدر هنا ليعززه قانون يصدر من المجالس الأمريكية ، وقد ارتاب بعضهم فى صواب هذا الاجراء لأنهم يرون أن المجالس فى أمريكا انما هى برلمانات صغيرة وليست هيئات تنفيذية أو ديوانا من دواوين الحكومة يعمل عمله تنفيذا للأمر الذى يصدر اليه ، فانما هى هيئات مشورة وإبداء آراء ينظر أعضاؤها فيما يعرض عليهم ليتدبروا منافعه وضروراته ووجوه الصواب والامكان فيه ثم يقرروا ما يقررونه حسبما يرونه ، فاذا أكرهت هذه المجالس على سن القوانين ، على صواب أو على خطأ — اطاعة لتشريع تمليه عليها هيئة تشريعية أخرى فلا تقع لها باعتبارها هيئة نيابية ولم تبق لها صفتها ولا حقيقة كيانها . والحق أن القانون البرلمانى نفسه يلوح عليه أنه أحس ذلك لأن القوانين الأخرى التى تفرض الواجبات على الأشخاص تنص على عقوبة الرفض والاهمال وعلى الطريقة التى تتبع فى تنفيذ تلك العقوبة ، ولم يرد نص كهذا — ولا يعقل أن يرد — فى مثل هذا القانون البرلمانى عما يطلب من مجالس الأقاليم ، فوقع فى حساب الأمريكين أنه طلب تنظر فيه المجالس لتقرره أو لا تقره ، كله أو بعضه ، حسب اختلاف الأحوال بين الأقاليم ، ومن ثم قبلته ولاية بنسلفانيا حيث يقل عدد الجنود على العموم ، ولم تقبله ولاية نيويورك حيث تعبر الجنود جيئة وذهابا عدة مرات بين بريطانيا والولايات الفرنسية ، وحيث يشعرون بثقل العبء عليهم من جراء تنفيذه ، ولهذا

قبلت الولاية جزءا من الطلب ووجهوا خطابا الى حاكمهم سردوا فيه أسبابهم بأسلوب ملؤه اللطف والاحترام .

وان كثيرا من الناس ليبذو لهم أن هذا القانون خطأ على التحقيق . اذ ليس من اليسير توضيح سبب حسن لانزال الجنود في مكان من الأمكنة بين مستعمرات الملك جميعا لتزويدها بشيء ما في مقابلة لاشيء! .. انهم يصطحبون معهم صرافا على الدوام ، فلماذا لا يؤدى الثمن لكل ما يحصلون عليه ؟

ان هذه التكاليف عبء يفرد بحمله الاقليم الذى يتفق أن يلقى عليه، وهو من ثم غير عادل وغير سواء ، وفي بريطانيا يلقى هذا العبء على أصحاب الخانات ويعتبر كالضريبة التى تفرض على أرباب هذه الصناعة، وفي وسعهم تعويض الغرم بزيادة الأجر على النزلاء وتوزيع الضريبة بهذا الأسلوب على نحو أقرب الى المساواة ، ولكن الولاية التى يتفق أن تتعرض لهذا الغرم لا تستطيع أن تلقى على ولاية أخرى معفاة منه بحكم موقعها .

الا أن خطباءنا — خطباء القهوات — ينظرون الى المسألة نظرتهم ويقررون أن هذا الانكار الموافق لمجرى القانون عصيان يعاقب بما يلائمه . وانه لخليق أن يكون اجراء نادرا ذلك الاجراء الذى يجعل القانون يفرض شيئا جديدا ولا يقرر وسيلة تطبيقه ولا العقوبة التى تترتب على مخالفته ثم يأتى بعد المخالفة فيقرر هذه وتلك . فتلك فيما أرى أول سابقة من نوعها في شئون التشريع ولا تحسب في باب الشرائع كما تحسب في باب الفخاخ التى تنصب للرعايا ليقعوا فيها . وكذلك يكون عصيانه ضربا جديدا من العصيان . اذ كان المفهوم من العصيان دائما أن يفعل الانسان شيئا ... وهذا عصيان يقوم على أن المرء لا يفعل شيئا من الأشياء . فان كان كل انسان يهمل شيئا في قانون ما أو يدع تنفيذ ذلك القانون يحسب ثائرا عاصيا ، فانتى لأخشى أن يكون عدد الثوار بيننا أكثر مما نحسب ، ومنهم ، ولا نحصيهم ، أولئك الذين أهملوا

تسجيل أوزان الأطباق وسداد الضريبة عنها ، وهم فيما أظن غير قليلين ،
ويصح أن يضاف اليهم أولئك الذين يلبسون الحرائر الفرنسية وما شابهها
من فاخر الثياب .

أما قصة الطلب أو العريضة التي سبقت الإشارة إليها فقد سمعت
من بعض التجار أبناء ولاية نيويورك رأيا يقولون فيه ان القوانين التي
تقيد التجارة في الولايات لا تضر الولايات فحسب بل يتعدها الضرر
الى المملكة الأم (يعنى انجلترا) ... وانهم ليزكرون الأسباب التي يبنون
عليها هذا الرأي وهي جديرة أن تدرس ها هنا ، وقد يتبين أنهم على
صواب فلا يستحقون الزجر بل يستحقون الشكر والثناء ، والا ففى
الوسع القاء الطلب جانبا والاعراض عنه ، فليس الطلب ثورة ولا عصيانا
ولكنه فى صميمه اعتراف بالسلطان لمن يتقدم الطلب اليه ، وان مقدميه
من رعاياه .

بيد أن الآراء المتحيرة تخلق من الحجة قبة فى كثير من الأحيان ،
وحين يكون الذئب قد عقد العزيمة على مخاصمة الحمل فلا فرق بين
وقوفه على اتجاه لواء أو على غير ذلك الاتجاه ، وما أيسر ما توجد
التعلات أو تخلق اذا لم توجد ، ولا مبالاة بالحكمة والانصاف فانهما
لن وراء الحسابان !

محادثة عن الرق

وهذه رسالة كتبها فى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٧٧٠ الى صحيفة
الاعلان العام Public Advertiser للرد على الذين ذكروا مسألة الرق
فى أمريكا ليعترضوا بها على المطالبين بالحريات القانونية من الأمريكيين.
قال بعد مقدمة يذكر فيها مناسبة ارسال هذا الحديث « الخيالى »
الحقيقى الى الصحيفة :

انجليزى — انكم معشر الأمريكيين تصخبون كلما توهمتم أن شيئا

يمسكم فيما تسمونه بحرياتكم ، على حين لا يوجد فوق ظهر الأرض من يعادون الحرية كعدائكم ، وما أنتم الا طغاة متعسفين حيث تسنح لكم الفرصة كما تسنح الآن .

أمريكي — وكيف كان هذا لعمرك ؟

انجليزى — اقرأ كتاب جرافل شارب Granville Sharpe عن الرق . فتعلم كيف كان هذا بشهادة العيان .

أمريكي — لقد قرأته .

انجليزى — وبعيشك ماذا فهمت منه ؟

أمريكي — أصارحك رأى انه فى جوهره كتاب حسن ، واننى لأعجب بغيره المؤلف على الحرية فى الجملة ، ويسرنى ما أرى فيه من دلائل الانسانية . غير أنه يتكلم عن الامريكيين عامة فيزعم أنهم لا يشعرون بالحب الصحيح للحرية وأنهم قلما ينفرون من الاستبداد والطغيان وأنهم قلما يتورعون عن تسليط الاستبداد والطغيان بأقصى ما فى وسعهم من الشدة على عبيدهم المساكين ، وهذا ما لست أقره كما أننى لا أقر النتائج التى انتهى اليها حيث يخلص من تلك المزاعم الى انكار حق الأمريكيين فى الحرية ، ففى ذلك مجافاة للعدل وغلو فى الانحاء على الأمريكيين ، مع اغضائه عن أخطاء بلاده ، وليس هذا فيما أرى بالانصاف فضلا عما فيه من الاضرار بنا هذه الآونة على الخصوص ، اذ يحاول أن يصورنا فى صورة بغيضة ويغرى بنا من يبيتون النية على ظلمنا واضطهادنا ، منكرا حقنا فى الحرية التى ننشدها الآن .

انجليزى — وأى وزر لبلاد المؤلف فى تلك المظالم التى يشكوها ؟

وأى كلام من كلامه لا يشمل حكمه معاصر الأمريكيين عامة ؟

أمريكي — ينبغى ألا يكون كلامه عاما على اطلاقه لأن الأسس التى يقيمه عليها ليست بالأسس العامة . وهذه انجلترا الجديدة — أكثر

المستعمرات الانجليزية سكانا في أمريكا — قليل فيها عدد العبيد ، ومن وجد من هذا القليل فهو في العواصم حيث لا يعملون في عمل شاق ... وأكثرهم ثمة سعاة أو خدم في المنازل ، ويقال مثل هذا عن المستعمرات التي يقل سكانها عن سكان انجلترا الجديدة ، كنيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا ، وحتى في فرجينيا وماريلاند وكارولينا حيث يعمل العبيد في الزراعة لا يوجدون الا عند الأسر الغنية القديمة على مقربة من مياه الملاحة ، وانهم لقليلون بالقياس الى الأسر التي تقيم وراءهم ويندر أن يوجد لديها العبيد ، ولو أنك عبرت أمريكا الشمالية من أقصاها الى أقصاها لم تجد أسرة من كل مائة أسرة لديها عبيد ، وان ألوفاً من الناس هناك ليمقتون الرق كما يمقته مستر شارب ويتورعون عن كل ما يتصل به ويبدلون جهدهم في الغائه . فاذا كان من الاجرام في رأى ذلك السيد أن يقتنى المرء عبدا فهل من العدل أن نوصم جميعا بالجريمة ؟ واذا كان في انجلترا واحد من كل مائة يخل بحقوق الأمانة فهل من العدل أن يقال ان الانجليز كلهم لصوص وسراق ؟ زد على ذلك أن الذين يقتنون العبيد ليسوا جميعا قساة أو طغاة ، وكثيرون منهم يعاملون عبيدهم بالرفق والمروءة ويتكفلون بهم في حالتى الصحة والمرض كما تتكفلون هنا بالعمال الفقراء ، وما هؤلاء العمال الفقراء عبيدا بالاسم ولكنهم ما أشبههم بالعبيد حين تضطربهم الشريعة الى العمل كل تلك الساعات في خدمة سادتهم بتلك الأجور ولا تسمح لهم بطلب المزيد أو المساومة على الأجر بل تسجنهم في بعض المشاغل أن رفضوا العمل بالأجر اللقودور وقد تسجن السيد اذا قبل أن يزيدهم في الأجور ، ويحدث كذلك في الوقت نفسه أن يحال بين الصانع الذكى وبين السفر من هذه الجزيرة اذا منح في خارجها أجرا أكبر من أجره فيها .

أما وزر انجلترا في المظالم الأمريكية فليذكر سيدى أنها هي التي بدأت بتجارة الرقيق وأن تجارها من لندن وبريستول ولقبول وجلاسكو يرسلون سفنهم الى افريقية لشراء العبيد . فاذا أساء التجار استخدام

الوسيلة في اقتناص العبيد ، واذا شنت الغارات لاحتجاز الأسرى ، واذا استدرج الأحرار الى متون السفن ثم سيقوا الى الأسر غيلة وغدرا ، واذا بذلت الرشى للأمراء الصغار اغراء لهم ببيع رعاياهم وهم في الحق طائفة من العبيد — اذا حدث هذا كله فهل تقع جرائم هذه السيئات كلها على عاتق أمريكا ؟

انكم تجلبون العبيد الينا وتغروننا بشرائهم ، ولست أريد أن أسوغ وقوعنا في الغواية ، ولكنني أقول انكم اذا سرقتم الناس تبيعونهم لنا ونحن نستريهم فلتذكروا المثل القائل ان المشتري من السارق والسارق سواء ، وقد وضع هذا المثل للذين لا يعلمون أن آخذ الشيء المسروق في حكم سارقه ، ولكن العكس لم يكن بحاجة قط الى مثل لتوضيحه ، اذ ما من أحد يجهل أن اللص كمن يشتري منه في المنكر والسوء ...

وانكم لم تفعلوا هذا وتقنعوا به وتثابروا على فعله وحسب ، بل زدتهم على ذلك أنكم أنكرتم القوانين التي وضعت في أمريكا لتصعب تجارة الرق وفرض الضرائب الثقيلة على الموردين للأرقاء وأمرت حكومتكم بنقضها لأنها ضارة بمصالح الشركة الأفريقية .

انجليزى — ما سمعت من قبل بقوانين من هذا القبيل وضعت في أمريكا ، غير أن القوانين التي وضعتوها وادعيتهم أنها ضرورية لحسن سياسة العبيد بل الخدم البيض ، مما استشهد به مستر شارب في كتابته ، لاتدعونا الى حسن الظن بمروءتكم العامة أو باحترامكم الحرية ، وليست تلك قوانين آحاد معدودين ، اذ هي مسنونة برأى نوابكم في الجماعات الممثلة لكم ، وهي لهذا خليقة أن تنسب الى الجميع .

أمريكي — ليس الأمر كذلك . ويجوز أن بعض هذه القوانين وضع في المستعمرات التي يربى فيها عدد الأرقاء كثيرا على عدد البيض كما هو الحال في بربادوس الآن وفي فرجينيا من قبل ، وقد تكون تلك القوانين أقسى مما ينبغي من أثر الخوف والظن الغالب بأن الصرامة هي

الوسيلة الوحيدة التى تروض العبيد على الطاعة وتصون على سادتهم حياتهم . أما الولايات الأخرى التى يقل فيها عددهم ولا يخشى الخطر منهم فالقوانين رفيقة والعبيد فى كماله القانون من جميع الوجوه الا أن نحسب حساب الحرية ، ويجازى الرجل الأبيض بالموت اذا قتل عبدا يملكه كما يجازى على قتل انسان كائنا من كان . ومن الواجب أن نذكر أن صرامة القوانين على قدر الغباء أو على قدر السوء فى خلائق المحكومين . وقد علمتنا التجربة هذه الحقيقة فى كل مكان . وقد يخطر لك أن العبيد قوم لطاف ودعاء يسلس قيادهم لمن يقودهم ، وانهم كذلك بعض الأحيان ولكن الأكثرين منهم على خبث وكيد وضعينة وسوء دخيلة وقسوة بالغة على أشد ما تكون القسوة ، وتجاركم وملاحوكم الذين يجلبونهم من غانة يعلمون ذلك ويعانون من تمردهم على السفن السابحة أو المرسية على الشاطئ كل العناء ، وما ظفر العبيد بمن عداهم مرة الا أتوا عليهم أجمعين ، وكلما حدث التمرد من هذا القبيل عالجهم قومكم بما يحسبونه ضرورة لا محيص عنها من الصرامة والشدة ، وأطلقوا النار على بعضهم أو شنقوهم على ظهر السفينة ، وربما كان من هؤلاء العبيد أناس مجرمون فى بلادهم يبيعهم أمراؤهم عقوبة لهم على جنائياتهم ويجعلون النفى والعبودية جزاء لهم عليها كما تجزون أتم هنا من تدينونهم من الأشرار ، وما دامت حكومتكم لا تقبل أن تسن القوانين لخراج العبيد من البلد فهل يحق لكم أن توجهوا اللوم الى تلك القوانين التى تبدو ضرورية لحكمهم وهم فى ذلك البلد ؟

انجليزى — لكن القوانين التى تضعونها لمعاملة الخدم البيض لا تقل فى قسوتها عن القوانين التى توضع للعبيد السود .

أمريكى — هى كذلك فى بعض الولايات ، وبخاصة تلك الولايات التى ينفون اليها مجرميكم ، وان الخدم الودعاء ليعاملون فى أمريكا معاملة الرق التى يجدونها فى انجلترا . غير أن الأشرار الذين تدينونهم وترسلون بهم إلينا لابد لهم من القمع الشديد بعضا من حديد . وقد وضعنا

القوانين في ولايات عدة لمنع دخولهم ، وكانت هذه القوانين تنقض هنا على اعتبارها مخالفة لقانون البرلمان ، ولسنا نشكركم على اقطاعهم علينا ، ونحسبها بربرية من حكومتكم أن تخلى سجونها وتملأ بهم محلات بلادنا ، بل نحسبها اهانة من أسوأ الاهانات ، فإن كانت الشرائع الرفيعة تصلح لسياسة هؤلاء القوم فما بالكم لاتبقونهم عندكم وتسوسونهم بتلك الشرائع ؟ على أنك خليك أن تذكر أن الشرائع التي ترمونها بالقسوة قد أرسلت الى حكومتكم كما ترسل جميع الشرائع الى الملك في مجلسه فأبرمتها . فإن كانت مع هذا عرضة للملام فتفضلوا أنتم واحملوا على عاتقكم بعض هذا الملام !

ايقوسى — لا يحق لكم أن تقولوا اننا نقحم المجرمين على بلادكم . اذ في وسعكم اذا شئتم أن تحجموا عن شرائهم ، ولو لم يكن من طبعكم الطغيان ولم يكن من هواكم أن تتخذوا لكم أتباعا تسومونهم العذاب وتشبعون بتعذيبهم تلك الشهوة في نفوسكم ، وكان لديكم حقا ذلك الشعور بالحرية الذى تثيرون به تلك الضجة — لما اشتريتم أحدا من العبيد ولا من المجرمين ، ولما احتملتم شيئا كهذا الرق أن يبقى بين ظهرائكم .

أمريكى — الحق كما تقول أننا نستطيع أن نكف عن شرائهم ، وان كثيرا من العقلاء ليحجمون عن شراء أحد منهم . الا أن الدنيا فيها العقلاء وغير العقلاء ، وغير العقلاء يطعمهم الثمن البخس في شرائهم ، وعلينا نحن أن نكبح هذا الطمع وأن نمنع تجاركم أن يصلوا اليها بتجارتهم البغيضة ، ولكنكم لا تأذنون لنا في ذلك ، ومن أجل هذا قلت انكم تقحمون علينا العبيد كما تقحمون علينا المجرمين . وانى ليدھشنى يا سيدى أن أسمع ملاحظتكم التى تقول فيها اننا لو كنا نجب الحرية حقا لما سمعنا لشيء كالرق أن يبقى بيننا . فهذه ملاحظة غريبة من بريطانى من أهل الشمال حيث الرق مشروع بحكم القانون لا يزال !

ايقوسى — أحسبك تشير الى قوانين المواريث وهى لاتشتمل على شيء من الرق ، وقد نقضت مع ذلك بقانون صدر من البرلمان .

أمريكي — كلا يا سيدى . اننى أعنى الرق فى مناجمكم : أعنى
المساكين الذين يخفرون الأرض ليستخرجوا منها الفحم لكم . ففى تلك
الأفاق المظلمة التى لاتطلع عليها الشمس عبيد بحكم القانون يتلوهم
فى العبودية أبناءهم من اللحظة التى يستطيعون فيها أن يحملوا السلة
الى اللحظة التى يختمون بها أعمارهم . وانهم ليباعون ويشترون مع
المناجم وليس لهم من حرية الفكاك من هذا الأسر نصيب أكبر من نصيب
العبيد عندنا فى الفكاك من مزارع سادتهم ، واذا كان سواد وجوههم
مسوغا لاستعبادهم فأنتم لاتجدون حتى هذا المسوغ لاستعباد عمال
الفحم عندكم . ولتذكر أنهم تحت غبار الفحم الأسود لهم جلود بيض ،
وانهم أناس أمناء طيبون ، وهم فوق ذلك من أبناء وطنكم .

انجليزى — يسرنى أنك لاتنحى على انجلترا بمثل هذه الوصمة .
فان عمال الفحم عندنا أحرار كسائر العمال .

أمريكي — وهل من أجل هذا تزعمون أنكم لاتعرفون شيئا من
قبيل الرق فى البلاد الانجليزية ؟

انجليزى — لا يوجد فى انجلترا شيء كهذا بكل تأكيد !

أمريكي — أخالنى قادرا على أن أعرض أمام نظرك ما يقنعك
بوجوده اذا اتفقنا أولا على تعريف الرق ما هو ؟ ولئن صح ما يقوله
مؤلفكم من أن اقتناء العبيد يسلب حق المقتنى فى الحرية لتكون أتم
معشر الانجليز محرومين من هذا الحق حرمان الأمريكيين .

انجليزى — وما تعريفك للرق اذن . أرجو أن نسمعه لنعلم هل
نحن متفقون عليه أو غير متفقين .

أمريكي — العبد — فيما أرى — هو كائن بشرى يسرق أو يغتصب
أو يشتري من غيره أو من نفسه بالمال ويضطر لذلك الى خدمة الآخذ
أو الشارى حسب هواه مدى الحياة . وقد يباع مرة أخرى أو يؤجر
لغير سيده ويضطر فى هذه الحالة الى خدمة مشتريه أو مستأجره ،

ولا يضطر الى اطاعة سيده وحده بل يضطر كذلك الى اطاعة أوضاع الخدام لديه ، فيحضر متى استدعاه وينصرف بأمره ويقوم حيث يرتضى له الاقامة ولو بعث به الى أقصى أطراف الأرض وأوخم الأجواء ، وعليه أن يلبس الملابس التي يختارها له سيده ولا يلبس غيرها ولو لم تكن من لباس العرف الشائع وكان الارتداء بها علامة من علامات العبودية ، وعليه كذلك أن يتقبل الطعام الذي يفرضه له سيده أو يتقبل القدر الذي يعطيه إياه من المال بديلا من الطعام والكساء . وينبغي ألا يفارق مكان الخدمة بغير إذن مولاه وأن يخضع للجزاء الصارم عقابا له على أيسر الهفوات ، وأن يسام الضرب بالسياط ، بل القتل ، عقابا له على الأبقاق من الأسر أو على عصيان الأمر ... أحسب أن كائنا بشريا كهذا انما هو عبد في كل ما يراد من العبيد ويفرض عليهم .

انجليزى — أوافقك على تعريفك . الا أئننى على يقين ، نعم على يقين ، انك لن تجد فى انجلترا أحدا بهذه الصفة .

أمريكى — كلا . بل عدة ألوف اذا كنت قد أحسنت وصف الجندى الانجليزى أو الملاح الانجليزى بذلك التعريف . فالملاح كثيرا ما يجبر على الخدمة وينتزع من جميع روابطه وعلاقاته ، والجندى يشتري عادة بدينار وبعض دينار فى سوق التجنيد ، ولسيده أن يبيع عمله من يشاء من الأمراء الغرباء ، أو يؤجره بما ييرمه من المعاهدات ويقذف به الى حيث يرمى أو يرمى فى ألمانيا أو البرتغال أو غانة أو الجزر الهندية الغربية، وهو مقيد بالعمل مدى الحياة يصدق عليه كل حرف مما ذكرته فى ذلك التعريف ، وقد يتخطى الرق الانجليزى فى حالة من الحالات كل ما انتهى اليه من الحدود فى الديار الأمريكية .

انجليزى — وماذا تعنى ؟

أمريكى — نحن لا نستطيع فى أمريكا أن نأمر العبد بعمل لا يستقيم مع الخلق أو مع الشريعة ، ولا نستطيع مثلا أن نأمره باقتراف جريمة

القتل ، ولو أمرناه بذلك لحق له أن يأبى وتقره القوانين على الإباء .
غير أن الجندى مجبر على طاعة كل أمر أو يعرض نفسه للموت ، ولو كان
الأمر كأمر هيرود بقتل كل طفل دون السنتين أو بقطع رقاب الصغار في
المستعمرات أو بإطلاق النار على النساء والأطفال في بطاح سان جورج
(إشارة الى مذبحه سنة ١٧٦٨)^(١) .

ويسلك فرنكلين مثل هذا المسلك « المنطقي » لاقتناع مخالفه داخل
بلاده في مسألة الرق كما سلكه في مناقشة المخالفين خارج بلاده لاقتناعهم
في هذه المسألة ، وقوام الاقتناع عنده في الحالتين أن يأخذ المخالفين له بما
يدينون به ويسلمونه وأن ينيهم الى أحوالهم التي يغفلون عنها
ولا يلتفتون الى مغزاها وأن يريهم أنهم يصابون بالحجة التي يسوقونها
قبل أن يصيبوا بها غيرهم ، وهذا الأسلوب المنطقي أفعال الأساليب في
الزام حجتهم ، لأنها في النضال المنطقي بمثابة نقل الهجوم الى معسكر
الخصم من داخله ليشغل بنفسه عن مهاجمة غيره .

وقد تقدم أن فرنكلين كان يقول انه يرحب برسول المفتى الأكبر من
القسطنطينية اذا طاب للمفتى الأكبر أن يوفده الى الديار الأمريكية ،
ولكنه في الرسالة التالية يذكر أنصار الرق في بلاده بحجة القراصنة الذين
كانوا يستخدمون شواطئ المغرب بأفريقيا الشمالية لاقتناص ركاب
السفن والاتجار ببيعتهم والتعلل بالدين لاستباحة رقابهم ، وكان بعض
أنصار الرق — مستر جاكسون مندوب ولاية جورجيا — قد ألقى خطابا
في مجلس النواب — يفند به أقوال المعارضين على النخاسة أو تجارة
الرقائق ونشرته صحيفة الفدرال جازيت Federal Gazette ، فكتب
فرنكلين الى الصحيفة يرد عليه بهذا الأسلوب التهكمي الذي يشبه
« محاكاة الصوت » للسخرية والتنديد ، وكان تاريخه يوم الثالث
والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٩٠ قبل وفاة فرنكلين بنحو ثلاثة
أسابيع :

(١) من كتاب رسائله الى الصحف المتقدم ذكره .

خطاب سيدى محمد ابراهيم

سيدى محرر الفدرال جازيت .

قرأت أمس فى صحيفتكم الغراء خطاب مستر جاكسون فى مجلس النواب يستنكر به تعرضهم لمسألة الرق ومحاولتهم تحسين أحوال الرقيق ، فذكرنى خطابه هذا بخطاب ألقى قبل مائة سنة بلسان سيدى محمد ابراهيم عضو الديوان بالجزائر كما أثبتته مارتى فى سجل قنصليته سنة ١٦٨٧ . وكان هذا الخطاب معارضا لجماعة الطريقة الصوفية التى توسلت الى الديوان أن يأمر بالغاء القرصنة والنخاسة لأنهما تناقضان العدل والانصاف .

ان مستر جاكسون لم يستشهد به ولعله لم يطلع عليه ، ولهذا يبدو من براهينه وذرائعه أن عقول الناس ومنافعهم تدين وتدان على منهج واحد فى جميع الأمم والأقاليم كلما اتفقت المطالب والأحوال، وهذه هى ترجمة الخطاب الأفريقى المشار اليه .

بسم الله . الله أكبر . ومحمد نبيه ورسوله .

... ترى هل فكر أصحاب هذه الطريقة فى عواقب الاستجابة لرجائهم؟ وكيف ترانا نصل الى البضاعة التى تأتى من البلاد المسيحية ولا غنى لنا عنها اذا نحن كفنا عن شن الغارة على المسيحيين ؟ ومن الذى يزرع لنا الأرض فى هذه البلاد الحارة ان لم نتخذ منهم عبيدا مسخرين ؟ ومن الذى يؤدى لنا عمل الخدم فى المدن والبيوت ؟ ألا يؤول بنا الأمر يومئذ أن نصبح نحن العبيد المسخرين لأنفسنا ؟ ألسنا هنا أحق بالرحمة من أولئك الكلاب ؟

لدينا الآن خمسون ألفا فى الجزائر وحولها ينقصون يوما بعد يوم ان لم يأت المدد من جديد ، فان كفنا عن اغتنام سفن الكفرة واسترقاق الملاحين والمسافرين على متونها فلسوف تصبح أرضنا هملا لقيمة لنا

لاقطاع العمل في زراعتها ، وسوف تهبط أجور بيوتنا في المدينة الى نصفها وتنفذ موارد الخزانة العامة تبعا لذلك . ومن أجل ماذا كل هذا يا ترى ؟ كل ما هنالك أن نرضى أهواء طائفة من أصحاب الأحوال والبدوات يودون لو أننا أطلقنا الأرقاء الذين في حوزتنا فضلا عن تحرير المزيد من المدد الجديد .

وبعد ، فمن الذى يعوض سادتهم عن ضياعهم ؟ أتعوضهم الدولة ؟ أفى خزانتها كفاية من المال ؟ أترى يعوضهم أبناء تلك الطريقة أم في وسعهم هذا التعويض ؟ أم هم في سبيل الانصاف الذى يزعمونه لأولئك العبيد يتجافون عن انصاف أولئك السادة المظلومين ؟ وهبونا أطلقنا عبيدنا فماذا يصير من أمرهم بعد اطلاقهم ؟ ان قليلا منهم من يعودون الى بلادهم لعلهم بالمصاعب التى تنتظرهم هنالك ، وهم لا يؤمنون بديننا ولا يسيرون على نهجنا في حياتنا ولا يتبعون عاداتنا ولا يقبل أبناء قومنا أن يدنسوا أنفسهم بمخالطة أنسابهم . فهل ترانا نستبقيهم بيننا متسولين في طرقاتنا؟ أو ترانا نترك أمتعتنا لمن يريد منهم أن يسرقها ويسلبها ؟ ان الذين طال بهم عهد العبودية لن يعملوا لكسب أقواتهم ان لم يجدوا من يكرههم على العمل لها ، وماذا لعمري في معيشتهم اليوم من السوء أو مما يستدر الرحمة والاشفاق ؟ ألم يكونوا عبيدا في بلادهم قبل هذه البلاد ؟ أليست بلاد الأسبان والبرتغال والفرنسيين والايطاليين مسخرة في طاعة حكام مستبدين ؟ أليست انجلترا تسوم ملاحيا سوم العبيد وتقبض عليهم حكومتهم كما تشاء لتجسبهم في سفن الحرب وتكرههم لا على العمل وحسب بل على القتال من أجل رزق قليل أو مؤونة تسد الرمق ولا تفضل في شيء ما نسمح به نحن للعبيد . فهل تسوء أحوالهم اذن لأنهم يقعون في أيدينا ؟ كلا . بل قصارى الأمر أنهم يستبدلون رقا برق ، وأقول انه لرق خير من رقهم لأنهم يعيشون هنا حيث تشرق شمس الاسلام في روعتها وبهائها ، وحيث تتاح لهم الفرصة للاهتداء الى الدين الحق والنجاة بأرواحهم من الهلاك . أما الذين يمكنون منهم في أرضهم فلا أمل لهم

في هذه السعادة ، ولن يكون ارسال العبيد من بلادنا الى بلادهم
الا كإخراجهم من النور الى الظلمات .

وأعود فأسأل : ماذا عسى أن يصير من أمرهم ؟ لقد سمعت من يقول
انهم يرسلون الى القفار حيث تتسع الأرض لمعيشتهم وقيمون أحرارا في
أرضهم . على أنني أحسبهم لا ينشطون لعمل قط ما لم يدفعوا اليه
على الرغم منهم ، وانهم لأغبي من أن ينهضوا بحكومة حرة لحكم
أنفسهم ، ولن يلبثوا أن يغير عليهم الأعراب من أهل البادية فيستعبدوهم ،
ولكنهم حين يقيمون في خدمتنا يلقون منا الرفق وحسن الرعاية على سنة
الرحمة والمروءة ، وليس للعمال في أوطانهم كما أعلم نصيب من ذلك بل
هم على نصيب قليل من الغذاء والمسكن والكساء ، فهم على هذا تصلح
أموال الأكثرين منهم بيننا ولا حاجة بهم الى ترفيه أو اصلاح حال . اذ هم
هنا في أمان لا يجبرون على الجندية ولا على أن يعمل المسيحيون منهم
في قطع رقاب اخوانهم المسيحيين كما يحدث فيما يشجر بينهم من الحروب .
فاذا كان أناس من هؤلاء المجاذيب الذين يحتجون بالغيرة على الدين
فيما بيننا قد حسن لديهم أن يرفعوا العرائض تترى للافراج عن هؤلاء
الأسارى فما كان ذلك من كرم فيهم ولا من مروءة ورحمة ، وانما هي
أعباء ذنوبهم وخطاياهم يرزحون بها ويخيل اليهم أن هذا المطلب خليف
— لما يتوهمونه من احسانه وفضله — أن ينجيهم من الهلاك وسوء
الجزاء .

وما أضل هؤلاء المتهوسين حين يحسبون أن الاسترقاق محرم في
القرآن ؟ أليس أمر السادة بالرفق وأمر العبيد بالطاعة والأمانة نصا
على جواز الاسترقاق ؟ كذلك لا يحرم في الكتاب سلب الكفار لأن
المعلوم منه أن الله قد وهب الدنيا وكل ما فيها لعباده المؤمنين يغتنمون
ما افتتحوها منها .

فلا نستمع بعد الآن لذلك الطلب البغيض ، ولنعلمن أن اطلاق
الأرقاء النصارى يسلط الكساد والخراب على أراضينا وبيوتنا ويحرم

الكثيرين من رعايانا الأمناء طيبات أرزاقهم فيثير القلق في النفوس ويفرى المتذمرين بالفتنة ويزعزع مكانة الحكومة ويعم الديار بالفوضى والاضطراب ، ولا يخامرني الشك — لهذا — في أن هذا المجلس الحكيم يؤثر سعادة الأمة المؤمنة كلها على ارضاء فئة من أبناء الطريق ، ويعرض عما يطلبون .

ولقد كان من أثر هذا الكلام ، كما أنبأنا مارتن في سجله ، أن الديوان انتهى الى هذا القرار :

« ان القول بأن سلب النصارى واسترقاقهم ظلم ومجافاة للعدل انما هو على الأقل من الأقوال المختلف عليها ، ولكنه من الواضح أن الإبقاء على هذه الحالة في مصلحة الدولة . فلا تقبل تلك العريضة بناء على هذا الاعتبار » .

وعلى هذا رفضت العريضة .

ولما كانت البواعث المتشابهة تميل بعقول الناس الى ما يشبهها من الآراء والقرارات — أفلا يجوز لنا — يا مستر براون — أن نستخلص من ذلك أن العرائض التي أرسلت الى برلمان انجلترا لالغاء النخاسة ، ولا نذكر ما عدا ذلك من المطالب ، وشيكة أن تصير كما تصير المناقشات فيها الى مصير كهذا المصير .

اننى يا سيدى قارئك المثابر وخادمك المتواضع :^(١) مؤرخ

معاهدة مع سيدة

وهذه رسالة من نوع آخر غير الرسائل الى الصحف وغير الرسائل الى سائر الأشخاص ، كتبها الى السيدة بريون Brillon إحدى سيدات

(١) اعتمدنا في ترجمة هذه الرسالة على النص الانجليزى المنشور في الجزء الاول من كتاب أئمة الأدب الأمريكى طبع مكملان

المجتمع الرفيع في باريس ، وكان يكتب اليها باللغة الفرنسية فتصحح له أخطائه وتدربه على التعبير الفصيح في الكتابة والكلام بتلك اللغة ، وقد كتبت اليه من نيس تعاتبه لأنه انصرف عن الاهتمام بها في غيابها ووجه التفاته الى سيدات غيرها ، وكان الخطاب في صيغة المراسم الدولية ، فكتب اليها الرد في صيغة معاهدة سياسية وقدم لها بفتاحة تمهيدية (بروتوكول) فقال :

باسى ، في ٢٧ يوليو سنة ١٧٨٢ .

... ما أبعد الفارق بينك وبينى ! انك تعدين عيوبى كثيرة حتى لقد تربى على الاحصاء ، وأنا لا أرى لك الا عيبا واحدا لعله من عيوب نظارتى! . ذاك ضرب من الطمع يوحى اليك أن تعظمى عاطفتى وتستأثرى بها وحدك حتى لا بقية فيها لواحدة من سيدات وطنك المحبوبات ، وكأنك تحسبن أنها من العواطف التى لا تقبل القسمة الا تقصت وتفرقت ، وهى غلطة فى الحساب وفى النظر الى طبيعة الموقف الذى وقفتى فيه وقضيت به على . فانك تجردين حبنا من كل صلة جسدية غير ما يكون من عناق كعناق أولاد العم عند مقدمهم من الريف . فماذا بقى من العاطفة مما يسوغ لى أن أتجه به الى الأخريات دون أن يغض ذلك أو ينقص من محبتى اياك ؟ ان خطرات الفكر والتقدير والاعجاب والتوقير ، بل العطف نفسه على موضوع من موضوعاته ليقبل المضاعفة والزيادة كلما تضاعفت تلك الموضوعات وازدادت دون أن يخل ذلك بحق صاحب العطف الأصيل أو يسوغ له الشكاية من ضرر . وانه لفى طبيعته من قبيل تلك الألحان العذبة التى توقعينها على المعزف ببراعتك الألمية ، ويستمتع لها عشرون فيقنطون بسماعها ولا يغض ذلك من نصيبى الذى تريدون أن يخصنى منها ، وقد يحق لى اذن أن أطلبك بمنعها أن تصل الى أذن غير أذنى . وسترين على هذا كيف جاوزت بمطالبك حد العدل والنصفة ، وزدت عليها اعلان الحرب على ان لم أذعن لجميع تلك المطالب ،

ولو أنصفتني لكان من حقى أنا أن أشكو اليك . وها هو ذا ولدى الصغير لم يسمن ولم يكتنز كعهدي بالأطفال فى رسومك الرشيقه ، بل هو يهزل ويتضوع الى غذائك المرىء الذى تنكرينه عليه أنت أمه الحنون ، ثم ها أنت ذى تتوعدينه بقص جناحيه كى يقعد عن البحث عنه فى مكان .

ويخيل الى أن الحرب التى تشهرينها لا أغنم منها ولا تغنمين ، ولما كنت أنا الأضعف وجب على أن أصنع ما يصنعه الأحكم ، وأن أبدأ بطلب الصلح ، ولا ضمان لدوام الصلح الا أن تصاغ شروطه فى قالب الانصاف وتبادل الرضا والموافقة ، وهذه هى مواد المعاهدة التى أعرضها للقبول والابرام .

المادة الأولى

يتقرر السلام الدائم مع الحب والصدقة بين الطرفين مدام برون ومستر فرنكلين .

المادة الثانية

لدوام هذه العلاقات تقبل المدام من جانبها أن يكون مستر فرنكلين على استعداد لتلبية الدعوة كلما خطر لها أن تدعوه الى حضرتها .

المادة الثالثة

على مستر فرنكلين أن يبقى بعد حضوره طالما سمحت له بالبقاء .

المادة الرابعة

إذا وجد معها فعليه أن يتناول الشاى وأن يلعب بالشطرنج وأن يستمع الى الموسيقى وأن يستجيب لكل أمر يصدر اليه من جانبها .

المادة الخامسة

عليه ألا يجب امرأة قط غيرها .

المادة السادسة

والمذكور فرنكلين يتعهد من جانبه أن ينصرف من عندها حين يشاء .

المادة السابعة

ويتعهد المذكور أيضا بالتغيب كما يشاء .

المادة الثامنة

وأن يفعل ما يشاء حين يكون في حضرتها .

المادة التاسعة

والأ يجب امرأة أخرى الا بمقدار ما عندها من دواعي المحبة .

وأرجو أن أسمع رأيك في هذه القواعد المبدئية ، وفي رأيي أنها
أصدق تعبيراً عن المقاصد والنيات التي يرضاها الطرفان من أكثر
المعاهدات ، وبودى أن ألح وأصر على قبول المادة الثامنة وإن لم يكن
أملى عظيماً في قبولها ، وكذلك ألح وأصر على قبول المادة التاسعة وإن
كنت على يأس من لقاء المرأة التي تستولي مبنى على حب يضارع حبي
إياك أيتها الصديقة الغريبة العزيزة^(١) .. للمخلص ب . ف .

بين العلة والمريض

وكان السيد بريون قرين السيدة بريون يشكو مرض النقرس
الذي أصيب به فرنكلين وحاول كعاداته أن يلطف ألمه باستخراج العبرة
منه ، فكتب الحوار الآتي مع رسالة الى السيدة للتسرية عن قرينها في
مرضه ، وتكلم عن النقرس بضمير المؤنث وسماه السيدة على سبيل
التهكم ، فترجمناه بأمر النقراس لتصوير العلة في هذه الصورة بقدر
المستطاع .

(١) من كتاب «كتابات فرنكلين الترجمة» تأليف كارل فان دورن
Franklin's Autobiographical Writings by Carl Van Doren.

فرنكلين — أه . آخ . يارب . ماذا ترانى صنعت كى أستحق
هذه الآلام القاسية .

أم النقارس — صنعت كثيرا . أكلت أكلا لما ، وشربت شربا جما ،
واستسلمت لكسل قدميك فتركتهما فى متعة الراحة الزمن الطويل .

فرنكلين — من ذا يكلمنى ؟

أم النقارس — اننى أنا نفسى أم النقارس .

فرنكلين — عدوى بعجره وبجره .

أم النقارس — لست بعدوك .

فرنكلين — بل عدوى المبين . فانك لا تقنعين بقتل جسدى
بالأمك المبرحة وحسب ، بل أراك تعملين على تشويه سمعتي الحسنة ،
وتتهمينى بالنهم والادمان ، وكل من عرفنى فقد عرف أنه مامن أحذق رمانى
بهذه التهمة وزعم اننى أفرط فى الطعام أو الشراب .

أم النقارس — ليحكم الناس كما يحبون . فما أكثر مجاملة الانسان
لنفسه فى هذه الأيام ! وما أكثر مجاملة الأصدقاء للأصدقاء . الا أننى
أنا أعلم أن الطعام الذى لا يحسب كثيرا ، وان الشراب الذى لا يحسب
لذلك بالنظر الى انسان كثير الحركة ، لهو الافراط بعينه حين يتعاطاه
رجل قليل الحراك .

فرنكلين — اننى . آه . آخ . اننى أتريض جهد ما أستطيع يا سيدتى
أم النقارس ، وانك لتعلمين طبيعة حياتى « القاعدة » ... فكان فى وسعك
يا سيدتى أم النقارس أن تحسبى حسابها وتعفينى من الألم بعض الاعفاء ،
اذ لم تكن غلطتى أنا أن أعمل فى استقرار .

أم النقارس — أبدا . ان منطقك ولباقتك عبث ضائع ، ومعاذيرك
لا تساوى قطميرا فى هذا المقام ، فانك اذا كان عملك ساكنا مستقرا فقد
وجب أن تكون رياضتك وتسلياتك متحركة ناشطة ، وعليك أن تخرج

للرياضة على قدميك أم على ظهر جواد ، وإذا عز عليك الوقت فترى بلعب البليار ، فتعال نحاسبك على منهج حياتك وكيف تنصرف في قضاء أوقاتك ... يكون لديك الكفاية من الوقت بعد منتصف النهار وعند الأصيل فماذا تراك تصنع في هذه الساعات ؟ انك بدلا من شحذ الرغبة في الطعام بالرياضة الصالحة تذأب على تسلية نفسك بقراءة الكتب والرسائل والصحف التي لا تستحق في كثير من الأحيان أقل التفات . ثم تتناول الغداء الفخم وتجرع أربعة أكواب من الشاي والقشطة مع قدين من الخبز والزبدة عليها قطعة من لحم البقر مما لا يحسب فيما أرى من الطعام اليسير الخفيف على البطون . ثم تذهب الى مكتبك على الأثر حيث تكتب أو تتحدث الى الذين يزورونك في شئون العمل ، وتمضى على ذلك الى الساعة الواحدة دون أن تروض بدنك أقل رياضة . على أننى قد أغفر لك هذا لأنه كما تقول من طبيعة عملك القرار . ولكن تعال نسألك ماذا تصنع بعد الغداء ؟ انك بدلا من التمشي في حدائق أصحابك الذين تتغدى عندهم كما يصنع أولو الفهم والفتنة ترسخ على المقعد أمام الشطرنج حيث يستطيع من شاء أن يراك مستطردا في اللعب ساعتين أو ثلاث ساعات ، وتلك هي رياضتك الأبدية ، وهي أقل الرياضات موافقة لأصحاب العمل القرار ، لأنها لا تساعد حركة الأخطا البدنية بل تتطلب الثبات والاتباء الطويل الذى يعطل تلك الحركة ، وكذلك تتلف بنيتك بالاستغراق في تلك اللعبة التعسة ، فكيف يتوقع أحد أن يعيش تلك العيشة دون أن تركد أخلاط بدنه وتعرض للفساد ويصبح البدن من جراء ذلك عرضة لجميع الأدوية العضال ان لم أحضر اليك — أنا أم النقارس — بين حين وحين كي أهيج أخلاطك فأصفيها أو أنفيها . ولو أنك في زاوية من زوايا باريس بين الأزقة التي لا تتخللها طرق الرياضة تقضى في لعب الشطرنج لجاز لك أن تتمحل تلك المعاذير ، ولكنك تفعل هذا في باسى وفي أوتيل وفي مونمارتر وفي ايبانى وفي سانوا حيث تكثر الحدايق والمنازها والنساء وينطلق الهواء النقي والأحاديث الممتعة النافعة وتستمتع بذلك كله وأنت سائر على قدميك . غير أنك

تهملها جميعا حبا لتلك اللعبة التعسة لعبة الشطرنج . تعسا لك اذن
يا سيد فرنكلين ! اننى نسيت نفسى وأنا ماضية فى نصحك . فخذ
الساعة هذه القرصة ، وخذ معها تلك ، وخذ ..

فرنكلين — آه . آه . آه . هات بربك ما شئت من نصائحك بل
من لواذعك ولكن بربك لا تزيدنى من هذه التقويمات والتصحيحات !
أم النقارس — على النقيض يا صاح . لن أعفيك من هبأة منها ،
فانها لمصلحتك . خذ ! ..

فرنكلين — أوه . ايه . من الظلم يا سيادتى أن تقولى اننى لا أترىض
فاننى لأخذ رياضتى فى مركبتى حين أذهب الى الغداء وحين أعود .

أم النقارس — تلك بين جميع الرياضات أقلها نفعاً وأهونها حركة
اذ تهتز المركبة على دواليبها ولا زيادة . ولك أن تحكم على مبلغ الرياضة
فى الحركة بمبلغ ما تحدثه تلك الحركة من الحرارة . فانك اذا خرجت
للرياضة فى الشتاء وقدماك باردتان لم تلبث ساعة حتى تشعر بالحرارة
فى قدميك وجميع أجزاء بدنك ، واذا ركضت على ظهر الجواد فأنت فى
حاجة الى ساعات أربع للظفر بمثل تلك الحرارة ، ولكنك اذا جلست فى
مركبتك فربما قضيت اليوم كله واكتفيت الى قرارك وأنت بارد القدمين .
فلا تخدم نفسك اذن وتقضين نصف ساعة فى مركبتك ثم تسمينها
رياضة ، وما منح الله كل من هب ودب مركبة يمتطيها ، ولكنه منح كل
إنسان قدمين أكمل وأجمل وأثقل ، فاجعل من شكرك لله على هذه
المنحة أن تستخدمها وتنتفع بها . وفى وسعك أن تعرف كيف تتحرك
أخلط الجسم وأنت تنتقل من مكان الى مكان . فلاحظ أنك حين تمشى
على قدميك ينتقل ثقل جسمك كله . دواليك تارة الى الجانب الأيمن
وتارة الى الجانب الأيسر وتضغط هذه الحركة على عروق القدم وتدفع
منها ما تحويه ، ويتسع الوقت لامتلاء العروق مرة أخرى ريشا يتم
التحول من قدم الى قدم ، فيتم بذلك انتظام الدورة فى الجسم ، ومن

هنا تأتي الحرارة التي تنشأ في لحظة من الزمن وتنشط الأخطا وتجري
الأمزجة مجراها فيجري كل شيء على ما يرام : تحمر الوجنتان وتتمكن
العافية .

« ولتنظر الى صديقتك في أوتيل — تلك المرأة التي تلقت من
الطبيعة نصيبا من العلم الحق أوفر من أنصباء ستة منكم أدعياء الحكمة
الذين يقتبسونها من الكتب ، فانها حين تنوى أن تشرفكم بزيارتها
تمشى على قدميها من الصباح الى المساء وتدع أمراض الكسل كلها
تتوزع بين خيلها ، فانظر كيف تحافظ على صحتها بل على محاسنها ،
وأتم تنوون زيارة أوتيل ففى المركبة تذهبون ، ولا فرق بين المسافتين :
من أوتيل الى باسى أو من باسى الى أوتيل .

فرنكلين — انك تضجربني بهذا الجدل .

أم النقارس — صدقت . سأمسك لساني وأمضى في اداء واجبي .
خذ هذه الخوذة .. وخذ هذه .. وخذ .

فرنكلين — أوه . أوه . لا بل تكلمى . تكلمى . أتوسل اليك .
تكلمى .

أم النقارس — كلا . ان عندى حفنة من الخويزات حصتك في هذه
الليلة ، والبقية الى الغد .

فرنكلين — رباه . هذه هى الخمى . لقد هلكت . ألا يوجد أحد
يحمل عنى هذه الآلام

أم النقارس — اطلب هذا من خيلك . فانها تتعب لتمشى في مكانك .

فرنكلين — ما أشد قسوتك . تعذبنى كل هذا العذاب لغير سبب .

أم النقارس — أما لغير سبب فلا .. وان لدى لثبنا وافيأأحصى فيه
جميع خطاياك في حق صحتك ، وكلها مسطرة في وضوح وما من خوذة
تتلقاها منى الا وعندي عليها برهان .

فرنكلين — اقرئيه اذن .

أم النقارس — انه شرح يطول ، وسأريكنها بعرضها عليك .

فرنكلين — افعلنى . فكلنى أسمع !

أم النقارس — أتذكر كم مرة عذمت على التمشى فى غاب بولون أو حديقة الصيد أو حديقةك وانثيت عن عزمك ، تزعم تارة أنه برد وتارة أنه حر وفى ساعة أخرى أنها ريح أو أنها رطوبة أو أنها ما لست تدري ماذا من التعديلات ؟ تزعم ذلك وما فى كل أولئك من سبب الا السبب الوحيد : وهو أنك كسلان !

فرنكلين — أعترف بأن هذا يحدث .. لعله عشر مرات فى كل سنة .

أم النقارس — اعتراف أبتى ، والحق انه يتضاعف مائة مرة وتسعا وتسعين .

فرنكلين — أيمكن هذا ؟

أم النقارس — نعم ممكن لأنه واقع ، ولك أن تطمئن الى صدق كل ما أقول ، وأنت تعرف حقائق مدام بريون وتعلم أنها ما أصلحها للسير فيها .. انك تعرف الدرج الذى تعد منه مائة وخمسين من الأرض الى المرتقى الأعلى ، وانك لتزور هذه الأسرة المحبوبة مرتين كل أسبوع فيما بعد الظهيرة ، وانك لأنت القائل ان « التمرين » على صعود الدرج ونزوله أكبر من التمرين على المشى فى السهول . فما كان أجمل الفرص التى تتيح لك أن تجمع بين هذا التمرين وذاك التمرين . فهل انتفعت بهما ؟ وكم مرة يا ترى ؟

فرنكلين — لا أقدر على الجواب الصحيح عن هذا السؤال .

أم النقارس — اذن أتولى أنا الجواب عنك .. ولا مرة !

فرنكلين — ولا مرة ؟

أم النقارس — نعم ولا مرة . ففى أيام الصيف الماضى الجميل وصلت ثمة عند الساعة السادسة ، ووجدت ثمة تلك السيدة المليحة وأطفالها الحسان وأصحابها جميعا على استعداد لمزاملتك فى السير وامتاعك بأحاديثهم الرائقة . فماذا صنعت ؟ جلست على الشرفة وأثنت على المنظر الجميل وعانيت جمال الحدائق من تحتك ولم تخط خطوة واحدة لتهبط اليها وتسير فيها ، وعلى تقيض ذلك طلبت الشاي ورقعة الشطرنج ورسخت فى مجلسك حتى الساعة التاسعة ولعبت نحو ساعتين بعد تناول الطعام ، ولم تعد بعد ذلك الى منزلك مشيا كى تتحرك بعض الحركة ، بل عدت اليه جالسا فى مركبتك . فأية حماقة تلك التى تسول لك أن تظن أنك مع هذا الشطط تملك صحتك بغير زاجر منى ..

فرنكلين — الآن أومن بصواب ما قال ريتشارد المسكين حيث يقول ان ديوننا وخطايانا أكثر مما نحسب .

أم النقارس — ذلك حق ، وهكذا أنتم معشر الفلاسفة تملأون أفواهكم بالحكمة وتعملون عمل الجاهل .

فرنكلين — ولكن أترأى تعدينها من جنائياتى ، أننى عدت بالمركبة من عند مدام بريون .

أم النقارس — بكل يقين ، لأنك قضيت اليوم جالسا ولا يسعك أن تزعم أنك قد تعبت من الجهد والمشقة ، أو أنك فى حاجة الى الترفيه عنك بالجلوس فى المركبة .

فرنكلين — فماذا تقترحين اذن ، وماذا ترين أن أصنع بمركبتى ؟

أم النقارس — احرقها ان شئت . انها تعطيك على الأقل شيئا من الحرارة وهى محترقة ! وان كانت هذه النصيحة لا تروقك فانى بأذلة لك غيرها . انظر الى الفلاحين المساكين الذين يحرقون الأرض فى الكروم والحقول حول قرى باسى وأوتيل وشايوت . انك سترى كل يوم بين هؤلاء الخلائق المساكين خمسة أو ستة من الشيوخ أو العجائز قد انحنت

ظهورهم ورزحوا تحت وقر السنين في الكدح والمشقة ، وهم بعد العمل
المجهد طوال اليوم يمشون ميلاً أو ميلين كي يصلوا الى أكواخهم المصدعة..
فمر سائقك أن يدعوهم الى المركبة ويحملهم الى بيوتهم ، فانه لعمل
صالح تدخره لنجاة روحك ، ولئن عدت في الوقت نفسه على قدميك
من عند السيدة بريون ليكون ذلك عملاً صالحاً تدخره لجسدك .

فرنكلين — آه . ما أثقل حديثك !

أم النقارس — نعود اذن الى شغلنا . فلتذكر دائماً أنني أنا طبيبتك .
خذ هذه !

فرنكلين — آه . أوه . يالك في طبك من شيطانة !

أم النقارس — انك لتنكر الجميل اذ تقول ذلك عني . ألسنت قد
أنقذتك من الشلل بالقيام على تطيببك ؟ ألسنت قد أنقذتك من أدواء
الاستسقاء أو الفالج التي كانت وشيكة أن تقضى عليك لو لم أمنعها .

فرنكلين — أعترف بذلك ، وأشكرك على ما أسلفت ، ولكني أرجو
الآن بربك أن تفارقيني فراق الأبد . فقد يلوح لي أن الموت أهون من
علاج فيه مثل هذا الوجع ، واذكري كذلك أنني كنت صديقك ، وأنني
لم أدع أحد لمصارعتك ومنازعتك لا من الأطباء ولا من الرقاة
والممخرقين، فان لم تفارقيني الآن فأنت خليقة كذلك أن تهتمى بالجحود.

أم النقارس — لا اخالني شاكرة لك كثيراً على هذا . فأنني لأهزأ
بالرقاة والممخرقين ، وانهم لقادرون وعاجزون عن المساس بي في كثير أو
قليل . وكم من طبيب حق الطبيب يعرف أخيراً هذه الحقيقة التي تقول
له ان النقرس ليس بالداء ولكنه ضرب من الشفاء ، ولا لزوم لتعويق
أسباب الشفاء ، ولنرجع — بعد — الى عملنا .. خذ هذه !

فرنكلين — أوه آه . سألتك بالله الا ما تركتني وأنا واعدك منذ
اليوم ألا ألعب بالشطرنج وألا أدع الرياضة كل يوم ، وأن ألزم الاعتدال
مدى الأيام والليال !

أم النقارس — أعلم انك ستفعل . وأنتك تعد الوعود الجميلة وما تلبث بعد أشهر قلائل في الصحة والعافية أن تعود الى عاداتك ومألوفاتك وتذوب وعودك الجميلة كما ذابت ثلوج السنة الغابرة. فلنعد الى حسابنا ولنوازن بين كسبنا وخسارتنا ، ثم انى بعد ذلك تاركتك على يقين من الرجعة اليك في الوقت اللازم وفي المكان الملائم . فانه لمن مصلحتك واننى لك كما تعلم لنعم الصديق ! (١) .

الرفق بالحيوان

وكتب فرنكلين الى السيدة هلفيتس Helvétius قرينة الفيلسوف المعروف رسالة بلسان قسطها حين علم أنها تنوى أن تتخلص منها بمشورة بعض أصدقائها من القسس لأنها تغير على أقاص الطير التى تربىها فى قصرها ، فأرسل اليها هذه العريضة بلسان القطط تتوسل اليها أن تبقى عليها . فقال :

حضرة السيدة النابهة العلية الشأن والمقام

بلغتنا الساعة نبذة من خبر مرعب نفص علينا سعادتنا التى نعلم بها فى حظائر الطير والغاب لديك . بلغنا انك لما سمعته من بعض الوشائات من أعدائنا (الأب موريليه والأب روس) قد حكمت علينا بالنفى وأنا سنعتقل بوسيلة شيطانية ونحبس فى باطية ويقذف بنا الى أعماق النهر حيث ترك فيه لرحمة الأمواج ، واننا لنسمع فى هذه اللحظة التى نكتب فيها هذه العريضة المتواضعة ضربات المطارق فى أيدي الحوزية الذين عهد اليهم بصنع الآلة الجهنمية التى فيها هلاكنا .

ولكن — سيدتنا علية الشأن — أسمحين أن يقضى علينا هكذا دون أن يستمع للدفاع من جانبنا ؟ وهل تريننا وحدنا من الذين تطعمينهم وتغذينهم نحرماً ما فى صدرك الحنون من العطف والشفقة ؟ اننا

(١) من كتاب الخزعبلات The Bagatelles تأليف ريتشارد اميشر

Richard E. Amacher

نرى يدك الكريمة كل يوم تطعم مئات الفراخ والكنار والحمائم التي لا عداد لها كما تطعم عصافير الجيرة أجمعين وأسراب الشحارير في غاب بولون ، بل تسخو بالطعام والشراب حتى للكلاب في هذه الرحاب . فهل نحن وحدنا نحرم هذه الخيرات من يدك ولا يكفيننا هذا بل نصبح دون غيرنا هدفا للقسوة التي لا مكان لها بين ما ترك وسجايك ؟ .. كلا .. ان سجايك التي انطوت عليها فطرتك البارة ستعيد الى قلبك من عواطف الحنان ما هو أشبه بهذا الحنان .

وآسفاه ! ما هي جرائمنا التي اجترحناها ؟ . اننا نتهم — وما أكثر ما تفعله الوشائيات والتهم — أننا نأكل الفراخ الصغار ونغير من حين الى حين على الحمائم ونرقب طيور الكنار حتى تدنو منا فنقبضها ونُدع الفيران تعيش في دارك آمنة مطمئنة !

لكن هل يكفي مجرد الاتهام للادانة بالاجرام ؟ اننا لنستطيع أن ندحض هذه التهم جميعا في غير عناء ، وينبغي أولا ألا ننسى أنها لا تقوم على بيينة أو برهان .

فاذا سلمنا أن هناك بقية من أرجل الحمائم وريشها تقدم في معرض البيينة على ادانتنا فهل تصلح هذه البيينة للادانة أمام محكمة من المحاكم على وجه الأرض كلها ؟

ان الجرائم يخلقها العوز والحاجة ، ونحن بحمد الله في رحابك ثمانى عشرة قطة ننعم بالخير الجزيل ولا نشعر بالعوز ولا بالحاجة . فهل يعقل مع هذا أن نخدش اليد التي تطعمنا ؟ ألم تبصرى بعينيك فراخك تدنو منا وتأكل معنا من صحافنا ولا تعترضها حركة مسيئة من جانبنا ؟ واذا قيل لك اننا لا نلتهم الفراخ ونحن نحس رقابة الأعين علينا ، واننا تحت جنح الظلام نجترح ما نجترح من جرائمنا فانما هم أعداؤنا الذين يستترون بجنح الظلام لافتراء الأقاويل علينا . ويحق لنا أن نرميهم بذلك لأنهم ينسبون إلينا الجرائم الليلية التي يدحضها مسلكتنا في وضوح النهار .

وقد يقول أعداؤنا ان حظائر سيدتنا العلية الشأن تكلفها خمسة وعشرين لويزا ذهباً (أى ستمائة ليرة فى العام) وأنها لا تأكل منها أكثر من خمسين يحسب ثمن الواحدة باثنى عشرة ليرة لحسن تديرها وعنايتها بنفقتها .! فأين تذهب البقية يا ترى ؟

ولنا أن نسأل (أولاً) هل عدت الفراخ وسلمت إلينا فتحن مسئولون عنها ؟ وهل نحن دون غيرنا موضع الشبهة بين أولئك الأعداء المحيطين بها وأولهم أبناء آدم وحواء الذين يخالون أن الفراخ لم تخلق فى هذه الدنيا الا ليأكلوها ؟ فى كل يوم من أيام الآحاد يقدم على باب غاب بولون وفى منتديات أوتيل مئات من صحاف اللحم المفروم . أفلا يجوز أن يكون بعض فراخك قد تسرب فى لطف الى تلك المنتديات ؟ ان كان ذلك كذلك فلم نكن نحن يقينا من يتولى تسليمها الى أصحاب المطاعم والخانات ..

وبعد فنحن لا نريد أن نقف موقف الاعتذار لسارقى الدجاج، ولكنك — سيدتنا — تسمحين لنا أن نلاحظ أن فراخك على اختلاف الأسباب التى تنقصها وتقلل من عددها انما يجرى هذا النقص فيها على سنن الطبيعة ويعود عليك بالراحة والرضا . لأنه يحد من تكاثر نوعها وزيادتها على مقدارها ، ولو أنها تركت تنمو وتتكاثر بغير حد مقدور لم يبق فى رحابك متسع لها ولم تترك لك فترة للراحة من رعايتها .

أما الحمام فليسبح لنا أن نقول ان فراخا عدة من نسل « كوكو »^(١) قد غابت حقا ، ولكن هذا — مع عطفك عليه الى الحد الذى يبيح له أن يحطم خزفك الغالى ما دام يلقط الحب من يدك — لن يرضيك عن ظلمنا واتهامنا فى غير بينة . فأين هو الدليل الذى يثبت علينا أننا اعتدينا على ولد واحد من ذريته ؟ وهل يحدث بين نوعنا ونوعه أن تتقارب وتتلاقى ؟ ألا يزال على نأيه عنا والتجائه الى السقوف والقمم

· (١) اسم فرخ من الحمام محبوب عند مدام هلفيتس .

لأتقائنا مما يجيز لنا أن نغضب لكرامتنا ؟ . اننا نلرجو أن تفتش حظيرة الغاب في الربيع القادم ونحن كهيلون في حالة الكشف عن جريمة من جرائم الغيلة أن نسلم الجناة الى أيدي العدالة . لكن الحمائم ليست مثلنا نحن معاشر القطط المساكين مرتهنة بالأرض التي ولدنا عليها ، وقد تلوذ بالهواء وتطير الى مكان قصي غير هذا المكان ، وربما غار بعضها من ايثار فريق منها لديك على فريق فغادرت الديار طلبا للمساواة في وكن جمهوري من أوكان الطيور ، مؤثرة هذا القرار على البقاء في الديار ، على مشهد من كبرياء (كوكو) الثرثار .

أما التهمة التي رمينا بها من أجل طيور الكنار فانك لترين عفوا بغير عنت أنها محض سخافة وتلفيق . فان فتحات القفص الكبير الذي تقيم فيه أضيق من أن تتسع لمدخلنا ، وربما خطر لنا من باب اللعب واللهو أن نرج بأيدينا خلالها فلا تقدر على اخراجها بعد ذلك بغير جهد ومشقة ، وقد يحدث أحيانا أن نسرى عن أنفسنا بالنظر الى تلك الخلائق الصغيرة البريئة ولا نذكر أننا ندين أنفسنا باهدار قطرة واحدة من دمها .

ولسنا نحاول أن ندافع بمثل هذا الدفاع عن أنفسنا فيما يخص العصافير والشحارير والزرراير التي تتمكن من اقتناصها . الا أننا نسوق في مساق المآذير أن عدوينا الأيوين طالما اشتكيا هذه الطيور واستكرا منها تلك المتالف التي تصيب بها أشجار الكراز والشرات ، وكثيرا ماسمعا الأب موروليه يصب اللغات على الشحارير والزرراير التي تغير على كرومك بغير رحمة ، وتصنع مثل صنيعة بتلك الكروم . ونحن نرى — سيدتنا عليّة الشأن — أن العنب أهل لأن تأكله الشحارير كما تأكله الآباء ، وأن حملتنا على النابهين المجنحين تذهب سدى ان كنت مع هذا تشجيع النابهين بغير ريش على انتهاب أضعاف ما ينتهبه المجنحون .

واننا لنعلم أننا متهمون كذلك باقتناص البلابل التي تغرد تغريدها الجميل كما يقولون ولا تنتهب شيئا من البستان . ويجوز أننا من حين الى حين نظرف حلوقنا بلقمة سائغة من هذا النصيب ولكننا نؤكد لك

أننا نفعل ذلك عن جهل منا بعطفك على هذه الفصيلة وانها لمشابهتها بعض العصافير والزرارير الأخرى يلتبس علينا الأمر بينها ولا ندعى لأنفسنا من الخبرة بفن الموسيقى ما تفرق به بين الزقاء والغناء فنأكلها ونحن نحسبها من تلك الزمرة المستباحة لنا . وقد سمعنا من قطة عند الموسيقار بيشيني Piccini أن الخلائق التي لا تحسن من الأصوات غير المواء ، لن تكون حكما خيرا بأصوات الغناء ، وعلى هذا نعول في تسوينغ ذلك « الاعتداء » .

على أننا منذ اليوم سنبدل غاية الوسع في التمييز بين الجلكتين وهم العصافير وبين البشنيين وهم البلابل فيما يروى العارفون^(١) ولا نلتبس الا العفو عن خطئنا اذا اتفق في جولة من جولاتنا بين الأعشاش أن نعر على طائفة من البشنيين لم ينبت لها الريش بعد ولم يسمع لها صوت في الغناء فلا تميز بينها وبين طائفة الجلكتين .

وخاتمة التهم التي نرمى بها — سيدتنا العلية الشأن — أننا ترك دارك عرضة لذلك الجيش من الفيران يغير عليها في أمان ، ويقال انها تهرض المقادير الجمة من السكر والحلوى وتعدو على كتب علمائك وحكمائك وتجترىء حتى على قرض أخفاف وصيفتك القديمة الآنسة لويليه وهي تلبسها وتمشى فيها !.

ويقال في سياق الاتهام ان العناية الالهية التي ترعى جميع خلائقها في الحقيقة على السواء لم تخلق القطط الا لاصطياد الفيران . فان هي قصرت في هذه المهمة فلا جزاء لها على التقصير في رسالتها الالهية غير الاغراق .

والحق — يا سيدتنا العلية الشأن — انه لمن أيسر الأمور أن تنكشف هذه التهمة عن أهواء أعدائنا وأغراضهم الشخصية .. فان السيد

(١) نسبة الى جللك Gluck الموسيقي الالماني وبشيني الموسيقي الايطالى وكان لهما حزبان متناظران في أندية باريس ومعاهدها الفنية .

كابانيس نزيل قصر ك الذي لا يزال على استعداد لاختلاس قالب من السكر كلما سنحت له الفرصة لذو مصلحة عظيمة في اقتناك بجسامة جشع الفيران كلما قرضت قطعة من السكر أو شرعت في لحس قدر من المربي قبل أن يصل إليها ، غير أنه يفتر عن القسوة — لا عن الغرض فحسب — اذ يقضى علينا بالموت لأننا لا نحول بين تلك الخلائق الصغار التي تعتنم ما تقدر عليه من الفرصة لاستغلال خطة النهب التي يقترفها — على جلالة قدره — كل يوم بغير أسف وبغير ندم .. أفي وسعه يا ترى أن يشتط في قسوته وراء هذا الشطط لو أننا نحن كنا مثله ومثل الفيران من آكلات السكر والمربي ؟ ألا يظهر من هذا جلياً أن النهم وحده هو الذي يوحى إليه بمثل تلك البواعث النفسية المنكرة ، وهل تسمحين أنت أن تفسحي لها مكاناً في صدرك الحنون ؟

أما كتب الأب دي لاروش وزميله العالم الآخر الذي اطلعنا على خطابه في الأكاديمية في صحيفة لففت بها الرقائق التي أنعمت بها علينا من لحم العجل ، فأى ضرر ياترى في اقدام الفيران على قرضها من حين الى حين ؟ وما هي جدوى ذلك الاطلاع الواسع على أولئك العلماء ؟ أفما يحق لهم أن يعلموا — وقد عاشوا معك — انه لا جدوى من كل معرفة ؟ انهم يعلمون انك طيبة خيرة بغير اطلاع على المقولة في أصول الأخلاق ، ويعلمون انك مليحة الشمائل بغير اطلاع على كتاب مسجلنا التاريخي منكريف الذي سماه صناعة الارضاء والاعجاب ، ويعلمون أنك سعيدة بغير اطلاع على مقولة السعادة التي ألفها التعس موبرتويس Maupertius . وانهم لشهود يوميون على مبلغ جهالتهم وهم العلماء بكل تلك المعارف عاجزون عن تحصيل تلك المعرفة التي تعرفينها جيداً وهي القدرة على الاستغناء عن كل معرفة . ان علمك بالهجاء كعلمنا ، وان خطك يشبه كثيراً أنايش أيدينا ، وانك تخطئين في هجاء كلمة السعادة ولكنك تستمتعين بالشئ نفسه ، دون أن تعلمي كيف تكتب حروفه ، تلك المتعة التي لا يقدرّون هم — مع كل ما عندهم من

الكتب — أن يستخرجوها من صحائفها . وأنت بعد تفيضين عليهم من عظمة جهالتك ما يحيط بهم ويطويهم بين أكنافها . فليس في استطاع الفيران كما أثبتنا بالبرهان أن يصيبوهم بضرر بليغ . وأما أخفاف الوصيفة فإن الفيران لم تكن لتدركها لو لم تكن الوصيفة تمشى كأنها نائمة ، والعجب منك — سيدتنا — أن تقضى علينا بالموت لأن وصيفتك تمشى بخطوات حازون !

وهذه البراهين على قوتها ليست هي عذرنا الوحيد بين يديك من التلف الذى توقعه الفيران بما فى دارك . آه أيتها السيدة العلية الشأن .. بأى ضمير يجوز اتهامنا فى حين نراك أنت تصحين كلبك المتعطشين الى دمائنا فلا نجترى على الاقتراب منك لأداء واجب التحية التى تنبغى لسيدتنا ؟! كلبان اثنان ! يكفى هذا يا سيدتنا وأنت لا يخفى عليك أنهما من نوع تربى على بغضنا ويملأنا الرعب كلما استمعنا الى نباحهم على مقربة منا ... كيف يجوز لأحد أن يظلمنا باللام اذا ابتعدنا من الأماكن التى تقسيم فيها حيوانات بهذه الضراوة وهذه الكراهية المطبوعة لنا وهذه القدرة على اهلاكنا وهى طليقة لا يكبح لها عنان ؟! .. ولو كان الخطب خطب الكلاب الفرنسية وحدها لأمكن أن تخف وطأتها ويهون الخوف من ضراوتها . ولكنك تدخلين فى خدمتك — على خلاف الأوامر من الرقيب العام — كلبا من فصيلة البلب دوج تأتين به من البلاد الانجليزية التى تكرهنا ضعفين لأننا قطع ولأننا فرنسيات ! وحسبنا ما نراه كل يوم من أثر بغضائه فى ذنب أخينا المبتور لينوار Le Noir ، ولا شك أن غيرتنا على خدمتك وأذواقنا التى ركبت على اشتها الفيران كانت قيمة أن تؤلف منا طوائف طوائف للصيد فى مسكنك لو لم تكن منفيين منها بالخوف من أولئك الأعداء الذين تبيحين لهم السيطرة عليها ، فلا يلومنا أحد بعد الآن على التلف الذى يحيق بدارك من غارة الفيران ونحن على ما نحن عليه مجردون من كل وسيلة لقمعها واقصائها .

وآسفاه . لقد ذهب ذلك الزمان . ذهب ذلك الزمان الذى كان ذلك القط الفاخر بومبون Pompon يسيطر على هذه الأماكن جميعا وينام فى حجرى ويضطجع على وسادتك ، وكان ذلك الكلب زميرا الذى يسعى اليوم سعيه لاسقاطنا يتزلف الى ذلك المجدود الذى يحتل الآن مكانه . لقد كنا يومئذ نجوس خلال الدار وأذنا بنا مرفوعة فى الهواء ، وكان المرحوم بومبون ينزل أحيانا الى مشاركتنا فى قسمة الأرناب التى كان صاحب الجلالة يبعث بها الينا عقب عودته من رحلات الصيد ، وكنا فى ظل تلك الخطوة الفاخرة نسعد بالأمن والسعادة .

ونعود فنكرر الأسف على تلك الأيام التى خلت ، وعلى العهد القططى الذى خلفه هذا العهد الكلابى ، وقد كانت الحظوظ حظوظنا فى أيام دولته ، فأما اليوم فكل ما نملكه من العزاء أن نذهب الى ضريحه ونروى بدموعنا غصون البان التى ترفرف على مشواه الأخير .

آه . أيتها السيدة العلية الشأن . لتكن ذكرى ذلك القط الحبيب باعثة فى صدرى على الأقل شيئا من الرأفة بنا ، ونحن لا ندعى أننا من زمرته لأنه كان منذورا للعفة من صباه ، ولكننا من نوعه على كل حال ، ولا يزال طيفه يحوم حول هذه البقاع ويدعوك أن تنقضى ذلك الحكم الدموى الذى يتوعدنا ، وكل ما تسدينه الينا من البقايا الصالحات موقوف منذ اليوم الى أواخر أيامنا على المواء لك بوفائنا الدائم ، حافظين ذكراه الى أبنائنا وأبناء أبنائنا جيلا بعد جيل .

شواغل الشيخوخة

وكان الاقتصادى الانجليزى جورج هويتلى صاحب كتاب أصول التجارة صديقا لفرنكلين يهتم مثله بالمسائل الاجتماعية الانسانية ، فكتب اليه فى الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٧٨٤ خطابا يعتب فيه على تأخير الرسائل ويتناول فيه بعض المسائل التى تعرف من جواب فرنكلين اليه ، فكتب اليه فرنكلين جوابه هذا فى الثالث والعشرين من شهر

مايو سنة ١٧٨٥ بعد نبذة وجيزة أرسلها اليه قبل ذلك ، واستهل الجواب المسهب بالاعتذار وأتبعه بالرد على المسائل الأخرى . قال :

« كنت اليك بضعة أسطر منذ أيام ومعها الوسام ، وكان ينبغي أن أكتب اليك أكثر من ذلك لولا أنني فوجئت بفضولي شغلي الى مساء ذلك اليوم ، فاحتملته جهدي كما أرجو أن تحتملني جهديك الآن . فلعلني أفيض في ثرثرة الفضول بما أوجب به الآن .

لا أعرف كلمة الفونس Alphonsus التي أشرت اليها مستشهدا بها على صوابك في التشدد اذ تأبى أن تتقبل علة الشيخوخة عذرا من تأخير المراسلة . فما هي تلك الكلمة يا ترى ؟ انك على ما أرى لا تشعر بالداعي الى ذلك الاعتذار وان كنت كما قلت لي تصعد الى الخامسة والسبعين .. لكنني أنا أصعد الى الثمانين ، أو لعلني أنحدر اليها ، وأدع الاعتذار الى أن تبلغها أنت عسى أن تكون أدنى الى قبوله والايمان بصحته ، وتراه أنت صالحا للاتفاق به يومذاك .

وأوافقك على أن النقرس سيء وان الحصة أسوأ ، وأحسبني سعيدا لأنني لم أجمع بينهما معا في وقت واحد ، وأدعو معك أن تعيش وتودع الحياة بمنجاة من هذه وذاك . الا أنني أزعم أن صاحب القبرية التي أرسلتها الى على خطأ فيما أوصى بكتابته على قبره وهو : «لم يحفل بمقدار ذرة أن يقول القائلون خيرا أو شرا في ساكن هذه الحفرة » ... فانه لمن طبيعة الانسان حيا أو ميتا أن يحب ذكره بالخير ، ولا أخاله معفى من هذه الرغبة والا لما شغل نفسه بما يكتب على قبره .. ولقد كان — كما يظهر من قبريته — يحب أن يقال انه رجل ساخر من أصحاب النكتة ... أو ليس جديرا منه بمثل هذا الشغلان أن يقال ما كان أصدقه أو أطيبه من انسان ! وتعجبني أكثر من هذا خاتمة الأثسودة التي عنوانها أمنية الشيخ التي يذكر فيها الناظم انه يتمنى في الشيخوخة البيت الدافئ في بلدة من بلاد الريف والجواد الطيع والكتب الممتعة والرفاق الموافقين من ذوى البشاشة والذكاء ، وفطيرة في يوم الأحد وقبينة من

الجمعة وأخرى من خمر برجندى الى أن يقول ويعيد هذه المقولة في ختام كل قطعة :

وليتنى أملك شعورى كالملك المطلق ، وأزداد فى الحكمة والخير كلما تقصت قواى ، ولا تقرس ولا حصاة ، الى أن تحين الوفاة .

ولقد أضاف الى تلك الأمانى أمنيته الأخرى قائلا : « وبالشجاعة التى لا تهن ولا تضعف ليتنى أواجه اليوم الأخير ، وليت خيار الناس يقولون بعد اليقظة فى الصباح أو بعد الشراب فى المساء : لقد ذهب بغير نظير ، لأنه حكم شعوره حكم السادة المطلقين ! » (١) .

على أنها محض أمنية . وماذا تغنى الأمانى ! ان الأمور لتجرى كما يتفق لها . وقد انشدت ذلك النشيد ألف مرة فى شبابى ثم بلغت الثمانين فاذا بالمحظورات الثلاثة قد اصطلحت على . فتعرضت للنقرس وللحصاة ولم أملك شعورى كالملوك المطلقين ! وكأنتى تلك الفتاة المترفة التى نذرت ألا يكون زوجها من طائفة القسس ولا من الكنيسة المشيخية ولا من أبناء ايرلندة . فلما تزوجت اذا بالثلاثة يجتمعون فى واحد : قسيس ايرلندى من الكنيسة المشيخية .

وانك لترى اذن اننى أتمنى — لسبب معقول — ألا أكون فى الحياة الأخرى كما كنت فى هذه الحياة وحسب ، بل أفضل وأسعد ولو قليلا ... ولى رجاء فى ذلك لأننى كشاعركم أو من بالله ، ويؤيد هذا الرجاء أننى أرى فى آيات خلقه دلائل القصد والتدبير ، وهى ظاهرة فى ابداعه وسيلة التناسل والتجديد التى تعمر عالمه بالنبات والحيوان بدلا من خلقها كل مرة من جديد ، وظاهرة كذلك فى جعل الأشياء قابلة للرجوع الى عناصرها الأولى كى تصلح لاستخدامها فى تركيب بعد تركيب بدلا من خلق مادة جديدة فى كل حين ، وهكذا قد يتركب الخشب من التراب والهواء والنار

(١) صاحب هذه الابيات فلكى انجليزى هو والتربوب Walter Pope

توفى سنة ١٧١٤ .

ثم يعود بعد انحلاله ترابا وماء وهواء ونارا ... وكلما نظرت فلم أر شيئا يفنى ولا قطرة ماء تضيع في الغمار لم يسعنى أن أتصور فناء الأرواح ولا أن أعقل أنه يدع الملايين من العقول تزول وينشئ في مكانها عقولا أخرى بادية ذى بدء كأول مرة . ولهذا أرى نفسى في الدنيا وأعتقد أننى باق فيها على صورة من الصور ، واننى على كل ما في الحياة الانسانية من النقائص والنقائص لا أمانع في اخراج طبعة جديدة منى ، على أمل في تصحيح الأغلاط التى كانت تشوب الطبعة السابقة .

— أعيد اليك مذكرتك عن الأطفال الذين تلقاهم ملجأ اللقطاء في باريس من سنة ١٧٤١ الى سنة ١٧٥٥ وقد أضفت اليها السنوات السابقة منذ سنة ١٧١٠ مع بيان تسجيلات التنصير واحصاء السنوات اللاحقة الى سنة ١٧٧٠ ، ولم أستطع العثور على غير هذا الاحصاء ، وفي الهامش ملاحظات على التدرج في الزيادة من اعتبار الطفل عاشرا الى اعتباره ثالثا بين المواليد. وقد مضت خمس عشرة سنة منذ ذلك التاريخ فلا يبعد أن النسبة قد وصلت اليوم الى النصف ! فهل من الصواب تشجيع هذا النقص في حاسة العطف الطبيعية ؟ اننى لقيت طبيبا هنا يتهم نساء باريس بقلة الصبر أو قلة القدرة على الارضاع ، ويؤكد لى ذلك قائلا انك تستطيع أن تعرف ذلك من النظر الى صدورهن السوية ! فليس فيها نمو أكبر من النمو الذى تراه على ظهر كفى ! ومنذ ذلك الحين يلوح لى أن كلامه لا يخلو من الصدق وان الطبيعة أحست أنهم لم ينتفعن بالأثداء فكفت يدها عن ملئها . هذا وان تكن الحالة قد تغيرت بعض الشيء منذ تكلم روسو بفصاحته المعجبة عن حق الأطفال في ألبان أمهاتهم فأصبح بعض النساء من العلية يرضعن أبناءهن ويجدن في أثدائهن اللبن اللازم للرضاع ، وأسأل الله أن تهبط « البدعة » الى الطبقات الدنيا فتبطل تلك العادة التى مردن عليها : عادة القاء الأطفال الى الملاجىء زاعمات في غير اكتراث ان الملك أقدر على تربيتهن وتموينهم منهن .

وقد اتصل بى من ذوى ثقة ان تسعة أعشارهم يموتون على الأثر مما

يفرج عن الملاحيء التى لا تكفى مواردها لولا ذلك للاتفاق على البقية .
 أما فيما عدا النسوة القلائل من العلية اللاتى أشرت اليهن ، وفيما عدا
 غيرهن ممن يضعن أبناءهم فى المستشفيات فالعرف الشائع أن يدعى
 بالمرضعات من الريف ليعهد اليهن فى تربية الأطفال هناك ... وفى المدينة
 مصلحة تعنى بالكشف على المرضعات واعطائهن الشهادة التى تثبت
 صلاحهن لهذا العمل ، وكثيرا ما نراهن عائدات الى قراهن يحملن طفلا
 على كل ذراع ، ولكن الفئة التى تبلغ بها الطيبة أن تربي أطفالها على
 هذا النحو قد تعوزها النفقة التى تكفى للتربية ، وتمتلىء السجون
 بالآباء والأمهات المقصرات فى هذا الواجب وان يكن من العادات المستحبة
 هنا أن يؤدى المحسنون غرامة أولئك الآباء والأمهات لتسريحهم من
 السجون ، وحذا لو أفلح المشروع الجديد الذى يدبر الوسائل لتمكين
 الفقراء من تربية أطفالهم فى البيوت ، اذ لا مرضع كالأم ، أولا كثير من
 المرضعات يغنين غناءها ، ان وجدن . ومتى بقى الطفل فى حجر أمه أياما
 ولم يجعلوا بارساله الى الملجأ تمكن حبه من قلوب أبويه وبذلا من الجهد
 فوق ما يبذلانه لكسب الرزق والاتفاق عليه . وانها لمسألة تعرفها أنت
 خيرا من معرفتى فحسبى ما ذكرت عنها الآن ولا أزيد عليه الا ملاحظة
 مقتبسة من تاريخ مجمع العلوم تشى على ملاحيء اللقطاء .

— يسير مصرف فلادلفيا سيرا حسنا على ما سمعت ، وما تدعوه
 معهد سنسناتى ليس بمعهد من معاهد حكومتنا بل جماعة خاصة ألفها
 الضباط فى الجيش السابق وتكرهها جمهرة الشعب من أجل ذلك حتى يغلب
 على الظن أنها ستنحل ، وكان المظنون أنها محاولة لانشاء طبقة وراثية
 كطبقة النبلاء ، وأوافقك على أنها خطأ ثم أزيد على ذلك ان كل
 « التشريعات » الموروثة خطأ وسخافة ، فانما الشرف شرف الأعمال
 الفاضلة لمن يقوم بتلك الأعمال وليس من طبيعته أن ينقل من انسان الى
 انسان ، واذا صح أن ينقل من وارث الى وريث وجب أن يقسم بين
 جميع الوارثين وقل نصيب كل وارث تبعا لتقدم العهد وازدياد العدد ،
 ودع عنك ما يحدث من الاقتضاب والاقطاع أثناء الطريق .

وظهر أن دستورنا — أو مواد اتحادنا — غير مفهومة لديك ، فلو كان المؤتمر — الكونجرس — هيئة دائمة لكان من الخطر ودواعي الحذر تخويلها السلطان ، غير أن أعضاءها ينتخبون كل سنة ولا ينتخبون ثلاث سنوات على التوالي ولا ثلاث سنوات في خلال سبع سنوات ، ويجوز على كل منهم أن يستعاد اذا كانت دائرته الانتخابية غير راضية عن مسلكه ، وكلهم من الشعب ويعودون أخيرا الى الشعب بغير صفة دائمة تميزهم الا كما تمتاز حبات الرمل في الساعة الرملية ، ومثل هذه الجماعة لا يسهل أن تكون خطرا على الحرية العامة ، وأعضاؤها خدام الشعب يجتمعون معا لخدمة الشعب ورعاية مصالحه فلا يتيسر لهم أداء واجباتهم ما لم تكن لهم القوة الكافية لحسن أدائها ، وليست لهم رواتب مجزية غير الأجور اليومية التي قلما تساوى نفقاتهم ، وهم لقلة حظوظهم من المناصب والرواتب والمعاشات التي تعطى في بعض البلاد لا يدعو الأمر معهم الى الدس أو الرشوة أثناء الانتخاب .

واننى لأتمنى لانجلترا — العجوز — توفيقا كهذا التوفيق في نظام الحكومة ولا أراه . فان قومك يحسبون دستورهم أفضل الدساتير في العالم ويظهرون الازدراء بدستورنا ، ولعله من أسباب الرضا أن يحسن الانسان ظنا بنفسه وبكل ما ينتسب اليه ، وأن نعتقد أن دياتنا ومليكتنا وربة بيتنا خير الديانات والملوك وربات البيوت ، ومما أذكره أن ثلاثة من جرينلاند ساحوا نحو سنتين في أوربة برعاية المرسلين المورافيين فزاروا ألمانيا والدمرك وهولندة وانجلترا وسألتهن في فلادلفيا وهم قافلون الى بلادهم الأمريكية عما اذا كانوا بعد ما شاهدوه من معيشة الرجل الأبيض بصنع يديه يؤثرون البقاء بيننا ؟ فكان جوابهم انهم مسرورون بما شهدوه من المناظر الكثيرة ولكنهم يؤثرون المعيشة بين قومهم وفي ديارهم ، وهى لعمرك أرض صخرية لم يجد المورافيون بدا عن زيارتها من ثقل الطين في سفينتهم من نيويورك لزرع الكرنب فيها .

— أشك فيما بلغ مستردونالد عن تركيب النظارة التي اخترعتها لقوله

انها تصلح لأناس دون آخرين . ويخيل الى أن القول بأن التحديب الذى يصلح للقراءة لا يصلح للنظر البعيد صوابه، ولهذا كان لى من قبل نظارتان أبدل بينهما فى السياحة لأننى أقرأ حيناً وأحب التطلع الى المناظر حيناً آخر ، ووجدت هذا التبديل متعباً لا يسعنى فى كل وقت فقطعت الزجاج ووضعت نصفاً من كل نوع فى الحلقة الواحدة ، واستطعت بهذه الوسيلة أن أدير بصرى علواً أو سفلاً مذ كنت أستمر على وضع النظارة فوق عيني ، ووافقتنى ذلك على الخصوص فى مقامى بفرنسا حيث وجدت أن النظارة التى ترينى صحاف الطعام أمامى لا ترينى وجوه الجالسين على الجانب الآخر من المائدة وهم يتحدثون الى . ولا يخفى أن الأذن اذا لم تكن قد تعودت على تمييز لهجة الكلام فى لغة من اللغات فنظرة العين الى ملامح المتكلم تساعد على الايضاح ، وهكذا أصبحت أفهم الفرنسية بمساعدة النظارات .

— انى أشرح لترجمة رسالتك الشخص الوحيد الذى أعرف أنه يفهم الموضوع كما يفهم كلتا اللغتين ، وهذا عندى هو شرط المترجم والا تعذر عليه اتقان الترجمة ، وهو الآن مشغول بعمل لا يمكنه من الاشتغال بترجمة الرسالة ، وسيفرغ منه قريباً .

— أشكر لك تعليقاتك وأود لو أخصل على غيرها من الكراسات المطبوعة .

— واننا على الدوام مرحبون بالأطفال فى أى وقت تشاء أن ترسلهم الينا . وكل ما ألاحظه أن لندن تستوعب عدداً كبيراً من أبناء الريف ، فمن الحق أن يتسع الريف لمن يعرضهم من أولئك الأطفال ، وهذا مع كثرة الذين ينزلون عن حريتهم الانسانية ليعملوا حيناً عمل الخدم أو يعملوا طوال العمر عمل الجند — برهان فى نظرى على ازدحام جزيرتكم ... ومع هذا نراها تخاف من المهاجرة ..

وداعاً أيها الصديق العزيز ، واننى على الدوام صديقك المخلص ..

الاعداء في الوطن

وكتب اليه صهره ريتشارد باخ يقول أن آرثر لى ووالف ازارد من أهل بنسلفانيا المقيمين في باريس يسوءون سمعته ويشهرون به لأنه اتخذ « تمبل » حفيده سكرتيرا له مع أن أباه كان مواليا لبريطانيا العظمى ، فأجابه فرنكلين بهذا الخطاب :

باسى — في الثاني من شهر يونيو سنة ١٧٧٩

اننى مستريح البال من ناحية تلك المساعي التى يقوم بها (ل) و (ر) للاضرار بى فى العدو الأخرى من المحيط ، ومطمئن الى عدالة المؤتمر — الكونجرس — وأنه لن يصغى الى تهمة توجه الى دون أن أعلم بها قبل ذلك ويتسع لى الوقت للاجابة عنها ، واننى لأعلم أن ذينك السيدين ينطويان لى على أسوأ النيات وان لم أسىء الى أحد منهما أو أمسه بما يسوغ له أن يشعر بالمساءة . غير أن السمعة الكبيرة التى تحيط بى والمحبة التى ألقاها من القوم هنا والتوقير الذى يقابلوننى به ، بل التحيات التى يخصوننى بها تحزن ذينك السيدين التعسين : التعسين حقا بما اشتملت عليه طواياهما من الظلام والحقد والغيرة والشبهة والحسد والضغينة . وان النفس الطيبة ليكفيها ما تجده من الحزن لمصائب الآخرين . أما الذين يزعمهم كل حظ طيب يتملاه غيرهم فلن يسعدوا قط ولن يستريح لهم بال ، وليس بى من حاجة الى الانتقام من أمثال هؤلاء الأعداء غير أن أتركهم حيث أوقعتهم طبائعهم الناقمة مجتهدا أن أحافظ على الخصال التى تجعلنى أهلا للرعاية والتقدير ، وكلما دامت لى السمعة التى يحيطنى بها الناس أدمتهم فى تلك اللعنة التى يتمرغون بها ، ولا يخطر لى أن أغير من خصالى كى أخفف عنهم بعض ما يعانون .

ويدهشنى أن أسمع أن وجود حفيدى تمبل فرنكلين معى يستوجب النعمة منى والسعى فى اقضائه عنى ، وأحسب بحق أننى أحسنت بحمايتى

هذا الفتى أن يصبح من زمرة المحافظين الانجليز وابقائه الى جانبى فى زمرة خدام الجمهورية الأحرار ، وأرى من مبادئه الحرة واستقامة خلقه ودأبه على العمل وفطنته المبكرة وكفايته النادرة أنه وشيك أن يكون عظيم النفع لوطنه ، وكفى أننى فتقدت ولدى فهل يريدون فوق ذلك أن أفقد حفيدى ؟ اننى شيخ فى السبعين عمدت الى رحلة شتوية باذن الكنجرس وليس معى من يتولى العناية بى سواء ، ولا أزال هنا فى بلد أجنبى يكلاأنى برعايته البنوية اذا مرضت ويغض عيني ويحرس ما عندى من بقية تراث اذا حم الأجل .

ان أدبه فى معاملتى ونشاطه ودأبه فى عمله يرضينى ويفيدنى ، وسلوكه فى عمل الأمانة على السر — السكرتارية — لا غبار عليه ، واننى لوائق أن الكنجرس لا يفكر فى الفصل بينه وبينى .

واننى كذلك لعظيم الغبطة بولدا « بن » ^(١) وأراه خليقا أن يصبح رجلا ذا شأن . وقد انتفع من المدرسة الداخلية التى هو فيها جهد ما ينتفع بالتعليم فى تلك المدرسة ، وقد فكرت فى المدرسة التى تفضلها بعد هذه الخطوة فاستقر عزمى على ادخاله مدرسة أعلى منها بمدينة جنيف ، والفرصة حسنة لأننى أعرف سيدا من أهل المدينة له ولد فى مثل سنه يتعلم فى تلك المدرسة بعينها ، وقد وعدنى أن يتكفل برعايته وتبادلته معه فى هذا الصدد رسائل أبعث بها اليكم مع هذا الخطاب ، وقد سافر « بن » فرحا وفهمت أنه سعيد جدا بهذه النقلة الى المدرسة الجديدة . ولقد أوحشنى غيابة عنى أيام الأحاد وفى نيتى اذا عشت أن أذهب الى سويسرة فى الربيع القادم لأراه وأرى فى الوقت نفسه تلك الولايات الثلاث عشرة العجوز فى البلاد السويسرية .

والحمد لله . اننى ماض على صحة ورضا ، واننى أكبر وأشيوخ ، ولكننى فيما أظن لم يصبنى تغيير كبير فى السنوات العشر الأخيرة ، ويعاودنى

(١) ابن ريتشارد باخ صاحب الخطاب .

القرس من حين الى حين ولكنهم يقولون انه الى العلاج أقرب منه الى انحراف المزاج ، والله يباركم ويتولاكم ..

جواب على تحذير

وحذره هارتلى من أعدائه وأوصاه باتقاء الخطر على حياته ، فكتب اليه فرنكلين كما جاء في خطاب نشره حفيده يقول فيه :

« شكرا لك على تحذيرك . غير أنني قاربت النهاية من عمر طويل ولست أبالي كثيرا بما بقى منها ، وانما هي عندي كالفضلة من الثوب يقول البائع للشارى الذى يلح فى المساومة عليها : خذها كما تريد أو بالثمن الذى تريده ولا خلاف بينى وبينك عليها فما هى الا بقية ! وربما كان أنفع شيء يصنع بالشيخ الذى بلغ هذه المرحلة من العمر أن يحشر فى زمرة الشهداء .

بيان عن خدمات وطنية

وكتب الرسالة التالية الى شارل تومسون سكرتير الكنجرس على أثر اشاعة بلغته عن أناس يزعمون أن الحكومة وضعت بين يديه أموالا كثيرة قد تأخر حسابها ، وكانت الحقيقة على عكس ذلك ، اذ كان الكنجرس يرجىء حسابه ولا يعطيه ما استحقه بخدماته ، ويسأل فرنكلين صديقه عن الوسيلة المثلى لانجاز المحاسبة وتوفية تلك الحقوق :

فلادلفيا فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٧٨٨

صديقى العزيز القديم

أرسل مع هذا خطابا الى رئيس الكنجرس فى الوقت الحاضر أرجو أن تراجعهم وتبلغنى ما تراه اذا عَنَّ لك فيه ما يدعو الى الملاحظة أو التنقيح ، واننى أعتمد كثيرا على نصيحتك الأخوية لأنك تعلم ما لست أعلمه عن الأشخاص والأحوال ، وأظن أن فى الوقت متسعا قبل تأليف

الكنجرس الجديد للتنقيح الذى تشير به ، على أن يكون تقديم الخطاب
— اذا قدم — الى الرئيس القديم .

وستجد فى خطابى الى مستر باركلى اشارة الى « أعمال هامة لم أثبتها
فى حساب الكنجرس وأرجو من انصافه أن يكون لها اعتبار فى التقدير » .
ولكى تكون على علم بهذه الأعمال أبعث اليك مع هذا الخطاب بيان
مجمل عن الخدمات التى قمت بها للولايات المتحدة ، ومنها أعمال نافلة
لا تتصل بوظيفة السفارة ، كعمل القضاء فى البحرية ، وعمل القنصلية
قبل وصول مستر باركلى ، وعمل الصرف لمراجعة قوائم المصارفة
وسفاتها ، وعمل السكرتارية عدة سنوات ، وسائر هذه الأعمال التى
لم أتناول شيئاً عنها وكانت لها مكافآت ترسل الى السفراء الآخرين .

وأصارحك اننى آمل — كما جرت العادة فى القارة الأوروبية — أن
يمنح السفير بعد اعتزاله منحة يستعين بها على اصلاح شئونه الخاصة
التى لا شك أنها تصاب بالضرر أثناء غيابه واقطاعه عن مباشرتها فى
وطنه ، ورجائى أن يتفضل الكنجرس بمنحى قطعة من الأرض فى أقاليم
الغرب يستفاد بها وتبقى لذريتى شرفاً وذكري ، ولا أخال الا أن
الكنجرس صانع " شيئاً من هذا القبيل عند النظر فى خدماتى وأعمالى
كما أرى من تقديرهم السخى لخدمات مستر لى فى انجلترا قبل ذهابه
الى فرنسا ، وهى خدمات وأعمال كان لى ولمستر بولان Bollan
معاونة فيها ولم نحصل على مثل هذه المكافأة عنها . وقد كوفىء مستر
لى بعد عودته بمنصب حسن كما كوفىء صديق مستر جاى Jay ، وان
تكن هذه المكافأة زهيدة بالقياس الى انعام الملك على مسيو جيرار
Gerard عند عودته من الديار الأمريكية .

أما فى أمرى أنا بعد عودتى فما أبعد الاختلاف !

رجعت من انجلترا سنة ١٧٧٥ فتفضل الكنجرس على بوظيفة مدير
مصلحة البريد مشكوراً على فضله ، وهى وظيفة أحسب أن لى بعض

الحق فيها منذ توليتها تحت التاج فأصلحت نظامها وضاعفت مواردها ، وتركتها لصهرى بعد سفرى الى فرنسا يقوم فيها بوظيفة الوكيل ، ولم يمض غير قليل بعد سفرى حتى حولت هذه الوظيفة الى مستر هازارد . وقد عن اللادارة الانجليزية قبل ذلك أن تحرمنى هذه الوظيفة فحفظت لى الحق فى اعفاء رسائلى الصادرة والواردة من الأجر كما جرى العرف فى معاملة المديرين الذين يعتزلون الوظيفة لسبب لا يمس كرامتهم . أما فى أمريكا فان هذا الأجر قد طلب منى وبلغ نحو خمسين جنيها ، لكثرة الرسائل التى ترد الىّ على اعتبارى مديرا سابقا لمصلحة البريد .

ولما أخذت معى حفيدى تمبل الى فرنسا رأيت — بعد تعليمه الفرنسية — أن أخرجه فى دراسة القانون والاشتغال بعمله ، ثم استبقيته لعمل السكرتارية بعد أن وعدت بهذه الوظيفة وتكررت تجربتى للسكرتيرين وتكررت خيبة الأمل فيهم ، ولم تزل تتكرر بعد عودتى الى أمريكا ، حتى فات الوقت الذى يشتغل فيه بالدراسة المطلوبة وانتظمت حياته على غير نظامها ، فلما رأيت أنه — لطول مرأته فى الأعمال الدبلوماسية — جدير بوظائفها ، وهو رأى يشاركنى فيه ثلاثة من الزملاء ندبوه بغير طلب منى للعمل معهم خلال المفاوضات فى شئون المعاهدات ، رشحته فى خطاب الى الكنجرس لوظيفة السكرتارية فكان الرد الوحيد الذى تلقينته على هذا الرجاء الوحيد الذى تقدمت به أمرا بوقف التعيين وانتداب الكولنل همفرى سكرتيرا فى مكانه ، وهو سيد قد يكون له العلم بالشئون الحربية كما هو الواقع ولكنه لم يختبر العمل فى الشئون السياسية ولا يعرف الفرنسية ولا عهد له بالمسلك اللازم فى هذه المهمة .

واننى أفضى بهذا كله اليك — شخصا — افضاء صديق الى صديق لأننى لم أعود الشكاية العامة ولا أريد أن ألجأ اليها بعد الآن .

واننى لو استطعت أن أعلم — مقدما — أن الكنجرس سيعاملنى هذه المعاملة التى لا مجاملة فيها ويستكثر علىّ توجيه الشكر الىّ — لم يكن من شأن هذا أن يوهن من عزى أو من غيرتى فى خدمته وتأنيده ،

وقد أعرف بعض الشيء عن أطوار هذه الهيئات التي تتغير حيناً بعد حين ويأتى فيها خلف لا يعلم ما قد علمه السلف من خدمات أسديت الى الهيئة ولا يشعر بواجب الجزاء عليها ، مع بعد القائمين بالخدمة في بلاد أجنبية وامعان واحد أو اثنين من الحاقدين وذوى النية السيئة في الدس والتأثير على عقول الأعضاء الآخرين ، وإن كانوا من أهل الاخلاص والانصاف والمروءة . ولهذا أؤثر أن أطوى هذه الخواطر في أطواء النسيان والكتمان .

وانى لأتمس المعذرة منك — يا صديقى — لما جشمتك من متاعب هذا الخطاب ، واذا حاق بك يوما ما يقال عن نسيان بعض الجمهوريات للعاملين في خدمتها فاذكر على الدوام أن لك صديقا قديما تكشف له عن ذات صدرك في شخص الخادم المطيع المتواضع .

فرنكايين

وبعد هذا التمهيد تلخيص لخدمات فرنكايين كما أجملها في ملحق خطابه لتذكير صديقه ، وهى كما يلي :

— فى انجلترا قاوم قانون الدمغة وكتابته فى الصحف ومناقشاته فى البرلمان من الأسباب التى يظن أنها انتهت بالغاء ذلك القانون .

— عارض قانون المكوس ، ولم يتمكن من وقف تنفيذه ولكنه أقنع مستر تونزد بحذف مواد كثيرة منه ، ومنها الملح بصفة خاصة .

— وكتب فيما بعد ذلك رسائل شتى يفند بها دعوى البرلمان أنه يملك حق تقرير الضرائب فى المستعمرات .

— عارض جميع القوانين الجائرة .

— قام بمفاوضتين سريتين مع الوزراء لالغاء تلك القوانين وشرح ذلك فى محضر مكتوب ، وقدم فى سياق واقترح — على تبعته ومع المخاطرة بالنتيجة — عوضا عن الشاى الذى تلف فى حالة تقاذ الالغاء .

— اشترك مع مستر بولان ومستر لى فى جميع الطلبات التى قدمت الى الحكومة لهذا الغرض ، وطبع عدة نشرات على نفقته ينتقد بها اجراءات الحكومة ، واستهدف بذلك للسخط والنفور والاتهام أمام المجلس الخاص ، وعزل من وظيفة يتقاضى منها ثلثمائة جنيه فى السنة ، وهى وظيفة مدير البريد ، واضطر الى الاستقالة من جميع أعمال التوكيلات ومكافآتها ، وهذا بيانها :

جنيه

٥٠٠ من بنسلفانيا

٤٠٠ من مساشوست

١٠٠ من نيوجرسى

٢٠٠ من جورجيا

وصدرت الأوامر الى الولاة الملكيين أن يكفوا عن توقيع كل ترخيص بالصرف لحساب مرتباته من خزانة الدولة ، ولم تكن الولايات قد عزلته من توكيلها ، ولكنه — مع العلم بضغينة الحكومة الانجليزية عليه — تعذر عليه أن يخضع الولايات ويسر مصالحها لدى تلك الحكومة ، وأحس أن الواجب يقضى عليه باعتزال التوكيلات فاعتزلها ليفسح مجال العمل فيها لمن هم أقرب الى القبول عند الحكومة الانجليزية ، ويحمى نفسه أن يلجئها الى عزله .

ولما قفل الى أمريكا حض على الثورة وعين رئيسا لجماعة « سلامة الوطن » ونظم وسائل الاستيلاء على فيلادلفيا ومقر الكنجرس .

— أرسله الكنجرس الى مركز القيادة العام على مقربة من بوستون مع السيدين هاريسون ولينش سنة ١٧٧٥ لتسوية بعض المسائل مع الحكومات الشمالية والجنرال واشنطن .

— فى سنة ١٧٧٦ أرسل الى كندا مع السيدين شاس Chase وكارول عابرا البحيرات قبل ذوبان الثلج ، فعمل مع زميليه فى كندا على ازالة

بعض الشكايات مما كان له أثر في ضم الشعب الى قضيتنا ، وقدم هناك الى الجنرال أرنولد وبعض خدام الكنجرس مبلغ ثلثمائة وثلاثة وخسين جنيها ذهبا من ماله على ذمة الكنجرس كانوا في أمس الحاجة اليها وكان لها نفع كبير في تلك الآونة في الحصول على الأزواد لجيشنا .

وقد كان حين تكليفه بهذه المهمة يجاوز السبعين. فشقت عليه مصاعب الرحلة، اذ كان يتنقل بين الغابات في ذلك الفصل القاسى من فصول السنة ولم يكد يبل من مرضه حتى أمره الكنجرس بالسفر الى فرنسا ، فسلمهم قبل سفره كل ما استطاع جمعه من المال بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف جنيه ، وكان ذلك مشجعا لغيره على اعارة أموالهم لخدمة القضية العامة . ولم يساوم على المكافآت ولكنه وعد — باقتراع الأصوات — بمبلغ خمسمائة جنيه مساندة مع تقاعته ومبلغ ألف جنيه لوظيفة السكرتارية ومصروفاتها .

ولما أرسلته الهيئة النيابية في بسلفانيا الى انجلترا سنة ١٧٦٤ بمثل هذه المكافأة سمحوا له بمكافأة سنة مقدما لتكاليف السفر وتعويض الخسائر التي لحقته من جراء الاقطاع فجأة عن مباشرة مرافقه الخاصة ولم يمنحه الكنجرس مثل هذه المنحة بل أنزله في سفينة رثة لا تصلح للملاحة في البحار الشمالية ، وحدث فعلا أنها جنحت عند عودتها ، مع سوء تدبير الطعام له على متنها حتى بلغ الشاطئ وهو يكاد لا يقوى على الوقوف على قدميه .

وان خدماته للدولة وكيلا ثم وزيرا مفوضا لمعروفة للكنجرس كما هي معروفة من رسائله ، وربما كانت خدماته الاضافية مجهولة فلا داعية الى ذكرها .

ثم مضى في عمله ولم يعين له السكرتير الموعد . وقام ببعض الأعمال قبل انفصال زملائه ثم قام بها جميعا بعد انفراده بمعونة حفيده الذى سمح له أولا بمقابل للكساء والسفر والسكن ثم بمرتب لم يرق قط

على ثلاثمائة جنيه في السنة (الا حين عمل في السكرتارية للجنة الصلح) وهو فرق في المرتب على مدى سنوات مقداره سبعمائة جنيه كل عام .

— وعمل وحده بوظيفة القنصل عدة سنوات الى حين وصول مستر باركلي وبعد وصوله فترات من الوقت لاضطرار ذلك السيد الى التغيب في هولندا وبلاد الفلاندر وانجلترا ، وحدثت خلال ذلك محاولات متتابعة لاختلاس دفعة ثانية وثالثة بعد سداد الدفعة الأولى ، وكانت قوائم الحساب عن هذه الدفعات ترد مع كل سفينة وكل بريد وتستوجب الرقابة المتوالية . ولم يستطع مستر فرنكلين أن يسافر للرياضة والراحة كعادته قبل ذلك مما عرضه للاصابة بمرض قد لازمه بقية حياته .

ونوجز البيان فنقول انه على دأبه وصبره طوال حياته لم ترهقه الأعمال كما أرهقته خلال السنوات الثمان التي قضاها في فرنسا ولم يعتزلها مع ذلك حتى شهد بشائر الصلح وتمت هذه البشائر بخير . ثم ألقى نفسه في الثمانين من عمره وهي السن التي تخول من يبلغها بعض الحق في الراحة والاستقرار .

الطيران والحروب

وقد شهد فرنكلين تجارب الطيران الأولى حول باريس وسمع المتفرجين وهم يرقبون المنطاد كأنه لعبة من لعب الفراغ ويتساءلون : وما فائدة هذا ؟ وبأى شيء تنفعنا هذه النفاخات الكبيرة ؟ فكان من جوابه لهم أن يسألهم : وما فائدة طفل وليد ؟ وفي هذا السؤال كل الجواب على الذين لا يعرفون الصبر على المخترعات حتى تنمو وتؤتي ثمرتها ، ولكنهم يعرفون أننا نربي الطفل الوليد الذي لا نفع له فينفع نفسه وينفع غيره اذا أحسننا القيام على تربيته ، ومما كتبه فرنكلين على أثر مشاهداته الأولى لتجارب الطيران خطاب الى صديقه العالم الهولندي جان انجنهوز Ingenhousz الذي كان يصاحبه في رحلاته العلمية بشمال انجلترا نظر فيه نظرة بعيدة الى مستقبل الطيران في الحروب قبل أن

تستخدم المناطيد والطائرات في ميادين القتال بأكثر من مائة وثلاثين سنة
فقال في خطابه من باسى بتاريخ السادس عشر من يناير سنة ١٧٨٤ :

« .. ليس في المسألة سر . ولست أشك أنك اذا أرسلت رسولا من
قبلك أمكنه أن يشاهد مناطيد منتجلفير وشارل المختلفة ويطلع على
جميع التعليمات المطلوبة ، واذا أردت أنت أن تصنع منطادا فمن الضروري
ومن الأوفق في رأيي ، أن تبعث من عندك برسول ذكى لهذا الغرض ،
اذ يخشى ألا يلتفت الى بعض الملاحظات أو يسهو عن العلم بها فتجبط
التجربة ويؤدي جبوطها في هذه المسألة التي يكثر حولها الترقب
والاستطلاع الى تعريضك للملامة الشديدة والمساس بسمعتك . فانه
لمن الضرر الوخيم لجميع الناس في المدن الكبيرة وضواحيها ثم مصادمتهم
بالخيبة والغضب ، وقد حدث في بوردو أخيرا أن شخصا زعم أنه صنع
منطادا يصعده في الهواء وأخذ تقودا من أناس كثيرين ولم يستطع أن
يرفع المنطاد فهاجت عليه هائجة الناس وعمدوا الى بيته فهدموه وهموا
به ليقتلوه .

وظاهر — كما رأيت — أنه اختراع هام يوشك أن يتجه بالشئون
الانسانية وجهة جديدة ، وقد يكون من آثاره أن يقنع ذوى السلطان
بخطل الاقدام على الحروب لما في حماية بلادهم من المصاعب — بعد
هذا الاختراع — على أقدرهم وأقواهم ، ولعل خمسة آلاف منطاد
يحمل كل منها جنديين لا تبلغ تكاليفها ثمن سفن خمس من سفن القتال ،
وآين هو الأمير الذي يتسنى له أن يملأ أرضه بالجنود في كل مكان حتى
يعجز عشرة آلاف جندي هابطين من السحاب عن اصابته بأخطر النكبات
قبل أن يتمكن من حشد القوة اللازمة لصدهم والتغلب عليهم ؟

ومما يحزن أن تحول العصية القومية — كما بدا لك — دون قيام
الانجليز بالتجربة ، فانهم على براعتهم في فنون الصناعة قمنا أن يسبقوا
غيرهم الى اتقان هذا المخترع والاتقاع بكل ما يعود به من الفائدة .

ان منطاد شارل وروبرت كان ممتلئا حقا بالهواء الساخن ، ولوفرة المقدار اللازم كان العمل في ملئه متعبا عظيم النفقة يحتاج الى يومين أو ثلاثة ليلا ونهارا لانجازه . وللمنطاد صمام عند أعلاه يفك بشد الحبل الذى يربطه كلما أريد اطلاق جزء من الهواء استعدادا للنزول ، والراكبان يقذفان بجزء من الرمل الذى يوازن الهواء اذا أراد الصعود بعد ذلك ، ولا بد أن يكون مقدار كبير من الهواء قد انطلق من المنطاد لموازنة أحد الراكبين ساعة نزوله ، ولخفة المنطاد بعد نزوله تكفى البقية فيه لحمل زميله ، وهما لا يحملان فى المنطاد نارا كما يفعل مسيو منتجلفير فى منطاده الذى يفتح من أسفله ويوقد فيه التبن لاستبقاء ناره . وهذا الطراز من المناطيد أسرع امتلاء وأقل نفقة ، ولكنه يستلزم مضاعفة الحجم لرفع الثقل نفسه ، اذ كان الهواء المشعشع بالحرارة لا يقل ثقله عن نصف ثقل الهواء الجوى ، على حين أن الهواء الساخن يقل عن ثقله عشر مرات ، وقد كشف مسيو مورفو الكيمى الشهير بمدينة ديجون هواء ساخنا لا تزيد كلفته عن جزء من خمسة وعشرين جزءا من كلفة الهواء الساخن الذى يحدث من صب الزيت أو الزاج على برادة الحديد ، ويقال انه مستخرج من فحم البحر ولم يذكر وزنه بالنسبة الى غيره (١) ..

ثمن الصفارة

وهذه رسالة من رسائله الى السيدة بريون ضمنها حكاية من الحكايات « المثلية » أو الحكايات التى تستوحى من مغزاها بعض المعانى الأخلاقية أو الاجتماعية ، وكانت شائعة فى ذلك العصر يؤلفها الكتاب وغير الكتاب لتزجية الفراغ بما يشبه امتحان الذهن بالأحاجى السهلة والألغاز الخفيفة ، وتتلى هذه الرسائل عادة فى السهرات والاجتماعات كأنها مادة من مواد السمر والفكاهة ، وقد كتب فرنكلين

(١) هذه الرسالة والرسائل الأربع التى تقدمتها مترجمة من النصوص التى اشتملت عليها مجموعة الكتابات الترجمة لجامعها فان دورن .

هذه الرسالة الى صديقتي جوابا على رسالة منها تصف فيها نعيم الفردوس كما تخيله ، فقال بعد أسطر في التمهيد والاعتذار من تأخير الجواب :

» .. أعجبني وصفك لجنة الفردوس وبرنامجك الذي درستته للمعيشة فيها . وأقرّك كثيرا على ما ختمت به الوصف حيث تقولين اننا — في الوقت نفسه — ينبغي أن نستخلص في هذه الدنيا كل ما نستطيع من خير ونعمة . وأرى أننا جميعا قادرون على أن نستخلص منها فوق ما ننال من خيرها ونعاني أقل مما نعانيه من شرها لو جعلنا بالنا الى شيء واحد : وهو ألا نشترى الصفافير بأكثر من أثمانها .

.. وتسأليني ماذا أعني ؟ وأنت تحبين الحكايات .. فاسمحي لي أن أقص عليك احدى حكاياتي حين كنت في السابعة من عمري ، فقد حدث في بعض أيام الأعياد أن امتلا جيبي بأنصاف البنسات من هبات أصدقائي فذهبت توا الى دكان اللعب واشترت منه صفارة سمعت بعض الأطفال في الطريق يصفر بها ، فأعجبني وبذلت في ثمنها كل ما احتواه جيبي .

ورجعت الى المنزل فطقت بين جوانبه نافخا في صفارتي راضيا عن نفسي مزعجا كل من فيه من اخواني وأخواتي وأبناء عمي ، فلما سألوني عن هذه الصفقة وأخبرتهم بها قيل لي انني بذلت في الصفارة أربعة أضعاف ثمنها ، وذكروني بالطيبات التي كنت قمينا أن أنعم بها لو لم أبذل فيها فوق ما تستحقه وضحكوا من حماقتي وغفلتي وأكثروا من الضحك حتى بكيت غما وأسفا وساءني من التفكير في الخسارة أضعاف ما سرنى من الصفارة .

ونفعتني العبرة فلم تبرح ذاكرتي بعد ذلك ، ولم أزل كلما أغريت بشراء شيء لا حاجة بي اليه أعود فأقول لنفسي : لا تبذل في الصفارة فوق ما تساويه ، وادخرت تهودي !

ثم كبرت واختبرت الدنيا وراقبت أحوال الناس فلكيت الكثيرين ممن يشترون الصفارة بأضعاف ثمنها ، وأصبحت كلما رأيت انسانا يطعم

في الحظوة لدى البلاط فيبدد وقته في التردد على الحشم والحاشية ويفقد راحته وحرته وفضائل نفسه وربما فقد أصدقاءه في هذا السبيل — أعود فأقول : هذا الانسان يغالى بقيمة الصفارة ويذل فيها أضعاف ما تساويه .

وكلما رأيت انسانا مشغوفا بالشهرة يزج بنفسه في مشاكل السياسة ويغفل عن مصالحه فيجر على نفسه الخراب بهذه الغفلة — أعود كذلك فأقول : وهذا انسان آخر يشتري الصفارة بأضعاف ثمنها .

وكلما عرفت بخيلا يحرم نفسه أطيب العيش وغبطة الاحسان الى الناس ومنزلة التقدير والرعاية بين قومه ومتعة المودة والصداقة بينه وبين خاصته — أعود فأقول لنفسى : يالك من مسكين ! انك أيضا تشتري الصفارة بأضعاف ما تساويه .

وكلما التقيت بانسان من طلاب الشهوات والمسرات يذهل عن تهذيب نفسه وعقله ، أو عن تدبير ماله من أجل متعة جسدية تستغويه وتجور على جسده — أناديه في ضميري : أيها المخدوع ! انك تجنى الألم من حيث تنشد اللذة وتعطى الصفارة ثمننا لا تستحقه ... !

وقد أرى انسانا مفتونا بالمظهر والزينة مأخوذا بغواية البيت الأنيق والأثاث الأنيق والعتاد الأنيق مما لا يطيقه ولا تحتمله ثروته وقد يوقعه في الدين ويسوقه الى السجن ، فأقول : وآسفا . انها الصفارة يشتريها أيضا بهذا الثمن الثقيل .

وقد أرى الفتاة الحلوة الجميلة تتزوج من الرجل السيء القبيح فأقول . يا لها من شقوة وخيبة . انها تعطى الصفارة أضعاف ما تأخذ منها .

وجملة القول ان معظم الشقاء الذى يتلى به بنو الانسان انما يجنيه عليهم ذلك التقدير الباطل لقيم الأشياء ، وذلك البذل المضاعف في ثمن الصفارة .

على أنى أرفق بهؤلاء البائسين فلا تنسينى هذه الحكمة التى أشدق بها أن فى هذه الدنيا كثيرا من المغريات ، ومنها تفاحات الملك حنا التى لا تباع لحسن الحظ . ولو أنها كانت مما يباع بالمزايدة لخشيت أن أجز على نفسى الخراب لأشترىها وأعود فأبذل فى الصفارة قيمة لا تساويها (١) .

رسائل شخصية

وهذه رسائل متفرقة فى موضوعات عائلية أو عامة كتبها الى أقربائه وصفوة أصدقائه ، ومنها هذه الرسالة الى أخته تعزية لها فى موت أخيه :
 فيلادلفيا فى ١٢ فبراير سنة ١٧٥٦ .

أختى العزيزة

أشاطرك الحزن فى مصابنا بموت أخينا العزيز . ولكن بيننا مزيد من الحب كلما أصبنا بنقص فى العدد .

وقد عدت الآن من بعثتى العسكرية ووقتى مشغول بأعمال الهيئة النيابية ، وكأنما العناية الالهية تطالبنى بصنوف شتى من الواجبات ، فلا أعلم الآن ما سيأتى بعد ، ولكنى أجد أن شواغلى تزداد كلما بحثت عن الفراغ وتطلعت الى الاعتزال .

وانى أفهم ان « بينى » يميل الى ترك « اتينجوا » . وربما كان على حق ، ولا مانع عندى .

محبتى للأخ وللأطفال ، واننى يا أختاه العزيزة .

.....

وكتب اليها هذه الرسالة تعزیه فى موت ابنتها سباره :

(١) هذه الرسالة مأخوذة من كتاب الخزعبلات ، وفى هامشها يقول جامع الكتاب ان التفاحات فى الحقيقة كمثریات مسمومة أهداها قس الى الملك حنا صاحب (الماچناكارتا) لأنه علم أنه يهيم باغتصاب راهبة مصونة .

فيلادلفيا في ١٠ يوليو سنة ١٧٦٤ .

أختي العزيزة

نحن جميعا نشاطرك الحزن في موت كريمتك . وقد كنت أراها دائما على خلق عذب محبوب وشماثل طيبة تضاعف الحزن عليها في نفس الأخ ونفسك فوق ما تحتملان ، وكل ما نملكه من العزاء في مثل هذا المصاب أن تؤمن بأن الله يعلم ما هو أصلح وأجدر ويقدر على صنع الخير مما يبدو لنا أنه شر . وانها لسعيدة تلك السعادة التي لا يشعر بها أحد منا وهو بقيد الحياة .

وكتب اليها في مسألة من مسائل العقيدة تعنيها بعد الاطلاع على بعض الكتب التي أرسلها اليها من البلاد الانجليزية :

لندن في ٢٧ يوليو سنة ١٧٧١

وصل الى خطابك الكريم المؤرخ في العاشر من شهر مايو . . . ويلوح لي انك تحسن احساسا شديدا بخطئك في التعجل باتهامي حتى ليحس لي أن أقول انه الآن دورى في الأسف لملاحظة ذلك الخطأ ، فقد تعادلت الحسبة اذن فلندعها ولا نعد الى التفكير فيها .

ويخيل اليّ أننى ذكرت ثمن الكتب في رسالة سابقة ونسيتها الآن ولكننى أظن أن ثمنها ثلاثة شلنات لكل كتاب .

ولا ريب أن هناك اختلافا في أمر وجودنا قبل هذا الوجود ، وأحسب أن هذه الفكرة قد صدرت عن حسن نية ، لتبرئة حكمة الله من تعاسة الخلق في هذه الدنيا بغير جريرة لحقت بهم في دنيا قبلها ، وربما كان هذا من الفضول بغير داع لتأييد قصة السفينة .. واذا كان الإله قد شاء أن يلقى عليها سترا فقد يكون الاجترار على كشف ذلك الستر من قبيل التطفل واللجاجة ، ولعل نجاحنا في هذه المحاولة لا يربى على نجاح أبويننا في محاولة المعرفة الممنوعة يوم أكلا من الشجرة .

ولست أعنى بقولى ان بنى آدم بعضهم شياطين لبعض الا أنهم —

لارتقاءهم على غيرهم من الخلق — لا يعذبهم الخلق الآخرون كما يعذبون أنفسهم. ومن جانبى أنا أرانى أتعلم الدنيا على علاقتها وأرى أن أشك فى حكمتى كلما فكرت فى وجوه صلاحها واصلاحها ، وانى لأبصر من الحكمة فيما أدرك من خلق الدنيا ونظام تديرها ما يلهمنى أن هناك حكمة تعادلها فيما لست أدركه وأتقصاه . ومن ثم لا تكون الثقة التى عندى بالله دون الثقة التى عند سائر المسيحيين الأبرار .

ويسعدنى أن التفاهم الحسن مستمر بينكم وبين آل فيلادلفيا ، وقد كان أبونا حكيما جد حكيما ، وكان من عادته أن يقول انه لا شىء أكثر من ظهور أسباب النفور بين المتحابين على البعد اذا اقتربت بهم الديار... ولهذا لم يكن ليستحسن زيارات الآل فى الأماكن البعيدة ، لأنها تطول ولا يمكن أن تقصر الى الحد الذى يتركهم على المودة والوئام حين يفرقون . وقد لمست برهاننا على ذلك — العلاقة بين أبى وأخيه بنيامين ، فقد كنت يومئذ طفلا ولكنى كنت أحس الفرق بين عبارات المودة فى رسائلهما قبل اللقاء وبين المناقشات والمجادلات التى تنشأ بينهما اذ يقيمان فى مسكن واحد . غير أنك أنت أدنى الى الصواب فيما تختارينه من التوفيق آنة بعد أخرى لاسداء النصيحة من بعيد فى شئون الآخرين ومرافقهم ، وكله خير ما دام يفضى الى خير .

وأذكر انك أشرت فى احدى رسائلك الى النظارات ورغبتك فى ارسال بعضها اليك ، وليس لدى هذه الرسالة الآن فلماذا أبعث اليك بزواج من كل مقاس من الواحد الى الثلاثة عشر ، وستعرفين المقاس الذى يوافقك بامتحان زوج بعد زوج على كلتا عينيك فى النظر الى مطبوعة دقيقة ، واعزلى ما لا يوافقك لكيلا تعودى الى تجربته مرة أخرى ، وانك لتجدين النظارة التى توافقك بالتجربة والمقارنة على مهل ، وهو الأمر الذى لا يتيسر فى الدكاكين حيث يعجل الناس باختيار النظارات فترهق أبصارهم وتضرهم ، وأشير عليك بتجربة كل عين على حدة ، اذ قلما يوجد بين الناس من تتساوى لديهم العينان ، ويكاد كل ناظر

أن يعتمد على احدى عينيه فى القراءة والعمل لضعف فى عينه الأخرى ،
أو لأنها أصلح للنظر البعيد . ولهذا تفيد النظارة المتساوية تلك العين
المهملة ولا توافق العين المعول عليها ، ومتى عرفت ما يوافقك من النظارات
فاحتفظى بالأقوى منها للمستقبل حين تحتاجين إليها مع الزمن ، وقدمى
ما تستغنين عنه هدية للأصدقاء .

أما الخطأ الذى أومأ اليه فرنكلين فى مقدمة الخطاب السابق فقد
يظهر من خطايه التالين ، وأولهما بتاريخ الثلاثين من شهر ديسمبر
سنة ١٧٧٠ .

قال : « سنحت لى الفرصة ، أثناء انتظار السفينة أكثر من وقتها
المعهود — أن أكتب اليك بعد ما فاتنى ، على ما أظن ، أن أفعل حين
رجوت ابن عمنا وليامز أن ينوب عنى فى الاعتذار اليك .

وصل الى خطابك الكريم المؤرخ فى الخامس والعشرين من شهر
سبتمبر على يد السادة الفتيان الذين حببوا أنفسهم الىّ والى كثير من
معارفنا بمسلكهم الحميد . وقد حقق « جوشيا » أمنية قلبه بالتلمذ
على مستر ستانلى الذى استجاب رجائى بعد طول انقطاعه عن التدريس
فقبل أن يعلمه بعض الدروس وسرّ من سرعة فهمه وتقدمه ، ويبدو لى
أن جوناثان فتى ذو قيمة رصين منتظم يميل الى العمل والتدبير ، وهى
مخايل النجاح فى الأشغال ، وانى فى صحبتهم لجد سعيد .

أما الاشاعة التى ذكرتها — وأخبرنى جوشيا فحواها وهو أننى عزلت
من وظيفة مدير البريد من أجل كتاب أرسلته الى فيلادلفيا — فربما كان
أساسها أن بعض الرؤساء قد ساءهم كتابتى أمثال تلك الكتب ولاح
عليهم انهم يريدون أن يعبروا عن استيائهم على ذلك المنوال ، ولكن أناسا
من أصدقائى أشاروا برأى غير هذا الرأى على غير علم منى ، فاضطر
خصومى الى القناعة بشتى — عن سعة — فى الصحف واستثارتى بذلك
الى الاستقالة . ولا أخالهم يفلحون فى هذه الاستشارة ، لأننى لا أملك

تلك الفضيلة المسيحية فضيلة التسليم^(١) .. فمن أراد أن يحتل مكانى
فلأخذه عنوة !

ولقد سمعت عن عظيم من العظماء كان ديدنه فى أمر الوظائف
ألا يطلبها وألا يرفضها ، وأضيف اليه كذلك ألا يستقيل منها ، وقد قلت
لأصدقائى اننى ترقيت الى تلك الوظيفة على درجات من الوظائف التى
هى دونها ، وكانت مواردنا قبل ولايتى لا تأتى بمرتبتها فأصبح المرتب
بعد ولايتى لا يعطى الا اذا آتت به مواردنا ، وكانت فى السنوات الأربع
الأولى لا تقوم بتكاليفها حتى بلغ دينى ودين زملائى عليها تسعمائة
 وخمسين جنيها فاجتهدت اجتهدى حتى وصلت الى ما هى عليه الآن من
الوفر والفائدة ، واعتقدت من ثم أننى صاحب نوع من الحق فيها ، وقد
قمت حتى الآن بالأمانة والصدق على أعمالها مما أَرْضى عنى الرؤساء
كل الرضا ، وهو غاية ما كان يطلب منى فى هذه الوظيفة . أما الكتب التى
أفقدتها الى فلادلفيا فقد كتبتهام فعلا قياما بواجب آخر وهو واجبى نحو
وطنى ولا شأن له بعملى فى إدارة البريد ، وان مسلكى فى هذه المسألة
لشبيه بمسلكى فى مسألة سابقة لها حين كان الرؤساء يهمون باحتضانى
واعتناقنى لمساعدتى اياهم فى الغاء قانون خاص بالانفراد ، ولا يزال
شعورى اليوم كشعورى بالأمس فى أمر هذه القوانين التى لا يجوز أن
تصدر هنا لتطبيقها فى أمريكا ، وانها اذا صدرت وجب السعى الى الغائها
على الأثر ، ولست أعتقد أننى مطالب بتبديل شعورى كلما خطر لصاحب
الجلالة هنا أن يغير وزراءه ووكلاءه ! وقد كانت هذه عبارتى التى فهمت
بها لهذه المناسبة ، ثم سمعت أنهم — وان حسبونى حقيقا باللوم وفهموا
أن الموظف مطالب بمجاراة الوزير على رضا منه أو على غير رضا —
قد عادوا فنظروا الى مسلكى الطيب وخلقى الشخصى كما تفضلوا
فوصفوه ، وقرروا من ثم ألا تنتزع الوظيفة منى .

وجائز أنهم ينكصون عن رأيهم هذا ويعزلوننى ، ولكننى على ثقة

(١) هذه الكلمة بالانجليزية تفيد معنى الاستكانة والتسليم للمقادير .

أن شيئاً من هذا لن يبدل من خطتي السياسية ، وخطتي التي اطمأنتت إليها دائماً هي ألا أحيد عن خطة في الشؤون العامة رعاية لشأن من الشؤون الخاصة ، بل أمضى قدماً في عمل الصواب الذي أعتقده وأدع المصير بين يدي العناية الالهية . وقد كان مما يسّر لي أن أستقيم على النهج في صباي أنني كنت صاحب صناعة وكنت أعلم أنني أقنع بالقليل في معيشتي ، ولم يكن من همي يومئذ أن أجمع ثروة كبيرة وأز أذهب مع الأطماع ، قانعا بما أكسبه من الكفاية من موارد عملي . والآن أخال أن الاحتفاظ بحريتي ونزاهتي أيسر على بعد ان بلغت النهاية من مراحل عمري وقلّت النفقة التي بقيت للبقية منها ، وأن ما أملكه الآن ببركة الله وحسن القصد فيه ليكفيني ، الا اذا وقع من الكوارث العظمى ما ليس في حسابي ، فلا حاجة بي الى الزيادة عليه من موارد وظيفة أو ادارة .

أبعث اليك في هذه الفرصة الكتابين اللذين كتبت عنهما ، وثن كل منهما ثلاثاً شلنات ، وقد كنت في زيارتي السابقة للندن قبل خمس وأربعين سنة أعرف انسانة تفكر تفكير مؤلفك اسمها « اليف » أرملة أحد الأطباء ، وماتت على أثر سفرى من انجلترا فكان من وصيتها لولدها أن يلقى علانية في قاعة صولتر خطاباً يؤكد فيه أن هذه الدنيا هي الجحيم الحق مقر العذاب والعقاب للأرواح التي أذنبت في حياة أفضل من الحياة فنفيت الى الأرض لتجزى على ذنوبها في أسلاك الحيوان على اختلاف أنواعه ، واتقضى زمن طويل منذ اطلعت على الخطاب المطبوع الذي كان يستشهد بالكثير من آيات الكتاب المقدس ، ومرامه أننا سنتذكر بعد الموت ما كنا عليه قبل الولادة وان كنا ننسأه أيام المقام في هذه الدنيا؛ واننا نذكر كذلك ما لقيناه من العقاب لنعتبر به ويعتبر به سوانا ممن لم يذنبوا مثلنا فلا يقعوا في الخطيئة اعتباراً بما أصابنا .

والواقع أننا نرى هنا أن كل حيوان من الحيوانات الدنيا له عدوه الذي ركبت فيه الرغبات والغرائز والأسلحة التي تمكنه من تخويفه وجرحه والقضاء عليه . أما الانسان — وهو أرفعها جميعاً — فبعضه

لبعض شيطان ، وتلك حال تستدعى فرضا كفرض السيدة اليف مع الايمان بكرم الله وعدله فى قضائه للتوفيق بين هذا الايمان وكرامة العزة الالهية . الا أن عقولنا لا تذهب بنا بعيدا حين نسومها أن تبحث عما كان قبل وجودنا أو ما سيكون بعد هذا الوجود لقلة التواريخ والوقائع التى بين أيدينا . وانما يعطينا الوحى معرفتنا الضرورية بهذا ويقصد غاية القصد على الخصوص فيما أعطانا من المعرفة عما كان قبل وجودنا .

— أرجو أن تتابعى الكتابة الى أصدقائك بفلاذلفيا ، ومحبتى لأنجالك وعلى العهد .. أخوك المحب الودود .

وكتب اليها ينفى اشاعة عن تعيينه فى وظيفة انجليزية أثناء قيامه بالوكالة عن بعض الولايات الأمريكية :

لندن فى ٢٨ يوليه سنة ١٧٧٤

« .. ان الاشاعة التى أشرت اليها وقيل فيها اننى اقترحت أن أتخلى عن توكيلاتى وأقطع عن وطنى انما هى أكذوبة خبيثة كما قلت فى خطابك وليست بالاشاعة الكاذبة وحسب بل هى سخيفة مضحكة . اذ هى تفترض على الأقل اننى لا أعرف من الحساب ما أفرقه بين ثلثمائة وألف! وانهم ليعاودون الاشاعة هنا حيننا بعد حين زاعمين أننى ألتبس الوسائل للعودة الى وظائف الحكومة ، ولعلمهم يتمنون ذلك وينتظرونه . فلينتظروا اذن الى يوم الدين .

ان الله لأعلم بسريرتى ، واننى لأسف أن أتقبل أحسن الوظائف التى ينعم بها الملك هنا ما دامت تلك الأفاعيل الجائرة تسلط على وطنى . وثقى أننى لن أصنع شيئا يمسنى فى نظرك أو ينقض المسلك الأمين الذى سلكته حتى الآن فى الأعمال العامة ، وقد احتفظت بوظيفتى السابقة حتى عزلت منها ولم أعزلها لأننى لم أكن قد تلقيتها مكافأة من الحكومة بل ارتقيت اليها بحق الخدمة فيما دونها والأمانة فى تلك الخدمة ، فجازلى أن أعتبرلى حقا فيها أو حقا عليها، ولم أشأ أن أيسر لهم الأمر بالاستقالة لكى

يبوء منهم من أراد أن يبوء بمسبة حرمانى منها ، وقد شرفونى باخراجى من تلك الوظيفة فليكن حذرى الآن ألا يحملونى المسبة باعادتى اليها .

وكل هذا أكتبه اليك أنت . أما الدنيا فربما خطر لها أن هذه التصريحات والتوكيدات أمر لا يقبل التصديق ومحض ادعاء يدعيه المرء لتفخيم شأن نفسه . فلا تطلعي أيتها الأخت العزيزة أحدا على هذا ، فانما أكتبه اليك لمرضاتك وراحة ضميرك مما عسى أن يساوره من القلق لسماع تلك الاشاعات .

وكتب اليها بعد انتخابه رئيسا للجمعية في فلادلفيا يعرب لها عن شعوره بالاجماع على انتخابه :

فلادلفيا في ٤ نوفمبر سنة ١٧٨٧

وصل الى منك أخيرا كتاب كريم سرنى بما علمته من تمتعك بالصحة وأنت اتخذت العدة للشتاء كما أنبأتك . ومطالبك مستجابة محترمة ، وقد يتعذر على أحيانا أن أعرف ما تحتاجين اليه فأرجو ألا تحجمنى أبدا عن اخبارى بكل ما فى وسعى أن أعمله لاسعادك فى حياتك .

لقد عزمت من قبل أن اعتزل العمل فى الهيئة النيابية سنة أخرى كى يتسع أمامى الوقت للسفر الى بوسطن فى الربيع . الا أننى أذعن للاجماع الذى انعقدت عليه آراء بنى وطنى فأقرونى مرة أخرى على كرسى الرئاسة ، وتم لى الآن أكثر من خمسين سنة فى الخدمة العامة .

لما أخبرت صديقك الطيب دكتور كوبر أننى أمرت بالسفر الى فرنسا بعد أن بلغت السبعين ، وقلت له ان « الجمهور » قد أكل لحمى ويريد اليوم على ما يظهر أن يأكل عظمى — أجابنى قائلا : انه يجذب منهم حسن الذوق . لأن أطيب اللحم ما جاور العظم كما جاء فى الأمثال ، ولا بد لى أن أعترف لك بأننى مغتبط بذلك وأحسب أن أختى العزيزة حقيقة أن تسر باختيارى للمرة الثالثة بعد طول التجربة ، وان بنى قومى يتفقون باجماع الأصوات — ما عدا صوتى — على توجيه هذا التشريف الى وهو أكبر

ما يملكونه من تشريف . وان هذه الثقة العامة بغير قيد ولا حد من شعب
كامل لأعز عندي وأرضى لكبريائي من أرفع ألقاب النبلاء . فان الأشرطة
والحمائل التي يعلقونها حولهم قد تضافى على أصحابها شرف الألقاظ
والأسماء ، ولكنها لن تمنحهم لباب أنشرف الصميم ^(١) ..

(١) رسائل فرنكلين الى أخته مأخوذة كلها من مجموعة رسائل بنيامين
فرنكلين وجين ميكوم Mecom طبع جامعة برنستون سنة ١٩٥٠ •

خرافات وحكايات ذات مغزى

نشأت الخرافات ، أو الحكايات الموضوعية ذات المغزى ، فى أوقات متقدمة قبل الميلاد بعدة قرون ، وعرفت فى الأمم الشرقية والغربية بأنواعها المتعددة ، ومنها الحكايات التى توضع على السنة الحيوانات ، والحكايات التى توضع على السنة مخلوقات عاقلة كالمخلوقات الآدمية مع اختلاف الشكل والقطر كالجن والملائكة والمردة والأقزام ، ومنها الحكايات المنتحلة التى تنسب إلى بعض الأشخاص التاريخيين أو الذين تدعى لهم صفة تاريخية لأجراء الحكمة القديمة على ألسنتهم ، وكل هذه الأنواع كانت معروفة قبل القرن السابع عشر فى البلاد الغربية ، ولكن هذا القرن — ولا سيما النصف الأخير منه — قد خص بظاهرة منفردة بين القرون الأخيرة وهى شيوع هذه الحكايات فى جميع أنواعها وانتقال الكثير منها إلى مجال النقد الاجتماعى والآراء التعليمية التى تنزع منزع الحرية وإعادة النظر فى حقائق الحياة ، وقد نبغ بين منتصف هذا القرن ومنتصف القرن الذى يليه أعلام بارزون فى هذا الفن من الأدب والحكمة من أمثال لافونتين الذى كان يلقب بإيسوب الفرنسين وأمثال جون جراى الذى كان يلقب بإيسوب الانجليزى ، ونبغ فى هذه الفترة أمثال فولتير وسويفت الذين اتخذوا من القصص المخترع وسيلة لنقد المجتمع وكشف عيوبه منقولة إلى أناس بعيدين أو أزمنة بعيدة لاتخفى على القارىء وجوه الانتحال والاختراع فيها ، وتعليل هذه الظاهرة فى أواخر القرن السابع عشر ليس بالأمر العسير ، لأنه الزمن الذى تفتحت فيه العقول لحرية التفكير ولم تبلغ مداها من الحرية دفعة واحدة ، بل بدأت بالتلميح والكناية وتدرجت منهما إلى التصريح الذى بلغ حد التهجم فى كثير من الأحيان ، وهذه الحكايات بأنواعها أداة صالحة للنقد المستور والحرية الفكرية المقنعة ، يقبلها المنقودون ولا يتدمرون منها لأنها تسليهم بالفكاهة

ولا تخص أحدا منهم بالهجوم الصريح عليه ولا تهدد مصلحة معلومة
تهديدا يخشى منه أو تعرف عقابه .

وفرنكلين كعادته سريع الى اقتباس كل وسيلة من وسائل المعرفة
والتعليم « الأبوى » الذى يهدى الجميع ولا يجرح أحدا مقصودا لذاته،
وقد اقتبس هذه الوسيلة وتوسع فيها كما نرى من بعض رسائله السابقة،
واقتبس الخرافة والحكاية ذات المغزى بأسلوبها القديم مع تجديدها
بالاتجاه بها الى الحكمة الواقعية فى زمنه، وقد اخترنا منها هذه الحكايات
الأربع لأنها من حكاياته المعبرة عنه وعن شواغل ذهنه وحياته على
التخصيص ، فمنها حكاية عن الثورة الأمريكية ، وحكاية عن حدود
العقل الانسانى فى طموحه الى أسرار الكون وأصول الحياة وصفات
الخالق ومقاصده فى خلقه ، وحكاية عن عمر الحى كيف يتساوى فيه
الدهر الطويل واليوم الواحد عند نهاية الأجل ، وحكاية عن السحابة
الدينية لها تاريخ خاص بين هذه الحكايات ، وهى حكاية ابراهيم الخليل
وحواره مع ربه فى أمر الكفرة الجاحدين ، فهذه الحكاية قد وقع عليها
فرنكلين فى بعض مطالعاته ويعزوها بعضهم الى السعدى الشيرازى شاعر
الفرس المعروف، ويقال ان السعدى نفسه سمعها من أصحاب الاسرائيليات،
ولم يزعم فرنكلين قط أنها من تأليفه ولكنه كان يداعب ضيوفه ويسألهم
أن يفرقوا بين الأسلوب الذى وضعها فيه وبين أسلوب الكتب الدينية
التي احتواها العهد القديم ، وكان يقول لطائفة منهم أمام بعض القسس
انه سيقراً لهم الاصحاح الحادى والخمسين من سفر التكوين ، ولاوجود
لهذا الاصحاح فى الكتاب ، لأنه ينتهى بالاصحاح الخمسين ! ولكنها
دعابة من دعاباته وعادة من عاداته فى محاكاة الأساليب ، وكان يعالج هذه
المحاكاة فى ابان تعلم اللغة الفرنسية ليمتحن نفسه قبل أن يمتحن غيره .
وقديما صنع ذلك ، كما مر بنا ، بأساليب اديسون وغيره من الكتاب
المحدثين ، ولعله لم ينس هنا نزعتة القديمة الى مذهب الربوبية Deism
وآراء الربوبيين فى طبيعة الوحي الإلهى الذى يتنزل على طبيعة البشر ،

فانهم يعتقدون أن مضامين العهد القديم تسجيل توفر عليه الكتاب والحفاظ لاثبات ما وعوه من الأقوال الملهمة على السنة الرسل والأنبياء .

وقد أثارت حكاية ابراهيم هذه ضجة لطيفة في ابان تأليفها والقائها ، ثم أثارت بعد ذلك ضجة أخرى بعد طبعها وجمعها، وسَّوَل الحسد لأناس من شائنيه أن يتهموه بالسرقة الأدبية عمدا لظهور هذه الحكاية بين أوراقه المجموعة ، وعملت الخصومة السياسية عملها في تكبير هذه التهمة فنشرت في مجلة الخزانة البريطانية British Repository في عدد شهر مايو سنة ١٧٨٨ حملة صحفية ترميه فيها بالسرقة والادعاء ، وتقى صديقه فوجان Vaughan هذه التهمة بخطاب أرسله الى المجلة ونشرته في عدد تال ، وكتب فرنكلين نفسه الى فوجان يعزز مقاله ويعيد قوله في المجلة انه ينسبها الى نفسه وليس له فيها من عمل غير الصياغة وما أضافه الى ختامها من الوعد والوعيد ^(١) ... فالحكاية — لما أحاط بها من هذه الحواشي جميعا — أحق الحكايات ذات المغزى بالنقل في هذا السياق .

وهذه هي الحكايات الثلاث :

ملك الغاب

كان للأسد ملك احدى الغابات جند من الكلاب الأمناء مخلصون له ولدولته ، وعلى أيديهم اتسعت تلك الدولة وهابها من حولها جميع الأعداء .

الا أن الأسد — ذهابا مع نصيحة السوء من مشيريه — ثر من أولئك الجند ودانهم بالتهم دون أن يستمع اليهم وأمر بـ بكاره وفهوده ونموره أن تغير عليها وتفتك بها فتكا ذريعا ، وشكا الكلاب فلم يؤبه لهم ورفضت شكاياتهم بغير اكتراث ، فلم يكن لهم بدٌّ من الذود عن أنفسهم وحماية حوزتهم ، وفعلوا مستبسلين .

(١) صفحة ١٥٣ من كتاب الخزعات Bagatelles

وكانت منهم فصيلة مدخولة النسب من سلالة الذئاب والثعالب
أفسدتهم وعود الملك بالمكافآت الجزيلة فخذلوا سلاتهم وذهبوا الى
معسكر الأعداء .

واتصر الكلاب أخيرا فانعقد الصلح بينهم وبين الأسد أن يصبحوا
أحرارا وألا يكون له عليهم بعد ذلك من سلطان .

وتعذر على الأوشاب المدخولين أن يرجعوا الى السكن بين الكلاب
فراحوا يلحون في طلب المكافأة الموعودة ، واجتمع من السباع مؤتمر
كبير للنظر في هذا الطلب ، فاتفق الذئاب والثعالب على عدالة الطلب وأن
الوعد الملكية لا بد من نفاذها ، وعلى كل مخلص من رعاياه أن يسهم في
تمكين صاحب الجلالة من الوفاء بتلك الوعود .

وخالفهم الحصان وحده فجهر برأى جرىء يجمل بما في طبعه النبيل
من الشجاعة والطلاقة ، وتصدى لهم قائلا : « ان الملك قد أساء نصحاء
السوء مشورته وأوغروا صدره على رعاياه الأمانة ، وان وعود الملوك
ينبغي أن تنفذ حقا اذا وعد بها من يصدقون الخدمة وكان في انجازها
منفعة للجميع ، ولكنها اذا استنفرت رعاياه بعضهم على بعض فهي باطلة
من مبدئها ، ومن جزاء المحرضين عليها والذين اقترفوا جرائم العدوان
والغيلة من جراء ذلك التحريض أن يلقوا أشد العقاب بدلا من المكافأة
وحسن الثواب ، ولننظر كيف تقصت قوتنا وهيض من بأسنا بما أصابنا
من فقدان كلابنا ، فاذا زينتكم للملك أن يحسن الى الذين قتلوا اخوتهم
أقمتم بذلك سابقة تغري من طغى بأمثال تلك الوعود وأصبحت كل
مكافأة ينعم بها أولئك الناشزون المنحرفون توكيدا لها وتشجيعا عليها ،
وتعرض الخيل والبقر كما تعرض الكلاب لشر الوقعة فيما بينهم
والانقسام بين صفوفهم ، وتتابع الحروب الأهلية في ديارنا حتى لا أمان
ولا حرية في هذه الغاب ، ويحقيق بنا الضعف فلا حيلة لنا غير الخضوع
والانقياد لكل طاغية يحلو له أن ينكل بنا وينعم بافتراسنا حين يشاء » .

ولم يخل المؤتمر من عقل وحكمة ، فأصاخ الى رأى الصراح ،
وقضى برفض ذلك الاقتراح .

أبو معشر الساحر

كبر الفلكي الطيب أبو معشر فكف عن العمل ، ولاذ بقمة الجبل ،
وتجنب عشرة الناس وأنس الى أصحابه من المردة والجان الذين يحبونه
ويرفون عنه الوحدة بالأحاديث والأسمار ، وما فيها من معارف وأخبار .

وزاره بلوبيل المريد ذات مساء ، وهو مارد عظيم تعلو هامته سبعة
فراسخ وينبسط جناحاه على رحاب دولة شاسعة ، فاستراح في لطف
وهينة على ذؤابات الشجر في الوادي وأسند رأسه الى جبل قلبون ،
واستقبل خيمة الساحر الكبير بوجهه المنير .

وتحدث اليه الساحر حديث الخشوع والتقوى عن حكمة العلى
الأعلى وعما في مقاديره من الخير والبركة ، وقال للمارد ان نعمته سبحانه
وتعالى أجل من أن يحصيها ، وأنه يركض عقله الى أقصاه ، ولا يدرك به
الشأو فيما ينقب عنه ويتقصاه .

قال بلوبيل : على رسلك أيها الصديق ولا تسرف في أمر تلك المزية
التي تسميها بالعقل والحكمة ، فانك لو علمت أصلها ولمست مواطن
ضعفها كنت الى الخجل منها أدنى منك الى الزهو بها والاتكال عليها .

قال أبو معشر : أنبئني اذن بما لا أعلم ، واكشف عني غشاء الجهالة ،
وسدد فهمي بنور الهداية .

قال بلوبيل : تأمل يا أبا معشر في سلم الخلق من القيل الى الصدفة ،
وانظر الى درجة منها بعد درجة تجدها قريبا من قريب حتى لا فجوة
بينها ولا تكاد تلمح الفارق بين منازلها ودرجاتها . وان الناس عامة
ليجهلون ما يجهلون ، ولكنك أنت — أبا معشر — أهل لأن تعلم ما فوق
القيل من منازل ودرجات الى غاية الغايات من العظام والطيبات . فلا

فجوة هناك بين خلق وخلق ، بل هى درجة فوق درجة وأفق يعلوه أفق ، لا يدركها البصر ولا يستوعبها الضمير ، ولا يرتفع اليها الطرف الا ارتد وهو حسير (١) .

ذبابة الربيع

وألف فرنكلين هذه الخرافة، أو هذه الحكاية الرمزية ذات المعنى ، بعد رحلة خلوية الى جزيرة مولان جولى Moulin Joli بنهر السين ، مع السيدة برون التى كانت مشغولة — كسيدات المجتمع الباريسى كله — بالحرب الموسيقية بين المدرسة الألمانية والمدرسة الايطالية ، وكان فى الرحلة معها طائفة من العلية المهذبن تحدثوا فى مسائل شتى فى مسائل الأدب والفن والفلسفة ، وكتب فرنكلين هذه الحكاية ليضمنها عبرة الحياة بعد اليوم الذى قضوه فى النزهة أو بعد الأجل المعدود لأجيال الذباب التى تظهر فى موسم الربيع وتكثر فى جزر الأنهار الفرنسية ولا يطول بها العمر وراء اليوم الذى تولد فيه .

قال وهو يهدى الحكاية ، أو العبارة ، الى تلك السيدة :

تذكرين يا صديقتى العزيزة أننى فى ذلك اليوم السعيد الذى قضيناه فى الحديقة البهجة والصحة الحلوة عند مولان جولى — قد تنجيت هنيهة عن الزمرة وتخلت وراءها قليلا منفردا بنفسى ، وقد رأينا أثناء ذلك عددا كبيرا من « الهياكل العظمية » لذلك الذباب الذى يسمونه تارة « بالمناء » وتارة بذباب الربيع ، وقيل لنا ان أجيالا منه تحيا وتموت وتتعاقب فى مدى النهار الواحد ، وصادفنى جمع من هذا الذباب منعقد على ورقة من أوراق الشجر مستغرقا فى الحوار والجدل ، وأنت تعلمين أننى بالسنة هذه الخلائق الدنيا خير ..

(١) الحكايتان من كتاب الخرافات الكبرى جمع كمروف

Great Fables, Komroff

ان اشتغالى بالسنة هذه الأحياء لهو العذر الذى أعترز به من التقدم البطيء فى تعلم لسانكم الجميل ، فأصغيت — بداعى الفضول — الى حديث المؤتمر ولم يتيسر لى أن أستوضح جلية القول من كل حديث لأنهم كانوا فى اندفاعهم وحمية شبابهم يتكلمون كل أربعة أو خمسة فى وقت واحد . الا أنتى أدركت من كلمة هنا وكلمة هناك أنهم يتناقشون فى المفاضلة بين الطينين الذى يسمع من احدى مدارس الذباب الغنائية والطينين الذى يسمع من المدرسة الأخرى ، وكانوا مستغرقين فى هذه المناقشة كأنهم على ثقة من امتداد العمر بهم شهرا أو يزيد ..

قلت فى نفسى : ما أسعد هؤلاء القوم ! وقلت كأنتى أخطبهم : لاشك أنكم تعيشون فى ظل حكومة رفيقة عادلة لا تشغلکم بالشكايات والمظالم عن الاسترسال فى أمثال هذه الأحاديث عن الموسيقى الأجنبية التى تبحثون فى محاسنها أو عيوبها ، وأدرت بصرى عنهم فلمحت واحدا منهم أشيب الرأس منفردا على ورقة أخرى يناجى نفسه نجاء أعجبنى وراقنى فدوته على الورق لساعته .

كان هذا الحكيم الذبابى يقول : « ان حكماء أمتنا الذين عاشوا قبلنا منذ عصر بعيد يقولون ان هذا العالم الفسيح المسمى بالمولان جولى لن يعمر أكثر من ثمانى عشرة ساعة ، وأخالهم على حق فيما يقولونه لأن هذا النهر العظيم الذى تتولد منه الحياة كلها قد مال فى حياتى الى جانب البحر المحيط حيث يغرق لا محالة وينطفئ وتخمد معه شعلة الحياة فى كل مكان ويدع هذا العالم الكبير مطويا فى غمرة البرد والظلام !

ولقد عشت سبعا من هذه الساعات — عمرا طويلا ولا ريب ، لأنه لا يقل عن أربعمائة وعشرين دقيقة ، وما أقل الذين يعمرون منا مثل هذا العمر الطويل ! لقد أبصرت بعينى أجيالا تولد وتحيا وتموت ، وصحابتى اليوم انما هم الأبناء والحفدة لمن كانوا صحابة لى فى ريعان الشباب ولم يبق منهم أحد أراه وآسفاه .

وانى لا محالة لاحق" بهم عما قريب ، فانتى — وان كنت فى صحة وعافية — لن أخرج قانون الطبيعة ولا مطمع لى فى البقاء بعد سبع دقائق أو ثمان . فما غناء هذا العناء الذى عانيتة وهذا الشهد الذى جمعته على هذه الورقة حيث أتركه ولا أنعم بمذاقه ! ما غناء الغزوات السياسية التى غزوتها فى سبيل هذه الجماعة على تلك الأجمة . ما غناء الفلسفة ومعضلاتها التى تعمقت فيها عسى أن أفيد بها أبناء النوع كله ! وما غناء القانون فى السياسة بغير أخلاق !!

ان جيلنا الحاضر من ذباب الربيع لو شيك أن يخالطه الفساد والمنكر خلال لحظات ويصبح كغيره وغيره من سكان تلك الأجمات فى ضروب الفساد والشقاء ! أما الفلسفة فما أقصر الخطى التى خطونها فى مضمارها ! وما أصدق قول القائلين : ان الفن لطويل وان العمر لقصير .

ويواسينى أصدقائى فيذكرون لى السمعة التى سأتركها من بعدى ويقولون لى اننى استوفيت حكم الطبيعة وحكم المجد أجمعين . فماذا تجدى السمعة ذبابة قد فنيت وليس لها من وجود ، وماذا يبقى من التاريخ كله بعد الساعات العشر والثمان ، وبعد فناء الدنيا وفناء المولان جولى نسها فى غيابة الظلام والخراب ؟ .

انتى — بعد السعى الحثيث والدأب الطويل — لم يبق لى من متعة فى العمر غير التدبر فى تلك الأيام الطوال التى أحسنت فيها المقصد والنية ، وغير الأحاديث التى أبادلها نخبة من الذبابات الطيبات ، وغير ابتسامة من حين الى حين ، أو أغنية فى يوم بعد يوم ، تجود بهما الحبيبة الحسناء .

ابراهيم والضيف الكبير

.. وحدث بعد هذه الأشياء أن ابراهيم جلس على باب خيمته قريبا من وقت غروب الشمس .

ونظر فرأى رجلا حنته السنون مقبلا من ناحية البرية ، متوكأ على عكاز .

ونفض ابراهيم واستقبله وسأله قائلا : بحقك أن تأوى الى خيمتى
أغسل قدميك وتستريح طول الليل وتمضى الى سبيك عند الصباح .

ولكن الرجل قال : لا .. وقال انه سينام تحت تلك الشجر .

وكرر ابراهيم الدعوة وألح عليه كثيرا ليقبل دعوته ، فقبل ودخل
معه الخيمة وصنع له ابراهيم خبزا فطيرا وأكلا معا .

ولما رأى ابراهيم أن الرجل لم يحمد الرب ولم يتوجه اليه بالصلاة
سأله : ما لك لا تعبد الرب العلى الأعلى خالق الأرض والسماء ؟

وأجاب الرجل فقال : اننى لا أعبد الإله الذى تتحدث عنه ولا أسبح
باسمه . لأننى اتخذت لنفسى ربا يقيم معى فى بيتى ويزودنى بجميع
الأشياء .

وثارت ثائرة ابراهيم على الرجل فقام ودفع به الى البرية مشيعا
باللطمات والضربات .

وفى منتصف الليل نادى الرب ابراهيم قائلا : أين الرجل الغريب ؟

وأجاب ابراهيم فقال : انه لا يعبدك ولا يسبح باسمك ، فأخرجته
لأجل هذا من خيمتى ودفعت به الى البرية .

وقال الرب : هل أصبر عليه أنا هذه السنين المائة والثمانى والتسعين
أطعمه وأكسوه ولا أبالى عصيانه لى وتأتى أنت صاحب الخطيئة فلا
تصبر عليه ليلة واحدة ؟

وقال ابراهيم : لا يحم غضب الرب على عبده . لقد أخطأت وأتوسل
إليك يا رب أن تغفر لى خطيئتى .

ونفض ابراهيم وخرج الى البرية وبحث عن الرجل بحثا شديدا
فوجده وعاد به الى الخيمة فأكرمه وتلفظ له وشيعه فى اليوم التالى
بالهدايا .

وتكلم الرب مرة أخرى مع إبراهيم قائلاً : من أجل خطيئتك هذه
يتعذب أبنائك أربعمئة سنة في أرض غريبة .
ولكن من أجل توبتك أنقذهم وأخرجهم أقوىاء بقلوب فرحة وخير
كثير (١) .

علميات

الزيت على الماء

والرسالة الآتية كتبها فرنكلين الى صديقه وليام بروننج من علماء انجلترا الطبيعيين في عصره ، يطلعه فيها على تجاربه في تهدئة البحر الهائج بصب الزيت على الماء ، وقد تليت هذه الرسالة على مجمع العلوم البريطاني في الثاني من شهر يونيو سنة ١٧٧٤ ثم نشرت في مجموعتها الفلسفية ، وقد ترجمناها من « الكتابات الترجمية » التي سبقت الإشارة إليها .

لندن في السابع من نوفمبر سنة ١٧٧٣ .

سيدى العزيز :

أشكر لك ما أبلغتني من ملاحظات صديقك العلامة في كارليس ، وقد كنت في صباى أبتسم حين أقرأ كلام بليني Pliny عن عادة الملاحين في زمنه أن يعالجوا تهدئة الأمواج في العاصفة باراقة الزيت على البحر ، وهى عادة أشار إليها مع اشارته الى استخدام الغطاسين للزيت ، ولكننى لم أثلفت الى تهدئة الهواء العاصف برش الخل فيه ، وأرى كما يرى صديقك أن المتأخرين أفرطوا في السخرية من معارف الأولين ، وأرى كذلك أن العلماء أيضا يفرطون في السخرية من معارف العامة ، ومن الأمثلة على ذلك أن التبريد بالتبخير تجربة عرفها العامة منذ زمن طويل ، وأما تهدئة الأمواج بالزيت فهى من الأمثلة على كلا الأمرين .

ولعلك لا تأبى أن أبسط لك كل ما سمعت وعلمت وعملت في هذا الصدد ، وها أنا ذا أستأذنت في أن أبسطه بين يديك :

في سنة ١٧٥٧ كنت في أسطول مؤلف من ستة وتسعين شراعا يتجه

الى لويربورج ، ولاحظت أن مؤخرة سفينتين فى الأسطول هادئة على نحو يلفت النظر ، على حين لاحظت الاضطراب فى السفن الأخرى بمهب الريح التى أخذت فى الهبوب . وحرث فى الاختلاف بين المنظرين وأفضيت بحيرتى الى الربان سائلا عن سر هذا الاختلاف ، فقال لى ان الطباخين على ما يظهر قد أفرغوا فى البحر بقايا الماء الوضر فأسلست قليلا جواب السفينتين ، وكان فى اجابته مسحة من الاستخفاف بهذا الجهل لأمر من الأمور التى لا يجهلها أحد ، ولكننى استخففت أيضا بالتفسير الذى أبداه وان لم يكن فى وسعنى أن أعثر على تفسير خير منه ، ثم تذكرت ما قرأت فى بلىنى فعولت على تجربة أثر الزيت على الماء عند سنوح الفرصة الملائمة .

وعدت الى البحر منفردا سنة ١٧٦٢ ، فلاحظت أولا ذلك الهدوء العجيب فى الزيت الذى كان على ماء المصباح المترجح الذى علقتة فى الكيسنة كما وصفته فى أوراقى ، وطفقت أنظر اليه وأظنه ظاهرة ليس لها تفسير . وكان معى من الركاب ربان قديم لم يهتم بالملاحظة لاعتقاده أن الظاهرة من قبيل ظاهرة الزيت الذى يراق على الأمواج لتهدئتها ، وهى كما قال عادة البرموديين كلما أرادوا اصابة سمكة يحول اضطراب الموج دون رؤيتها ، ولم أكن قد سمعت بهذه العادة قبل ذلك فكنت مدينا له بما أخبرنى عنها وان كنت لا أوافقه على التشابه بين ظاهرة المصباح وظاهرة الموج لما بينهما من الاختلاف فى العمل والنتيجة . اذ كان الماء فى احدى الحالتين هادئا حتى يوضع الزيت عليه فيضطرب ، وكان الماء فى الحالة الثانية مضطربا حتى يوضع الزيت عليه فيهدأ ..

وأخبرنى السيد نفسه أن العادة متبعة بين الصيادين من أهل لشبونة كلما عادوا الى النهر وأبصروا على حوافى القوارب طفاوات يخشون أن تغمرها ، فانهم فى هذه الحالة يفرغون زجاجة أو زجاجتين على ماء البحر فلا يطغى على القوارب ويمرون بسلام .

ولم تسنح لى فرصة لتعزير هذا الخبر حتى تحدثت مع شخص آخر

طويل الخبرة بالملاحة في البحر الأبيض المتوسط ، فأخبرني أن العطاسين هناك إذا احتاجوا الى النور في القاع وحال بينهم وبينه اضطراب سطح الماء نشوا من أفواههم قليلا من الزيت بين حين وحين فصعد الى السطح وهذا الماء فنفذ منه النور ، وجعلت أقلب هذه المعلومات في ذهني وأعجب لخلو كتبنا في التجارب الفلسفية من الإشارة اليها .

وألفتني أخيرا في كلاهام ، وفيها بركة لاحظت يوما من الأيام أنها مضطربة الماء فأرقت عليها قليلا من الزيت ورأيت ينتشر على سطحها بسرعة مذهشة ولكنه لم يؤثر في تهدئة الماء ، لأنني أرقته في اتجاه الرياح حيث كان معظم الموج فعادت به الرياح الى الشاطئ . فقصدت بعد ذلك الى الجهة التي تهب منها الرياح ويتموج عندها الماء وألقيت ثمة قليلا من الزيت لا يزيد على ملء معلقة من ملاعق الشاي ، فما هو الا أن وصل الى الماء حتى سكن على الأثر الى مدى عدة ياردات وراح ينتشر وينتشر حتى بلغ الجانب الآخر مهدئا تلك الرقعة كلها — قرابة نصف فدان — كأنها صفحة مرآة .

بعد ذلك تعودت أن آخذ معي — كلما ذهبت الى الخلاء — قليلا من الزيت في تجويف القصبة العليا من عصاى لأكرر التجربة حيث تنهيا لى الفرصة ، فوجدتها ناجحة على الدوام .

وقد لفتني في جميع هذه التجارب شيء واحد بصفة خاصة ، وهو هذا الانتشار الواسع السريع القوى الذى تنتشره قطرة واحدة من الزيت على صفحة الماء ، ولا أعلم أن أحدا اهتم بهذه المشاهدة قبل الآن . فان قطرة الزيت اذا وضعت على مائدة من المرمر المصقول أو على مرآة في وضع أفقى تلبث في موضعها ولا تنتشر الا قليلا .

الا أنها اذا ألقيت في الماء لا تلبث أن تنتشر على صفحته عدة أقدام وترق جدا حتى تنعكس عليها ألوان الطيف الى مدى غير قصير ، ثم لا تزال ترق وراء هذا المدى حتى لا تبدو للنظر الا ما يكون من أثرها

في تهدئة الموج ، وكأنما يحدث بين أجزائها تدافع مشترك في اللحظة التي تقع فيها على الماء ، ويكون ذلك التدافع من القوة بحيث يعمل عملا في الأجسام العائمة على صفحة الماء من قبيل القش أو ورق الشجر أو الحتات ، مضطرا اياها أن ترجع عن القطرة كأنها ترجع عن مركز حركة الى مدى غير قريب ، ولم أثبت بعد مقدار هذه القوة ولا قياس المدى الذي يمتد اليه أثرها ، ولكنني أحسبها مسألة من مسائل البحث وأود أن أستطلع سرها .

وقد سافرت الى الشمال تلك السفرة التي سعدت فيها بلقائك في أورماثويت Ormathwaite فزرنا النابه الشهير مستر سميتون على مقربة من ليدز ، وهممت أن أريه التجربة على بركة صغيرة بجوار بيته فقال لنا تلميذ ذكي من تلاميذه — وهو مستر جيسوب — انه شهد هنالك ظاهرة غريبة منذ وقت قريب ، وكان يهم بأن يغسل في الماء قدحا من أقداح الشاي يضع فيه الزيت فألقى منه على الماء بضع ذبابات غرقت في الزيت ، فما كادت تصل الى الماء حتى أخذت تتحرك وتدور دورة سريعة كأنها حية ناشطة وان كان قد لمسها فعلم أنها ليست كذلك ، فاستخلصت من ذلك على الأثر أن الحركة آتية من التدافع الذي أشرت اليه ، وأن الزيت الذي يرسله جسم الذبابة الاسفنجي تدريجا يدفع تلك الحركة الى الاستمرار ، وعاد التلميذ فوجد في الزيت بعض الذبابات الغرقى كررنا التجربة عليها وأردت أن أستوثق من أن الحركة لم تحدث من رجعة الذباب الى الحياة فأجريت التجربة على الفتات وقطع الورق مقصوفة على شكل الواو في حجم الذبابة المألوف فوجدنا التيار يدفعها ويدير الواو الى الجهة المضادة ، وليست هذه تجربة بيتية بين جدران حجرة ، لأنها لا يمكن أن تعاد في ماء جردل أو اناء على المائدة ولا بد من صفحة كبيرة على وجه الماء تتسع لامتداد قطرات الزيت القليل . أما الطبق أو الاناء فان قطرة الزيت الصغيرة فيه اذا ألقيت في الوسط شاعت على وجه الماء كله طبقة وضرة صادرة من القطرة وتوقف صدورهما لمجرد

وصول الطبقة الى جوانب الاناء ، ومنعتها تلك الجوانب أن تتخذ شكلا غير شكل الزيت بمنع الامتداد من مصدرها .

وقد ذهب صديقنا سير جون برنجل بعد ذلك الى سكوتلاند فعلم أن الصيادين الذين يعملون في صيد سمك الرنجة يستطيعون رؤيتها على بعد وأنهم ربما ساعدهم على الرؤية مادة زيتية تنبعث من أجسامها .

وأخبرنى سيد من جزيرة رود أنهم لاحظوا هناك في ميناء نيوبورت أن الماء يظل ساكنا ما بقيت فيه سفينة من السفن التى تستخدم في صيد الحيتان ، وربما كان ذلك لأن الآنية التى يودعونها دهن الحوت يرشح منها الدهن الى الماء الذى يفرغونه من سفنهم وينتشر على صفحة الماء في الميناء فيحول دون اثاره الأمواج عليه .

وسأحاول تفسير ذلك المانع :

فالظاهر أنه لا توجد بين الماء والهواء طبيعة التدافع التى تمنع اتصال أحدهما بالآخر ، ومن ثم نجد في الماء بعض الهواء ويعود الهواء بمثل ذلك المقدار الى الماء اذا استخرجناه بالمضخات ، وعلى هذا يمكن أن يمر الهواء على صفحة الماء الساكنة ويحدث فيها الثنايا التى تتكون منها الأمواج ، ومتى برزت موجة — بالغة ما بلغت من الصغر — على وجه الماء لم تهبط على الأثر فتترك الماء الى جانبها على سكونه ، بل يكون هبوطها سببا لبروز موجة أخرى بغير اختلاف في احتكاك الأجزاء ، واذا ألقى في الماء حجر نشأت منه موجة واحدة حوله في أول الأمر ويتركها فيرسب في القاع ، ولكن هذه الموجة تهبط فتبرز الى جانبها موجة أخرى فموجة غيرها الى أمد بعيد .

والقوة الصغيرة اذا تكررت كان لها أثر كبير . فالأصبع اذا لمست جرسا كبيرا لمسة واحدة لم تحركه الا حركة يسيرة ، ولكنها اذا لمست مرة بعد مرة بالقوة نفسها زادت الحركة حتى يصل الجرس الى أعلى ذروته بقوة لا تستطيع الذراع كلها أن تقاومها ، وكذلك الموجة الصغيرة

الأولى التى تظل الريح مؤثرة فيها تزداد فى الامتداد وان كانت الريح لا تزداد فى القوة ، وترتفع ثم ترتفع فتمتد قواعدها حتى تشمل مقدارا كبيرا من الماء فى كل موجة وتندفع فى حركتها بقوة شديدة .

أما اذا وجد التدافع المتبادل بين أجزاء الزيت ولم يوجد التجاذب بين الزيت والماء ، فالزيت الذى يراق فى الماء لا يماسك فى الموضع الذى ألقى فيه ولا يمتصه الماء ، وينطلق ممتدا بغير عائق فينبسط على صفحة واسعة تحول — فضلا عن ملاستها — دون احتكاك الهواء مباشرة بالماء ، ويستمر هذا المانع مع امتداد الزيت حتى يبلغ من الامتداد غايته القصوى فيضعف أثره ويذول .

واننى أتخيل الآن أن الريح متى هبت على ماء مغطى على ذلك النحو بطبقة من الزيت لم يسهل احتكاكها به ذلك الاحتكاك الذى يبرز الموجة الأولى ، بل تنساب فوقه وتدعه ساكنا كما كان ، وهى تحرك الزيت قليلا ولا شك ، ولكنها حركة بين الزيت والماء تساعد على الانسياب وتمنع الاحتكاك كما يمنع احتكاك أجزاء الآلات ، ولهذا يذهب الزيت الذى يراق فى اتجاه الريح الى الوجهة المقابلة ، اذ كانت الريح فى هذه الحالة لا تتمكن من اثاره الخلجات الأولى التى تتكون منها الأمواج ، فتبقى البركة كلها على حالها من الهدوء .

وفى وسعنا اذن أن نجمع الموج حيث نريد اذا وصلنا الى المهب الذى تنشأ منه أوائلها ، ويتعذر ذلك فى البحر المحيط أو يحدث فى الندرة القليلة ان حدث ، الا أنه قد يتيسر بعض العمل لتخفيف دفعة الأمواج حين نكون فى وسطها فنمنع انكسارها كلما وافقنا ذلك . اذ لا يخفى أن الريح كلما هبت من جديد نجم وراء كل موجة خلجات صغار تزعج صفحتها وتهيئ للريح أن تأخذ بمقبضها لتدفعها دفعة أقوى ، وهذا المقبض لا يتهيأ للريح بمنع الخلجات الصغار ، وربما لم يتهيأ كذلك عند تزييت صفحة الموج فتدفعها الريح الى أسفل بدلا من تحريكها الى جانبها وتعمل بذلك على تهدئة الموج بدلا من استمراره .

وهذا — على اعتباره من قبيل التخمين — لاقيمة له ان لم يكن صب الزيت في وسط الأمواج ذا بال ولم يفسر بعد بتفسير غير هذا التفسير .

ان الرياح عندما تهب متوالية بحيث لا تسرع الموجات الى تلية فعلها تكون رؤوسها خفيفة فتندفع وتتكرر كالرغو الأبيض ، وان الأمواج عادة ترفع السفينة ولا تدخلها ، ولكن هذه الأمواج المرغية المزبدة اذا تعاظمت وارتفعت قد تغمرها وتعرضها للخطر العظيم .

وليس لدينا تجربة تثبت لنا أن هذا الخطر يمكن منعه وأن ارتفاع الأمواج في البحر الزاخر مما يمكن تخفيفه ، لأن ملاحظة بليني عن تجارب الملاحين في عصره لم يلتفت اليها . الا أنني حدثت أخيرا صاحب السعادة الكونت بنتنك الهولندي ، وابنه الربان بنتنك ، والأستاذ العلامة اليمانند ، وأريتهم تجاربى في تهدئة الأمواج العالية على رأس البستان الأخضر فذكر لى الكونت خطابا تلقاه من بتافيا عن انقاذ سفينة في زوبعة بصب الزيت على الماء ، وودت لو حصلت على نسخة من هذا الخطاب فسمح لى الكونت بها بعد ذلك ، وهذه هى نبذة من الخطاب المؤرخ في الخامس من شهر يناير سنة ١٧٣٠ يقول فيها مستر تنجناجل للكونت بنتنك :

« انه على مقربة من جزائر بول وأمستر دام لم يوجد ما يستحق التبليغ الا ما حدث من اضطراب الربان طلبا للسلامة أن يصب الزيت على الماء لمنع تدفق الأمواج فيها فكان لذلك أثر يئّن ونجونا بفضل ، ولما كان الربان قد حرص على صب الزيت قليلا بعد قليل فشركة الهند الشرقية مدينة بنجاة سفينتها لست قنينات من زيت الزيتون ، وقد كنت على ظهر المركب عند اجراء هذه التجربة ولم يحملنى على الكتابة بها اليك الا ما وجدته من شك القوم في نفعها وضرورة العلم بهذا النفع واقرار هذه التجربة بشهادتنا وشهادة الضباط في السفينة ، مما تيسر لنا بغير مشقة » .

لهذه المناسبة رويت للربان ببتك فكرة خطرت لى أثناء الاطلاع على رحلات ملاحينا المتأخرين ، وبخاصة حين يذكرون الجزر الجميلة الخصبة التى يتوقون الى الارساء بها اذ يلجئهم الى ذلك الدوار والمرض ثم يحول البحر المضطرب دون بلوغهم شواطئها ، والفكرة التى خطرت لى أنهم يستطيعون الارساء بها اذا ترددوا جيئة وذهوبا على مسافة قريبة من الشاطئ وصبوا الماء أثناء ذلك مع اتجاه الرياح الساحلية، فربما هبطت الأمواج قبل وصولهم الى الشاطئ وهدأت حركتها العنيفة هدوءا يمكنهم من الوصول اليه اذ يكون فى الأمر من الفائدة ما يساوى قيمة الزيت المصبوب .

وتفضل السيد ، الذى أثرت عنه الغيرة على تحقيق كل مافيه المصلحة وان لم يلتفت الى مخترعاته الذكية الالتفات الواجب لها ، فدعانى الى بورتسموث حيث يرجى أن تسنح الفرصة للتجربة على شواطئ سبتيد ، وتلطف فزاملنى فى الرحلة ووعد باعطائى الزوارق اللازمة لتلك التجربة.

وعلى ذلك ذهبت الى روتسموث حوالى منتصف أكتوبر الماضى مع بعض الصحاب، وهبت ريح ساحلية بين مستشفى هسلار والموقع القريب من جليكر ، فخرجنا من السفينة ستاءور فى زورق طويل وصندل متجهين الى الساحل ، وكان ترتينا هكذا : الزورق الطويل على مسافة ربع ميل من الساحل ، وفئة من الصحبة نزلت على الساحل وراء الموقع القريب من جليكر وهو مكان محمى من ناحية البحر ، ثم جاءت واستقرت على مكان مواجه للزورق الطويل حيث يتسنى لهم أن يراقبوا صفحة الماء ويلاحظوا ما يطرأ عليها من التغير بعد صب الزيت ، وكانت فئة أخرى على الصندل على اتجاه الرياح من ناحية الزورق الطويل فى موضع وسط بينه وبين الساحل تذهب وتجيء وهى تصب الزيت على الماء من قدرة فيها سدادة مفتوحة أوسع قليلا من ريشة الأوزة ، فلم تسفر التجربة عن النجاح الذى رجونا ولم يلاحظ فرق محسوس على الموج بجوار الساحل غير أن ركاب الزورق الطويل شاهدوا ممرا هادئا على طول

المسافة التى كان الصندل يصب الزيت عليها يتسع كلما اقترب من الزورق الطويل ، وأقول انه ممر هادىء ولا أعنى أن صفحة الماء كانت مستوية، بل أعنى أنها مع ارتفاع الموج فيها لم يكن ثمة أثر للخلجات الصغيرة التى أشرت اليها آنفا ولا للزبد الذى يعلو فوق رؤوس الأمواج ، وإن يكن فى متجه الرياح والجانب المقابل له كثير من تلك الخلجات ، واتفق مرور زورق منشور الشراع هناك فاختار الممر طريقا للعبور .

وقد يفيد وصف التجربة التى لم تنجح عسى أن تصحح التجربة فى مرة أخرى ، ولهذا وصفتها بالتفصيل وأرجو أن أضيف الى وصفها تعليلا لحبوطها وخيبة الأمل فيها .

يلوح لى أن عمل الزيت على الماء « أولا » أن يمنع ارتفاع موجات جديدة بهبوب الرياح ، و « ثانيا » أن يمنع اندفاع الموجات التى ارتفعت فعلا بقوتها الأولى فلا تحدث موجات أخرى ترتفع مثل ارتفاعها كما يحدث لو لم يكن على صفحة الماء زيت مصبوب . الا أن الزيت لا يمنع التموج الذى يحدث لسبب آخر أو قوة أخرى كقوة الحجر الذى يسقط فى بركة ساكنة لأن الموج يرتفع اذن بقوة الحجر الدافعة « الميكانيكية » التى لا تستطيع الصفحة المزينة أن تمنعها كما يمتنع اتصال الهواء بالماء واثارة الأمواج فيه .

والموجات التى ترتفع بقوة الرياح أو بغيرها تعمل عملا واحدا فى الارتفاع والهبوط كما يعمل الرقاص بعد انقطاع عمل القوة التى دفعته الى الحركة الأولى ، وهى حركة تسكن مع الزمن ولكن لا بد لها من زمن على أية حال .

وعلى ذلك يمكن أن يضعف الزيت على البحر الهائج دفعة الموج الذى على صفحته فيهبط لامتناع التأثير الجديد الذى يطرأ عليه ، ولكنه لا بد من مرور زمن قبل ظهور الأثر على مثال ما يحدث عند هدوء الرياح فجأة ، فإن الأمواج لا تهدأ فجأة بهذه السرعة بل تأخذ فى الهدوء شيئا فشيئا حتى تنقطع الرياح .

ونحن كذلك وصلنا بصب الزيت على الماء الى تهدئة الأمواج التي ارتفعت قبل ذلك، ولم يكن منتظرا أن تتم هذه التهدئة على الأثر حتى تستوى الصفحة كل الاستواء ، ولا بد للحركة التي بعثتها أن تستمر بعض الوقت وأن تصل الى الساحل بقوة وسرعة ان لم يكن على مسافة بعيدة فلا يلاحظ عليها ضعف محسوس ، ويجوز أننا — على مسافة أبعد من تلك — كنا نحس للتجربة أثرا أكبر من ذلك لو أننا بدأنا عملنا على مسافة أبعد من الساحل ، أو يجوز أن الزيت الذي صببناه لم تكن فيه الكفاية، وتظهر النتيجة في التجارب التالية .

ولقد شكرت الريان بمنتك لمساعدته الطيبة الرضية ، ولا أنسى فضل مستر بانكس والدكتور سولاندر والجنرال كارنوك والدكتور بلاجدين الذين اشتركوا في التجربة في ذلك اليوم المضطرب المزعج وصبروا على الدأب فيها صبرا لا باعث له غير زيادة المعرفة، وبخاصة تلك المعرفة التي تنفع الناس في مواقف الشدة والحر .

وبودي لو أطلعت صديقك الأملحى مستر فريس على هذه الرسالة مع تبليغه تحيتي واحترامى ، واننى يا سيدى العزيز مع تقديرى الخالص ... الخ الخ .

اجتماعيات

والاجتماعيات التي كتبها فرنكلين تتسم — كسائر كتابته — بسمة السماحة الفطرية التي تنظر الى الحقائق من وراء حدود الأجناس والألوان، وتعرف في الوقت نفسه حدود الطاقة الانسانية فلا تنسى الأعذار وهي تحكم على الذنوب ، ولا تجهل الضرورات وهي تتكلم على الواجبات ، ونجتزئ من هذه الاجتماعيات بفصلين : أحدهما عن الهنود الحمر ، والآخر عن المرأة الخاطئة .

قال بعنوان : « في شؤون المتوحشين المقيمين بأمريكا الشمالية » : نسميهم متوحشين ، لأن عاداتهم تخالف عاداتنا التي نحسبها غاية الدماثة والأدب ، وانهم ليحسبون عاداتهم كذلك .

وأخالنا لو درسنا عادات الأمم المختلفة بغير تحيز لم نجد شعبا قط يبلغ من خشونته أن يتجرد من قواعد الأدب والمجاملة ، ولم نجد شعبا قط يبلغ من أدبه ومجاملته أن يخلو من بعض الخشونة .

ان الرجال الهنود في صغرهم صيادون ومقاتلون ، وهم في كبرهم نصحاء مستشارون ، لأن أمور الحكم كلها تجري بينهم وفاقا لمشورة الحكماء ، فلا سلطة ولا سجون ولا شرطة تكرههم على الطاعة ، ولهذا تراهم يمارسون صناعة الكلام ، فأبلغهم أكبرهم نفوذا بين قومه .

والنساء الهنديات يحرقن الأرض ويطهون الطعام ويرضعن الأطفال ويربينهم ، ويحفظن للخلف مآثورات السلف .

وهذه الشواغل التي يشتغل بها الرجال والنساء معدودة بينهم من الأمور الفطرية الموقرة . وهم — لقلّة مطالبهم الصناعية — يجدون متسعا من الوقت لتهديب المحادثة والسمر ، وينظرون الى أسلوبنا المجهد

في المعيشة نظرهم الى ضعة الرق والخسة ، كما ينظرون الى التعليم الذي تفخر به كأنه ثقافة وعبث بغير جدوى ، وقد شهدنا مثلاً على ذلك في معاهدة لانكستر بينسلفانيا سنة ١٧٤٤ بين حكومة فرجينيا والأمم الست الهندية . فبعد التفاهم على المسائل الهامة أبلغ المندوبون عن حكومة فرجينيا جماعة الهنود مشافهة أن في وليامبرج كلية ذات رصيد مخصص لتعليم أبناء الهنود ، وأن رؤساء الأمم الست اذا راقهم أن يرسلوا الى الكلية فئة من أبنائهم — ستة مثلاً — فالحكومة هناك على استعداد للعناية بهم وتوفير لوازمهم وتعليمهم كل ما يتعلمه أبناء البيض .

ومن آداب الهنود المرعية أنهم لا يجيبون مقترحا عاما لساعته ، اذ يرون في ذلك شيئا من الاستخفاف به وأنه غير جدير منهم بالبحث والمراجعة ، ويستمهلون المقترح ريثما ينظرون فيه ليدلوا بذلك على اهتمامهم بأمره ، ووفقا لهذا العرف طلبوا المهلة لليوم التالي كي يجيبوا عن ذلك الاقتراح ، فلما كان الموعد أعرب مدره القوم عن شعورهم العميق بلطف الحكومة الفرجينية في عرض تلك المنحة الكريمة لأنه يعلم أن البيض يكبرون شأن التعليم في الكلية ، وأن توفير المطالب لأبناء الهنود في تلك الكلية يكلفها كثيرا من النفقة ، وأن الاقتراح ولا شك ينم على حب الخير ويستوجب منهم الشكر الجزيل .

قال : الا أنكم — بما لكم من الحكمة والخبرة — تعلمون أن الأمم المختلفة تختلف في النظر الى الأشياء وتقديرها ، وانكم لاتلومونا اذا كانت آراؤنا في ذلك النمط من التعليم لايتفق لها أن تطابق آراءكم . وقد بلونا ذلك بعض الشيء منذ سنوات حيث تخرج نفر من شبانا من كليات الشمال وحذقوا فيها جميع علومكم ، ثم عادوا الينا لا يحسنون العدو ، ولا يعرفون شيئا عن الحياة في الغابات، ولا طاقة لهم بالصبر على البرد والجوع ، ولا دراية لهم ببناء كوخ او اقتناص غزال أو الغلبة على عدو ، وقد ساء نطقهم بلغاتنا فلا هم قادة مقاتلون ، ولا هم نصحاء مستشارون ، ولا هم على الجملة صالحون لأمر من الأمور .

على أننا لا نبخس حقكم من الشكر على منحتكم الكريمة لأننا لم نتقبلها ، ولكي نعرب عن شعورنا بها تقترح على السادة الفرجينيين أن يرسلوا إلينا نحو اثني عشر من أبنائهم نعين بهم ونعلمهم على نهجنا وندربهم على كل ما تدربنا عليه ، ونخرج منهم رجالاً أشداء .

والهنود — لتعودهم عقد المجالس والمجتمعات للمشاورة — قد كسبوا القدرة على حظ عظيم من النظام واللباقة في إدارتها . فيجلس الشيوخ في الصف الأول ، ويجلس المقاتلون في الصف الثاني ، ويجلس خلفهم النساء والأطفال ، وعمل النساء في هذه المؤتمرات أن يعلقن في ذاكرتهن كل ما يجري وكل ما يقال فيها ويحفظنه تراثاً للأبناء لأنهم لا يعرفون الكتابة .

فالنساء سجلات المؤتمرات ، يحفظن من شروط المعاهدات ما قد مضى عليه مائة سنة ، وتقارن بينه وبين المكتوب عندنا فترى أنه مطابق له كل المطابقة .

وصاحب الدور في الكلام عندهم ينهض قائماً فيصغي إليه المستمعون في صمت وسكون ، ومتى فرغ من كلامه وجلس في مكانه تركوه بضع دقائق يتذكر ويتأني لعله أن يكون قد نسى شيئاً أو خطر له بعد الجلوس ما يستدركه من مقاله فينهض ثانية ويقول ما أراد ، وإنهم ليحسبون المقاطعة — حتى في المحادثة الدارجة — غاية في سوء الأدب والنبو عن المجاملة . فما أبعد هذا مما نشاهده من نظام المناقشة في المجلس المذهب مجلس النواب البريطاني ... إذ يندر أن يمضي يوم دون أن يعرض فيه ضرب من الاختلاط يبح صوت الرئيس وهو ينبه المتناقشين فيه الى النظام . وما أبعد هذا مما يحدث في كثير من الجماعات المهيبة على القارة الأوربية ، إذ تحس أنك مضطر الى اتمام عبارتك على عجل والا قاطعك في وسطها أولئك الذين يحادثونك ولا صبر لهم على كبح لجاجتهم في الحديث ، ثم لا يتاح لك أن تعود ثانية الى اتمامها .

والحق أن مجاملات الحديث عند هؤلاء القوم قد بلغت حد الافراط لأنها لا تسمح لهم بمناقضة كلام يسمعون أو تفنيده ، وهم — بذلك — يتجنبون المنازعات ولكنهم لا يظهرون لك حقيقة ما يريدون ولا يعربون عن أثر لكلامك في نفوسهم ، وقد طالما شكوا المرسلون المبشرون من هذه العادة وعدوها إحدى العقبات الكبار في طريق رسالتهم . فإن الهنود ليستمعون في صبر وأناة الى حقائق الكتاب التي تشرح لهم ويردون عليها ردودهم المعهودة من علامات الموافقة والاستحسان ، ويخطر لك انهم قد آمنوا وصدقوا ولا شيء من ذلك هناك ، وانما هي مجاملات وتقاليد .

* * *

ومن أخبارهم في ذلك أن قسا سويديا جمع زعماء القبيلة المعروفة بسكويهانا وخطب فيهم شارحا لهم أسس الوقائع التاريخية التي تقوم عليها ديانتنا ، كسقوط أبوينا لأكلهما من تفاح الجنة ، وظهور السيد المسيح للتكفير عن هذه الخطيئة وما عمله من العجائب واحتمله من الآلام . فلما فرغ من كلامه نهض خطيب هندي ليشكره ، فقال : « ان ما أخبرتنا به شيء حسن ولا ريب ، وانه لمن القبيح حقا أن يؤكل التفاح بدلا من تخميره واستخراج الشراب منه ، واننا لشاكرون لك ما تجشمت من مشقة لتبلغنا هذه القصص التي سمعتموها من أمهاتكم ، ونود في مقابلة ذلك أن نروى لك طرفا مما سمعناه نحن من أمهاتنا .

كان آباؤنا الأولون ولا غذاء لهم إلا من لحوم الحيوان ، وكانت جبالاتهم في الصيد لا تنفع فجاعوا وأوشكوا أن يهلكوا جوعا ، وانهم لكذلك اذ أفلح اثنان من شبائنا في اقتناص غزال فأوقدا نارا في الغاب ليشويا بعض لحمه ، ثم جلسا يأكلان منه فلاحتهما على تلك القمة التي تلمحها بين جبالنا الزرقاء فتاة حسناء هبطت من السماء واستوت على ذلك المكان ، فقال أحدهما لصاحبه : لعلها قد شمت رائحة الطعام فجاءت تلتمس نصيبا منه تأكله ، فلنعطها اذن ذلك النصيب . وقدمتا لها اللسان فالتذت مذاقه وقالت لهما : ان الهدية التي تفضلتما بها لمجزية

أحسن الجزاء . فتعاليا الى هذا المكان بعد ثلاثة عشر شهرا تجدا فيه شيئا ينفعكما في الطعام وينفع أبناءكم الى الجيل الأخير ، فعادا كما قالت وأدهشهما أن يجدا في المكان نباتا لم تقع عليه أعينهما من قبل ، ولم يزل ذلك النبات ينمو بيننا وننتفع به أحسن انتفاع . وقد نبتت الذرة حيث مست يمينها الأرض ، ونبت اللوبياء حيث مست الأرض بشمالها ، ونما التبغ حيث جلست عليها .

وامتعص القس الطيب من سماع هذه القصة الفارغة وقال لهم : ان ما حدثتكم به هو الحق المقدس وأتم تحدثونني بعد ذلك بالترهات والأباطيل . وساء الهندي أن يسمع منه هذه الكلمة الجافية فقال له : ان أصحابك يا أخانا لم ينصفوك بحقك من التعليم ولم ينشؤك النشأة الحسنة في آداب العرف والمجاملة . ولقد رأيت أننا سمعنا أقاصيصك فصدقناها ، فما بالك أنت لا تقابل منا ما سمعت بالتصديق ؟

وفد الواحد منهم الى مدنتنا فيتكوف الناس حوله ويحملقون في وجهه ويتطفلون عليه حيث يجب أن ينفرد بنفسه ، وهم يعيون ذلك ويعدون من الخشونة وسوء الأدب والنقص في عرف التحية والمجاملة ، ويقولون اننا نتطلع كما تتطلعون ونحب الفضول كما تحبون ، بيد أننا نخشى لئلا نراكم وراء الآجام ولا نعترضكم في الطريق أو نتطفل باصطحابكم حيث تسرون .

وان لهم لآدابا متبعة في دخول القرى التي يقدون عليها ، فلا يستحسنون من القادم أن يدخل الى القرية فجأة بغير استئذان ، وهم لهذا يقفون على مرأى من أهل القرية ويصيحون ولا يتقدمون خطوة حتى يأتيتهم من يدعوهم للدخول ، وقد جرت عاداتهم أن يستقبل القادمين اثنان من شيوخ القرية يهديانهم الطريق الى بيت خال يسمونه بيت الغرباء. ثم يذهبان من خص الى خص يلغان القوم بمقدم الضيوف ، وانهم ربما كانوا في حاجة الى طعام وراحة ، فيرسل كل منهم ما في وسعه من زاد ومن جلود يستريحون عليها ، فاذا استوفوا راحتهم جاءهم

بالتبغ يدخنونه وبدأوا بالحديث سائلين عنهم وعن وجهتهم وما هم قادمون من أجله ، وينتهى الأمر أحيانا بعرض الخدمة عليهم لاصطحابهم وتموينهم مسافة الطريق بغير أجر ولا ثمن .

وهذه الضيافة التي يعدونها بينهم من الفضائل العالية المطلوبة من آحادهم كما تطلب من جماعاتهم ، وقد أخبرني مترجمنا « كونراد ويزر » بالقصة التالية فقال : انه نشأ بين الأمم الست وحقق لغة الموهوك ، وانه في رحلة من رحلاته بين بلاد الهنود يحمل رسالة من حاكمنا الى مجلس « اوننداجا » زار مسكن « كناسيتيجو » أحد أصدقائه الأقدمين ، فعانقه الرجل وفرش له القراء ليجلس عليه ووضع أمامه فولا مسلوقا ولحما وقدحا من شراب الروم مشعشعا بالماء ، فلما استراح وأخذ في التدخين بدأه « كناسيتيجو » بالحديث وسأله عن أحواله في السنوات التي افترقا فيها وعن وجهته والمكان الذي أقبل منه والغرض الذي خرج من أجله، فأجابه كونراد عن هذه الأسئلة حتى أوشك الحديث بينهما أن يفتر ويتعثر ، فقال له الرجل : ايه كونراد . انك عشت طويلا بين البيض وعرفت شيئا من عاداتهم ، وقد زرت أنا اقليم « ألباني » ولحظت أنهم يغلقون دكاكينهم يوما في كل سبعة أيام ويتجمعون في منزل عظيم . فهلا حدثتني عن ذلك الاجتماع ما مقصدهم منه وماذا يصنعون فيه ؟

قال كونراد : انهم يجتمعون هناك ليتعلموا الآداب والطبيات المأثورة!

قال الهندي : لست أشك في أنهم أخبروك بما تقول لأنهم أخبروني بمثله . غير أنني أشك في مقالهم وأصارحك بأسباب شكى . ثم استطرده قائلا :

ذهبت الى « ألباني » كي أبيع جلودي وأشتري ما أحتاج اليه من الأغذية والسكاكين والبارود وشراب الروم ، وأنت تعلم أنني تعودت أن تكون معاملتي مع هانس هانسون ولكنني في هذه المرة أردت أن أجرب غيره من التجار . على أنني زرت هانسون بادىء الرأى وسألته :

بكم يشتري جلد السمور ؟ فقال انه لا يزيد في تقديره على أربعة شلنات للطل الواحد ، غير أنه لا يستطيع أن يتحدث الى في أمور المعاملة لأنه اليوم الذى خصصوه لتعلم الآداب والطيبات الماثورة . وأنه سيذهب الى الاجتماع اذ كان لا يقدر على مباشرة عمل من الأعمال .

قال الهندى : فذهبت معه ، وألقت ثمة رجلا يلبس السواد أخذ يخاطب الناس في غضب شديد ، فلم أفهم ما قال ، ولكننى رأيته ينظر الى والى هانسون فظننت أنه غاضب لرؤيتى هناك ، فخرجت وجلست الى جانب الدار وأشعلت قصبتى لأدخن منتظرا حتى ينفض الجمع ، وظننت كذلك أن الرجل قد ذكر شيئا عن السمور وخطر لى أن الاجتماع كله يدور على هذه الحكاية . فلما انصرف المجتمعون لقيت تاجرى وقلت له : ايه يا هانس ! أظنك قد فكرت فى الأمر وزدت فى تقديرك على الشلنات الأربعة . فأجبنى قائلاً : كلا ! أنا لا أستطيع أن أعطيك هذا الثمن ولا أزيدك على ثلاثة شلنات وستة بنسات . وانطلقت أتحدث الى غيره من التجار فألفيتهم جميعا يعيدون هذه النعمة بعينها : ثلاثة وستة بنسات ! ثلاثة وستة بنسات ! ووقر فى خلدى من ثم أننى على حق فى شبهتى وأنهم مهما يزعموا من سبب لتلك الاجتماعات وأنهم يلتقون فيها ليتعلموا الآداب والطيبات الماثورات فانما السبب الصحيح أنهم يجتمعون ليخدعوا الهنود عن ثمن السمور ، واذا تأملت قليلا — ياكونراد — فلا شك أنك تثوب الى رأى وتعلم أنهم لو كانوا يجتمعون ليتعلموا الآداب والطيبات الماثورات لكانوا قد تعلموا طرفا منها قبل ذلك . الا أنهم على جهلهم القديم ، وأنت تعلم عاداتنا معهم اذا قدم منهم أحد الى أكواخنا كيف نعامله كما نعاملك ونجفف ثيابه ان كان بها بلل وندفئه ان كان به برد ونسب له الطعام من اللحم والشراب ليفثا ظمأه ، ويشبع جوفه ، ونفرش له القراء لينام ويستريح ولا تتقاضاه أجرا على شىء من هذه الأشياء . ولكننا اذا ذهبنا الى بيت من بيوت البيض فى « ألبانى » والتمسنا لحما أو شرابا سألونا : أين تقودك ؟ فان

لم تكن معى نقود طردونى وصاحوا بى : اغرب من هنا أيها الكلب
الهندى !

فأنت تبصر اذن أنهم لم يتعلموا تلك الطيبات الصغار التى تتعلمها
نحن بغير حاجة الى اجتماعات وخطابات ، لأن أمهاتنا يعلمننا اياها ونحن
أطفال ، ومحال أن تكون اجتماعاتهم هذه لغرض من تلك الأغراض التى
يدعونها ، أو أن يكون لها أثر فيما يزعمونه ، وكل ما فيها أنها حيلة
يحتالونها لخداع الهنود عن ثمن السمور (١) .

(١) من كتاب الخزعبلات المتقدم ذكره .

محاكمة السحرة في جبل هولي

وهذه نبذة مترجمة من كتاب أئمة الأدب الأمريكي Masters of
Pennsylvania American Literature ونشرت أولا في صحيفة بنسلفانيا
Gazette بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٣٠ .

* * *

« في يوم السبت الماضي ، عند جبل هولي ، على مسافة ثمانية أميال
من برلنجتون ، اجتمع نحو ثلثمائة انسان للترحج على تجربة أو تجربتين
في أشخاص متهمين بالسحر الأسود ، ويظهر أن المتهمين قد اتهموا بأنهم
جعلوا خراف جيرانهم ترقص على أسلوب غير مألوف ، وجعلوا خنازيرهم
تتكلم وتنشد المزامير مما أفزع رعايا جلالة الملك الأمراء الوادعين في
الأقليم . وقد أصر المدعون على ادعائهم أن المتهمين لو وضعوا في كفة
ووضع الكتاب المقدس في كفة لخف ميزانهم وثقلت كفة الكتاب ، وأنهم
لو أغرقوا مقيدين طفوا على وجه الماء عائمين .

وأراد المتهمون أن يظهرُوا براءتهم فقبلوا التجربة واقترحوا أن
يوضع معهم اثنان من أشد المدعين اصرارا على الادعاء ، وعلى هذا تم
الاتفاق على المكان والزمان وأعلن عن الموعد في صحف الأقليم .

وكان المدعيان رجلا وامرأة ، والمدعى عليهما كذلك رجل وامرأة ،
وانعقد الجمع وتلاقى الفريقان فدارت المشاورة بينهم قبل البدء بالتجربة
وتفاهموا على الابتداء بالوزن واختاروا جماعة من الرجال لتفتيش الرجال
وجماعة من النساء لتفتيش النساء ، تحققوا من تجردهم جميعا من الأوزان
الزائدة ولا سيما الدبابيس .

وبعد البحث والتفتيش جيء بنسخة ضخمة من الكتاب المقدس
يملكها قاضي البلد ، وفتحت طريق في وسط الزحام من دار القاضي الى
مكان الميزان الذي علق بمشنقة أقيمت في مواجهة الدار ليراها ربات

الدار دون أن يخرجن لمخالطة الدهماء ، وتوسطت المكان حلقة على حسب المؤلف . ثم خرج من الدار رجل طويل وقور يحمل الكتاب بوقار كوقار السيف الذى يمشى فى لندن أمام عمدتها الكبير .

ووضع الساحر أولا فى كفة الميزان حيث تلى عليه اصحاب من أسفار موسى ، ثم وضع الكتاب فى الكفة الأخرى التى كانت مهبطة على الأرض وأرسات على الأثر . فما كان أعظم دهشة الناظرين حين أبصروا اللحم والعظام تهبط والكتاب العظيم يعلو ويرتفع ويرجحها اللحم والعظام بكثير ، وتكررت التجربة مع الآخرين فكانت أثقالهم كذلك أعظم من أثقال كتب موسى والأنبياء .

وانتهت هذه التجربة ولم يكتف بها الجمع بل أرادوا أن يتموها بتجربة الاغراق فى الماء . فتقدم الجمع فى موكب وقور الى البركة حيث جرد المدعون والمتهمون من ثيابهم الا ما يسترهم وقذف بهم فى النهر مقيدىن بالرجال وفى وسط كل منهم رجل يمسك به بعض الواقفين على الحافة ، وكان المتهم نحيفا هزيلا فلم يرسب لأول وهلة وبعد لئى ما غاص فى جوف الماء ، وجعل الآخرون يسبحون خفافا على وجه الماء . وقفز ملاح على الحافة فوق ظهر الرجل المتهم يظن أنه يهبط به الى قعر البركة، ولكن الرجل المقيد عاد الى الظهور قبل الآخر بهنية وجيزة .

ولما أخبرت المرأة المدعية أنها لم تغطس فى الماء ، وأنها ستعاد اليه عادت وطفقت مرة أخرى خفيفة كما كانت فى المرة الأولى ! فراحت تقول ان المتهم قد سحرها وطفق وزنها وأنها تريد أن تعيد التجربة كرة أخرى بل مائة مرة حتى ترغم الشيطان على الخروج منها .

أما المتهم فقد رأى أنه يطفو على الماء فتزعزعت ثقته ببراءته وصاح :
لئن كنت ساحرا ليكون ذلك على غير علم منى .

وكان ذوو المسكة من العقل بين المتفرجين قد آمنوا أنه ما من أحد يلقى فى الماء مكتوفا الا طفا على وجهه ما لم يكن عظاما فى جلد ولا شئ !

وأنه يظل كذلك حتى يذهب نفسه وتمتلىء رثاه بالماء . الا أن الرأي
السائد بينهم كان يميل الى الظن بأن فضول الكساء على أجساد النساء
تساعدهن على العوم ، فلا بد من تجربة أخرى وهن عاريات في الموعد
المقبل من مواعد الصيف .

=====

خاتمة

قليل من القراء من يعلم اننى دخلت مدرسة (الصنائع) ببولاق لدراسة الكهرباء والتلغراف ، وأقل منهم من يعلم الصلة بين اتجاهى الى هذه الوجهة وبين اسمين من كبار المخترعين الذين بدأوا حياتهم بالعمل فى الصحافة والكهربا ؛ هما فرنكلين واديسون .

ولست أذكر على التحقيق متى سمعت لأول مرة باسم فرنكلين واسم اديسون ، ولكننى أذكر جيدا أننى لم أعرفهما من كتاب أو من دراسة علمية ، وانما سمعت بهما من موظف فى التلغراف شديد الاعجاب بهما ، على أثر حادث من حوادث المصادفات ، تناولته الصحف بالتعليق السياسى فى ذلك الحين ، ولم تعره شيئا من الاهتمام من الناحية العلمية .

كان ذلك الحادث ، على ما أذكر الآن ، سقوط صاعقة على بناء مجلس الوزراء وكنت لأزال يومئذ فى بلدتى أسوان لهم أبرج مدرستها الابتدائية ودار الحديث عن الصاعقة وعن التعليقات السياسية عليها ، وتحدث الموظف بالتلغراف من جيراننا عن رجل يسمى فرنكلين ورجل يسمى اديسون : كلاهما عامل صغير بدأ حياته بالعمل اليدوى فى الصحافة ثم اخترع باجتهاده أكبر المخترعات فى الكهرباء ، ثم جرى — فى شيء من اللغط المبهم — ذكر عمود الصواعق وذكر الفنغراف ، وفضل العاملين الصغيرين فى كل من هذين الاختراعين .

وقام بذهنى أن أصنع مثل هذا الصنيع يوما من الأيام ، فلم أزل حتى دخلت مدرسة (الصنائع) فى نحو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرى ، وشعرت يومئذ كأننى أفسر حلما قديما كاد أن يذهب بين الوعى والنسيان ، وكاد فرنكلين اذن أن يتوجه بحياتى وجهة غير وجهتها ، يوم كان اسم فرنكلين يحضرنى مقرونا بالكهربا ولا يحضرنى منه شيء من سيرته الطويلة فى الكتابة والتفكير والسياسة .

ووقع في يدى بعد ذلك كتيب من سلسلة كبيرة تلخص التراجم والمؤلفات لأعلام النوابع في الثقافة الغربية فبدأت به قراءة تلك السلسلة لأنه مكتوب عن صاحبنا القديم فرنكلين .

ومن تحكم الذاكرة أننى أذكر حتى اليوم منظرين من مناظر السيرة التى لخصها ذلك الكتيب الصغير .

أحدهما منظر الطفل الجائع فرنكلين يقضم رغيف الخبز وترصد له طفلة في طريقه لاتزال تداعبه وتلح في مداعبته وتوقع في روعه أنها تريد أن تخطف الرغيف من يديه ، حتى يوشك أن يبكى من الغيظ الذى لم يكن يكرهه كل الكراهية على ما يظهر !

والمنظر الآخر منظر الحوار بين فرنكلين ورجل من رجال الدين تلقى من يديه عارفة مشكورة ، فاذا هو يشكره بالنيابة عن الله كأنما هو غريب عن الموضوع لا شأن له بين المحسن والمحسن اليه ، ويأبى فرنكلين أن يفوت على الرجل روغانه هذا من واجب الشكر ، فيقول له : انما أعطيتك أنت يا أبتاه !

وأقول ان بقاء هذين المنظرين دون غيرهما من مناظر تلك السيرة في ذلك الكتيب الصغير انما كان من تحكم الذاكرة فيما تأخذ وفيما تدع ، لأننى حين توسعت في قراءة فرنكلين ، وفي القراءة عنه بعد ذلك ، وجدت في السيرة الحافلة مناظر لاتحصى مما يصح أن يعلق بالذاكرة ويغطي على منظر الرغيف المهدد ومنظر القس الرائع من الشكران... ولا أحسب ، على هذا ، أن أظلم الذاكرة كل الظلم ، فلعل هذين المنظرين يجمعان من فرنكلين في نفس القارئ الشاب ، ما لم يجتمع من منظرين غيرهما في الكتيب الصغير .

وقرأت بعد ذلك كثيرا من فرنكلين وعن فرنكلين ، ولم أنس قط أنه كاد أن يوجه حياته وجهة أخرى في يوم من الأيام .
ثم دخلت السجن ودعوت بكتاب أتعلم منه اللغة الفرنسية بغير معلم،

واختارت القراءة في الجزء المخصص للمطالعة قبل الجزء المخصص للأجرومية ، فلم أقلب من الكتاب صفحة بعد صفحة حتى التقيت بصاحبنا القديم فرنكلين في الصفحة الرابعة والسبعين من الكتاب (١) .

والقصة قصة اللقاء الأول بين فرنكلين والعالم الفلكي الفرنسي الكبير دى بايلي De Bailly ، وهي أعجب ما قرأت من نواذر هذا الرجل العجيب .

« فرنكلين مندوب المستعمرات الأمريكية الثائرة على الوطن الأم ، وفد الى باريس سنة ١٧٧٧ ، ورأى الفلكي دى بايلي من واجبه أن يزور الأمريكي النابه ، فاستقبله فرنكلين بترحاب غاية في المودة وبإدله بضع كلمات من التحيات التي تتبادل في مثل هذا المقام ، وجلس بايلي على مقربه من الفيلسوف الأمريكي وترقب بكل عناية ما يفوه به من الأسئلة ، وانقضى نصف ساعة وفرنكلين لايفتح فمه ، وأخرج بايلي علبة السعوط وقدمها الى جاره دون أن ينس بكلمة ، فأشار فرنكلين بيده اشارة معناها أنه لايتعاطاه ، واستمرت هذه المساجلة الصامتة ساعة كاملة ، فنهض دى بايلي واستعد للانصراف ، وبدأ على فرنكلين كأنه فرح بلقاء فرنسى يستطيع أن يلوذ بالصمت ويمسك لسانه ، فأخذ بيده وشدها شدة حميمة وهو يقول في حماسة بينة : حسن جدا يا سيد بايلي . حسن جدا . وتوثقت بينهما المودة بعد ذلك فأصبحا من خيرة الأصدقاء » .

ولم أكد أصدق ما قرأت ، واتهمت جهلى بالفرنسية فاخترت فرصة من فرص السجن أعرضها فيها على زميلنا الأستاذ حسن النحاس ، فقال لى : انتى فهمت منها الصواب .

ان موضع العجب في القصة أن فرنكلين لم يشتهر في مجالسه بشيء كما اشتهر بلباقة الحديث والسر وأفانين الكلام المستعجب بين الجدد والفكاهة ، فما الذى ألجأه الى ذلك الصمت مع العالم الفرنسي الكبير ؟

لا أعلم ، ولم أجد من سيرته مع هذا العالم أو مع غيره ما يجعلو لى سر هذه « الصمتة » الغريبة ، ولكننى عرفت منها حقيقة لا ريب فيها : عرفت منها أن هذا الرجل يستطيع أن يشع من حوله جو المحبة والمودة وأن يمحو من ظن جلسيه كل احتمال للجفاء والفتور ، ولولا ذلك لانصرف العالم الفرنسى من حضرته وهو عدو مبين ، ولم ينصرف — كما قالت القصة وقال التاريخ — صديقا من أخلص الأصدقاء المقربين .

ثم حان الأوان وشرعت فى كتابة هذه السيرة وأنا أحس كأئننى جددت الصلة الفكرية بصاحب قديم ، وتبينت من مراجع السيرة كلما أمعنت فى تصفحها أنها بنت أوانها ، اذا كان لكتابة السير أوان مفضل عدا ما تستحقه كل سيرة من التسجيل والتحليل .

فنحن فى عصر التجزئة والتفتت أحوج ما نكون الى مثال كامل لانسان لم يمزقه التخصص شلوا شلوا بين شواغل العقل وشواغل الحياة . ونحن فى عصر الطغيان على « الشخصية » الفردية أحوج ما نكون الى مثال من غمار الناس لم يستغرقه الغمار ولم يسمح ملامحه المتميزة بين أمواج التيار .

ونحن فى عصر النبوغ العصامى نحتاج الى عظمة تقرب العصامية لمن يهابها وتيسر القدوة لمن تروعه هالات العظمة فى أعلام التاريخ فيحجم عن الاقتداء بها ويحسب نفسه من غير معدنها .

فالعظمة فى هذا العصامى من « طينة عامة » حيثما واجهتها كما قال فيه أصدق مترجميه . الا أنك تواجهه من جهات شتى فتلمح فى كل منها تلك العظمة التى تحسبها من الطينة العامة ، وتعرف كيف تكون العظمة الانسانية أحيانا « كالسهل الممتنع » فى بلاغة البلغاء ، يفريك بالمحاكاة والاقتداء ولا تعرف كيف يمتنع عليك الا وقد تمكن منك الاغراء .

وفيما لقى هذا الرجل العظيم من العرفان تشجيع أى تشجيع .

وفيما لقي هذا الرجل من الانكار عزاء أى عزاء ، وربما كان العزاء من سير العظماء أجدى وألزم من التشجيع .

لقد كرمته معاهد العلم فى أمم الحضارة بأشرف ألقابها ، وعرفت له أمته ماثره فى جهاده فاستقبلته كما يستقبل الفاتحون ، ومحضته من الاكبار والاعجاب ما ييسط العذر للحاسدين . فلا عذر لمن يحسد هذا الرجل الا أنه استحق الحسد بفرط ما استحق من اكبار واعجاب .

ولو أن عظيما بين أبناء آدم وحواء ينجو من الحسد لنجا منه هذا العظيم الذى غص من كبريائه باختياره فلم يدع فيه بقية لمن ينكر عليه الكبرياء ، ولو أنكر عليه عرفان العارفين بالقدر الكبير .

مات ولم يشكره مجلس الأمة الذى كان له فيه أنداد وزملاء ، ولبس عليه الحداد مجلس الأمة الذى لم يعرفه الا بالسماع . مجلس الشيوخ يرضن عليه بالشكر ومجلس النواب يلبس السواد ثلاثين يوما حزنا عليه .

لعله لو لم يحسد هذا الحسد لقليل انه لم يبلغ من عرفان قومه غاية ما يستطيع .

واليوم وقد أخذ الفناء ما أخذ ، وأبقى الخلود ما أبقى ، لا يضار المحسود بما أصابه كما يضار الحاسد بما أصاب ، ولو كتب لفرنكلين أن يعود الى الدنيا كما تمنى أن يعود كل مائة عام ، لما تمنى — بخبرة الحياة والموت — أن يتبوأ من دنياه مكانا أرفع مما تبوأه بعمله وذكراه.

بنچامین فرانکلین

نشر بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر



